فلسطين:
من الاسكندر إلى الفتح العربي الاسلامي

الدكتور نقولا زياده

● ناصري الأصل ولد في دمشق ١٩٠٧.

● حصل على الشهادة الجامعية الأولى (البكالوريوس) من جامعة لندن (١٩٣٩) وعلى الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة لندن (١٩٥٠).

● درّس في الكلية العربية والكلية الرشيدية في القدس (١٩٣٩ ــ ١٩٤٧)، وفي الجامعة الأميركية في بيروت (دائرة التاريخ) من سنة ١٩٤٩ إلى ١٩٧٣. وهو الآن أستاذ شرف في تلك الجامعة. ودرّس كأستاذ زائر في هارفارد (١٩٥٦ ــ ١٩٥٧، ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣) وفي الجامعة الأردنية (١٩٧٦ ــ ١٩٧٨) وفي الجامعة اللبنانية (١٩٧٨ ــ ١٩٨٠). وزار محاضراً عدداً من الجامعات العربية والأوروبية والأميركية والهندية.

● من مؤلفاته بالعربية: رواد الشرق العربي، القومية والعروبة، ليبيا من الاستعمار إلى الاستقلال، قمم من الفكر العربي الإسلامي. ومن مؤلفاته باللغة الإنكليزية: الحياة المدنية في سوريا في أوائل عهد المماليك، سوريا ولبنان، السنوسية، دمشق في عهد المماليك، أصول القومية في تونس. وقد كتب عدداً كبيراً من المقالات في المجلات العلمية وفي الدوريات.

فلسطين:
من الاسكندر إلى الفتح العربي الاسلامي

الدكتور نقولا زياده

● ناصري الأصل ولد في دمشق ١٩٠٧.

● حصل على الشهادة الجامعية الأولى (البكالوريوس) من جامعة لندن (١٩٣٩) وعلى الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة لندن (١٩٥٠).

● درّس في الكلية العربية والكلية الرشيدية في القدس (١٩٣٩ ـ ١٩٤٧)، وفي الجامعة الأميركية في بيروت (دائرة التاريخ) من سنة ١٩٤٩ إلى ١٩٧٣. وهو الآن أستاذ شرف في تلك الجامعة. ودرّس كأستاذ زائر في هارفارد (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣) وفي الجامعة الأردنية (١٩٧٦ ـ ١٩٧٨) وفي الجامعة اللبنانية (١٩٧٨ ـ ١٩٨٠). وزار محاضراً عدداً من الجامعات العربية والأوروبية والأميركية والهندية.

● من مؤلفاته بالعربية: **رواد الشرق العربي، القومية والعروبة، ليبيا من الاستعمار إلى الاستقلال، قمم من الفكر العربي الإسلامي**. ومن مؤلفاته باللغة الإنكليزية: **الحياة المدنية في سوريا في أوائل عهد المماليك، سوريا ولبنان، السنوسية، دمشق في عهد المماليك، أصول القومية في تونس**. وقد كتب عدداً كبيراً من المقالات في المجلات العلمية وفي الدوريات.

المحتويات

الفصل الأول
من الإسكندر إلى بومبي

١ ــ مقدمــة:

لم تتوقف حركة التاريخ في فلسطين منذ أن بدأ مسيرته في مطلع الألف الرابع قبل الميلاد. فالبلد الذي يقتعد ملتقى الطرق ومفارقها لا يُسمح لبنيه أن يهجعوا أو يعرفوا الراحة. فالجيران الأقربون والطامعون الأبعدون لا بد أن يتحرَّشوا بهم ــ دغدغة أو لكزاً أو سلباً أو نهباً أو حرباً أو سبياً أو تهجيراً.

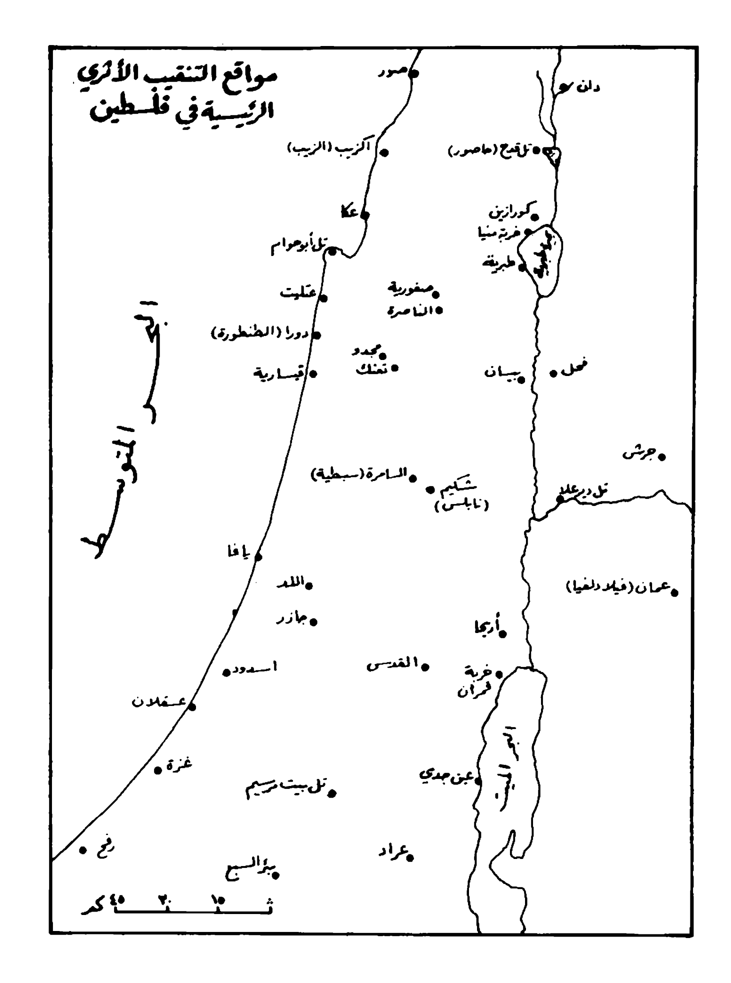
وكان رقاص الساعة يتحرك، بالنسبة لفلسطين، خلال الفترة الممتدة من الألف الرابع إلى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، من الشرق إلى الغرب ــ هجرة أقوام هبطوها من الصحراء وتنقُّل قبائل جاءت تستوطنها ــ عموريّين وكنعانيين وغير ذلك. كما هاجمتها الدول التي قامت إلى الشرق منها فاتحة غازية ــ بابليّين وأشوريّين وكلدانيين وفرساً. وفي حالة واحدة فقط في تلك الفترة من حياة فلسطين جاء القوم الفاتحون من الجنوب من مصر. أما الغرب ــ البحر ــ فلم يأت منه إلى فلسطين سوى «شُعوب البحر»، الذين عُرفوا بالفلسطيين. جاؤوا البلاد في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وهم الذين منحوا البلاد اسمها فلسطين.

وإذا نحن أخذنا هذه الهجرات المختلفة التي جاءت فلسطين إلى أيام الفرس، وفي القرن الرابع قبل الميلاد على وجه التحديد، وألقينا نظرة على التوزيع السكاني للبلاد في ذلك الوقت، توصلنا إلى النتائج التالية:

(أ) كان سكان الجليل في أكثرهم من الايطوريين العرب الذين كانوا قد وفدوا على تلك المنطقة وعلى لبنان قبل ذلك ببضعة قرون. وقد امتزج هؤلاء القادمون بالسكان الأصليين الذين هم، في غالبهم، بقية الكنعانيين. وقد كان العنصر الكنعاني أقوى في الجليل الأسفل وفي السفوح المتحدرة نحو السهل الساحلي.

(ب) كان العنصر الغالب على السهل الساحلي من جنوب صور إلى أواسطه العنصر الكنعاني. ومن هنا كان السكان هناك على تفاهم تام مع الفينيقيين المقيمين إلى الشمال منهم في فينيقيا، لأن هؤلاء هم أيضاً كنعانيون.

(ج) كان سكان السهل الساحلي الأوسط والجنوبي يتكونون أصلاً من الفلسطيين الذين استقروا أولاً (القرن الثاني عشر قبل الميلاد) في الجزء الجنوبي ثم انتشروا شمالاً بحيث كانت لهم السيطرة على أكثر أجزاء السهل الساحلي وحتى على الأجزاء الغربية والجنوبية من مرج ابن عامر. وقد اختلط أولئك الفلسطيون مع العنصر الكنعاني الذي كان في فلسطين بأكملها قبلهم.



(د) كان سكان الجزء الجنوبي من فلسطين الذي كان يطلق عليه ادوم، الادوميين العرب الذين دخلوه في القرن السابع أو السادس قبل الميلاد.

(هـ) كانت تقوم إلى الشمال من أدوم منطقة القدس وهي التي أطلق الفرس عليها اليهودية. وهذه الرقعة من الأرض كانت جزءاً صغيراً من فلسطين بحيث ان حدودها في كل اتجاه تتراوح في بعدها عن بيت المقدس بين ٢٠ و ٢٤ كم. وهذه هي المنطقة التي أعاد الفرس إليها جماعة من يهود السبي البابلي على يد الفرس بعد أن قضى هؤلاء على دولة الكلدانيين (٥٣٩ ق. م). ومع ذلك فلم يكن جميع السكان في هذه المنطقة يهوداً.

(و) وكانت السامرة تقع بين منطقة القدس ومنطقة الجليل. وسكان السامرة كانوا قد حملوا إلى آشور على أيدي سرجون لما احتل السامرة (٧٢٢ ـ ٧٢١ ق. م) وأرسل الآشوريون جماعات من أرض الرافدين والجوار استوطنت السامرة، المدينة والمنطقة المحيطة بها. والسكان الذين كانوا نتيجة هذا الاختلاط هم السامريون. فهم عنصرياً ليسوا يهوداً، ودينياً كان لهم وجهات نظر تختلف عن يهود بيت المقدس. فالجبل المقدس بالنسبة لهم هو جرزيم (قرب نابلس) والهيكل القائم عليه هو الأصل. ويجب أن نذكر أن أحد العناصر المؤثرة في تكوين السكان في فلسطين كان العنصر الآرامي، الذي كان يسيطر أصلاً على المنطقة الممتدة من حلب إلى جنوبي دمشق، لكن تنقله إلى الجهات الغربية والجنوبية أمر معروف.

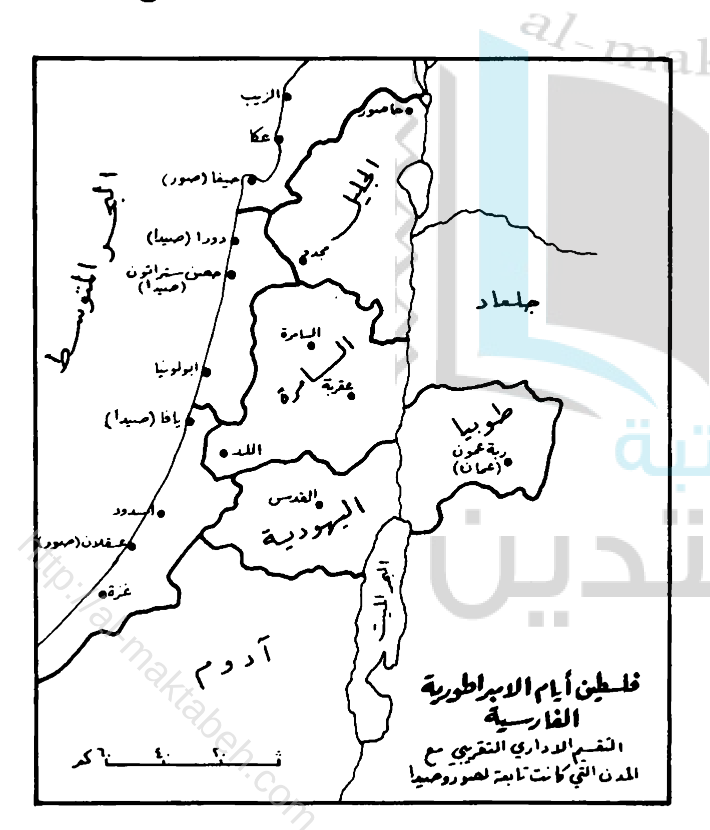
(ز) كان سكان الجليل والسهل الساحلي وأدوم وثنيين. صحيح أنه كان في الجليل عدد من اليهود لكنه كان صغيراً إلى حد أن سمعان المكابي (١٤٣ ـ ١٣٤ ق. م) لما اعتزم حماية اليهود في الجليل من أذى جيرانهم رأى من المناسب أن ينقلهم جميعهم إلى اليهودية لأنه لم يكن من الممكن الحفاظ عليهم في منطقتهم الأصلية. وهذا يدل، في رأي شورر Schürer، على أن عددهم كان ضئيلاً. وأهل السامرة كانوا سامريين. وإذن فالمنطقة الوحيدة التي كان فيها عدد كبير نسبياً من اليهود هي بيت المقدس وجوارها (اليهودية).

(ح) وكانت اللغة الآرامية هي اللغة الشائعة في المنطقة، وفي فلسطين كجزء منها؛ وقد كانت لغة التخاطب بين الجماعة اليهودية في جميع أنحاء البلاد. حتى يرى شورر أنها كانت لغة التدوين عند الكثيرين من اليهود.

(ي) لما احتل يوحنا هركانوس الحشموني (١٣٤ ـ ١٠٤ ق. م) أدوم أرغم السكان على اعتناق اليهودية. ولما احتل أرستوبولس (١٠٤ ـ ١٠٣ ق. م) الجليل فعل بالسكان الشيء نفسه[1].

ولنعد إلى رقاص الساعة. إن حركته تبدلت في العقود الأخيرة من القرن الرابع قبل الميلاد، فأصبحت من الغرب إلى الشرق. تمّ ذلك في أيام الإسكندر المقدوني، لكنه لم يتوقف معه. فقد استمر هذا الاتجاه الجديد مع الرومان ثم مع البيزنطيين. وبعد ألف سنة عاد الرقاص يتجه من الشرق إلى الغرب ثانية بدءاً بالفتوح العربية في مطلع القرن السابع للميلاد.

في سنة ٣٣٤ ق. م اجتاز الإسكندر البحر من اليونان إلى آسيا الصغرى، وأحرز أول انتصار على الفرس في معركة غرانيكوس Granicus. وفي السنة ذاتها انتصر على ملك فارس نفسه (دارا الثالث) في إيسوس Issus في كيليكيا Cilicia. واتجه بعد ذلك جنوباً نحو سواحل بلاد الشام رغبة منه في تدمير الأسطول البحري الفينيقي، الذي كان عماد فارس في شرق البحر المتوسط، والذي كان باستطاعته أن يقطع خط مواصلات الإسكندر مع مقدونيا. فاجتاز جبال طوروس وعمّر مدينة مرياندوس Miriandos وهي الإسكندرونة الحالية، وتسلّم إرواد من أهلها. وأرسل من هناك فرقة من جيشه مع بارمنيون



فلسطين أيام الامبراطورية الفارسية
التقسيم الاداري التقريبي مع المدن التي كانت تابعة لصور وصيدا

Parmenion، أحد قواده، إلى دمشق، فاحتلها هذا بسهولة واستولى على كنوز دارا التي كان قد أودعها المدينة.

سار الإسكندر بعد ذلك على الساحل الشامي، فسلّمت له ببلوس (جبيل) وصيدا. أما صور فقد حاصرها سبعة شهور قبل أن يستولي عليها (تموز/يوليو ٣٣٢ ق. م). وقد قتل من سكانها ثمانية آلاف وباع عدداً كبيراً من أبنائها في أسواق الرقيق. وكانت غزّة المدينة الساحلية الثانية التي وقفت في طريقه. فقد صمدت على حصاره لها مدة بين شهرين وأربعة أشهر، وانتهى الأمر بها وبأهلها إلى ما انتهى إليه أمر صور: دُمّرت المدينة وقُتِل عدد من الرجال كبير، وبيع كثيرون من سكانها في أسواق الرقيق أيضاً (خريف ٣٣٢ ق. م).

أما مصر فقد تسلّمها الإسكندر سلماً، إذ كانت قد لقيت من الفرس الأمرّين، وكانت قد ثارت عليهم في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد، فلما قضى الفرس على الثورة نكّلوا بالسكان بشكل فظيع.

خطط الإسكندر مدينة الإسكندرية وزار موحى آمون (في واحة سيوه) ونظم شؤون مصر، قبل أن يعود إلى فلسطين. وكان قواد الإسكندر قد أتمّوا فتح هذه البلاد. فقبلهم أهل بيت المقدس دون مقاومة. أما السامريون فقد سلّموا مدينتهم (السامرة) أولاً ثم ثاروا ضد أندروماكوس Andromachus الذي عيّنه الإسكندر حاكماً عليهم، وقتلوه حرقاً. فعاقبهم الإسكندر بأن قتل الكثيرين منهم، وغيّر نائبه الجديد بِردِكاس Perdiccas معالم المدينة وأقام فيها حامية عسكرية مقدونية كانت الأولى في فلسطين.

وعاد الإسكندر إلى بلاد الشام، حيث أعدّ حملته نحو فارس وأواسط آسيا وحوض السند. وبعد احتلال تلك المناطق عاد إلى بابل، حيث أخذ يخطط لفتوح جديدة. لكنه توفي هناك سنة ٣٢٣ ق. م[٢].

كانت وفاة الإسكندر المفاجئة سبباً في تنافس قوي بين قادته وخلفائه، ومدعاة لاضطراب حبل الأمن في امبراطوريته الواسعة. وبعد أخذ وردّ طويلين عقد قوّاد الإسكندر مؤتمراً في بابل (سنة ٣٢٣ ق. م)، حيث تقرّر الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية. لكن هذا كان أمراً ظاهراً فقط، لأن خلافاً قام بين الجماعة حول ولاية شؤون الامبراطورية إلى أن يبلغ ابن الإسكندر الطفل أشدّه. وعقد القواد مؤتمراً ثانياً في شمال سوريا (سنة ٣٢١ ق. م) أيّدوا فيه المقررات السابقة، لكن ذلك لم ينه الخلاف بينهم. فقامت حروب بين هؤلاء الخلفاء استمرت إلى سنة ٣٠١ ق. م. إذ التحم الفريقان الرئيسان المتخاصمان في معركة إبسوس Ipsus، كانت نتيجتها الفعلية بدء تجزئة الامبراطورية.

والذي يهمنا هو ما أصاب بلاد الشام ومصر، لأن تاريخ فلسطين ارتبط بتاريخهما ارتباطاً عضوياً في الفترة التالية لمدة قرون ثلاثة على الأقل. لقد تولّى سلوقس الأجزاء الآسيوية، كما احتفظ بطليموس بولاية مصر، إلا أنه استبد أيضاً بالأجزاء الشامية الواقعة إلى الجنوب من خط يمتد من جنوبي دمشق تقريباً إلى الساحل غرباً على مقربة من اللاذقية. وقد ذاقت فلسطين، خلال هذه السنوات الاثنتين والعشرين التي مرت بين وفاة الإسكندر ومعركة إبْسوس، الأمرّين من الحروب المذكورة. فقد عبرتها الجيوش المتحاربة سبع مرات واحتلت بعض أجزائها ولو موقتاً، واقتحمت بيت المقدس مرة واحدة على الأقل.

وقامت سلسلة من الحروب بين من تبقى من قادة الإسكندر ومن خَلَفهم استمرت إلى سنة ٢٧٧ ق. م. ونحن إذا ألقينا نظرة على المنطقة بعد نحو نصف قرن من وفاة الإسكندر، وجدنا أن الجيل الأول من الضباط والقادة الذين رافقوا الإسكندر كان قد فارق الحياة؛ وأن الجيل الجديد الذي وضعت الأمور في يده لم يكن يُعنى بوحدة الامبراطورية، بل كان يرى أن هذه الرقعة الواسعة تتسع لثلاثة عروش على الأقل: واحد في آسيا وثان في أفريقيا وثالث في أوروبا (في مقدونيا). وقد اتجه اهتمامهم نحو تحقيق أحلامهم ومخططاتهم. ويعنينا من هذا كله دولتان: السلوقيون في بلاد الشام والبطالمة في مصر[٣].

وقبل البدء بالحديث عن هاتين الدولتين فإننا نضع بين يدي القارىء جدولين بأسماء ملوك البطالمة والسلوقيين تيسيراً للعودة إليهما عند الحاجة:

ملوك البطالمة:

الملك	المدة
بطليموس الأول (سوتر) Ptolemy I (Soter)	٣٢٣ ـ ٢٨٢ ق. م
بطليموس الثاني (فيلادلفوس) Ptolemy II (Philadelphus)	٢٨٢ ـ ٢٤٦
بطليموس الثالث (ايفرغيتس) Ptolemy III (Evergetes)	٢٤٦ ـ ٢٢٢
بطليموس الرابع (فيلوباتر) Ptolemy IV (Philopator)	٢٢٢ ـ ٢٠٤
بطليموس الخامس (ابيفانس) Ptolemy V (Epiphanes)	٢٠٤ ـ ١٨٠
بطليموس السادس (فيلوميتر) Ptolemy VI (Philometor)	١٨٠ ـ ١٤٥

بطليموس السابع (ايفرغيتِس الثاني) Ptolemy VII (Evergetes II)	١٤٥ ــ ١١٦
بطليموس الثامن (سوتر الثاني) Ptolemy VIII (Soter II)	١١٦ ــ ١٠٧
بطليموس التاسع Ptolemy IX	١٠٧ ــ ٨٨
بطليموس العاشر Ptolemy X	٨٨ ــ ٨٠
بطليموس الحادي عشر (أوليتوس) Ptolemy XI (Auletes)	٨٠ ــ ٥١
كليوباترة السابعة وبطليموس الثاني عشر Cleopatra VII and Ptolemy XII	٥١ ــ ٣٠
بطليموس الثالث عشر Ptolemy XIII	٥١ ــ ٤٧

واعتباراً من سنة ٣٠ق. م. أصبحت مصر ولاية رومانية.

ملوك السلوقيين:

سلوقس الأول (نيكاتور) Seleucus I (Nicator)	٣١٢ ــ ٢٨١ق. م.
أنطيوخُس الأول (سوتر) Antiochus I (Soter)	٢٨١ ــ ٢٦١
أنطيوخُس الثاني (ثِيوس) Antiochus II (Theos)	٢٦١ ــ ٢٤٦
سلوقس الثاني (كَلينِيكُس) Seleucus II (Calinicus)	٢٤٦ ــ ٢٢٥
أنطيوخُس الثالث (الكبير) Antiochus III (The Great)	٢٢٣ ــ ١٨٧
سلوقس الرابع (يوباتُر) Seleucus IV (Eupator)	١٨٧ ــ ١٧٥
أنطيوخُس الرابع (ابيفانِس) Antiochus IV (Epiphanes)	١٧٥ ــ ١٦٤
أنطيوخُس الخامس وديمتريوس الأول والإسكندر بالَس وأنطيوخس السادس	١٦٤ ــ ١٣٩
أنطيوخُس السابع (سيديتس) Antiochus VII (Sidites)	١٣٩ ــ ١٢٩
ديمتريوس الثاني Demetrius II	١٢٩ ــ ١٢٥
أنطيوخُس الثامن (غريبوس) Antiochus VIII (Grypus)	١٢٥ ــ ٩٦
أنطيوخُس التاسع (كيزيسينوس) Antiochus IX (Cyzicenus)	١١٥ ــ ٩٥

شُغِلَ البطالمة والسلوقيون، طوال القرن الثالث قبل الميلاد، بالتقاتل في سبيل السيطرة على الجزء الجنوبي من بلاد الشام. فقد كانت مصر ترى في تلك الرقعة خط الدفاع الأول عنها. فضلاً عن أن المنطقة كانت غنية بالأخشاب (جبال لبنان وبعض الجبال الفلسطينية) التي كانت مصر تفتقر إليها. كما كانت البلاد تنتج زيت الزيتون، وهو مادة نادرة في مصر. يُضاف إلى ذلك أن مصر كانت حريصة على السيطرة على الموانىء الفينيقية وعلى قبرص، وهي مراكز التجارة البحرية، كما كانت مصر شديدة الاهتمام بأن تكون الطرق التجارية البرية التي تربط بين شواطىء المتوسط وشمال الجزيرة العربية تحت نفوذها. وكان السلوقيون يسعون جاهدين إلى ضم جنوب بلاد الشام إلى أملاكهم كي يتمّ لهم التحكّم في الموانىء ذاتها والطرق التجارية نفسها. وقد زاد اهتمام السلوقيين بتلك المنطقة لما انفصلت الأجزاء الشرقية (من جنوب العراق وإلى الشرق) عن امبراطوريتهم، فخسروا بذلك السيطرة على الطرق البرية التي كانت تربطهم بأواسط آسيا والصين. فأرادوا أن يستعيضوا عن ذلك بطريق الخليج العربي والمحيط الهندي.

وكان ثمة عنصر آخر يحمل البطالمة على التمسك بهذه المنطقة، أي جنوب بلاد الشام، هو الجنود المرتزقة. فقد انقطع عن البطالمة، بسبب الحروب الكثيرة بين المتنازعين من خلفاء الإسكندر، سبيل وصول ما يحتاجون إليه من الجند من مقدونيا. فأصبحوا يعتمدون على المرتزقة من الأدوميين والأعراب.

وقد شُنت حروب خمس بين الدولتين في القرن الثالث قبل الميلاد، وذلك بغية الانفراد بالسيطرة على جنوب بلاد الشام؛ وقد عُرفت هذه باسم الحروب السورية:

(أ) الحرب الأولى (٢٧٦ ــ ٢٧٢ ق. م): شنها بطليموس الثاني ضد أنطيوخُس الأول السلوقي. إلا أن هذا صدّ المصريين واستعاد دمشق. وبعد تبادل الحملات والقتال عقد الاثنان صلحاً احتفظ بموجبه بطليموس بفينيقيا وما إلى الجنوب من دمشق، على أن تظل هذه للملك السلوقي.

(ب) الحرب الثانية (٢٦٠ ــ ٢٥٥ ق. م): وهذه شنها أنطيوخس الثاني أملاً في استرداد ما كان قد ظل في أيدي البطالمة (على أساس الصلح السابق). ولما انتهت الحرب كانت الأجزاء التابعة للبطالمة قد تقلّصت. فبعد أن كانت الحدود الشمالية تبدأ من نقطة على الساحل تقع إلى الشمال من طرابلس (لعلّها كانت جَبْلَة؟) وتمتد إلى البقاع مارة جنوبي دمشق، أصبح الحد الشمالي يبدأ من نقطة تقع شمالي صيدا ويتجه خطه إلى البقاع ثم جنوبي دمشق.

(ج) الحرب الثالثة (٢٤٦ ــ ٢٤١ ق. م): لما تـولى بطليموس الثالث عرش مصر (سنة ٢٤٦ ق. م) طمع في أن يمتلك بلاد الشام بأسرها. وقد نجح في الوصول إلى أنطاكية واحتلال سلوقية (الواقعة عند مصب العاصي). ومع أن سلوقس الثاني استرد الأجزاء الشمالية من سوريا، فإنه عاد فخسرها قبل نهاية الحرب.

(د) الحرب الرابعة (٢١٩ ــ ٢١٧ ق. م): بدأت هذه لما نجح أنطيوخس الثالث (الكبير) في استرداد سلوقية. فشجعه هذا على الاتجاه جنوباً، فسلّمت له مدن ساحلية كثيرة حتى وصل عكا. عندها استقر رأيه على احتلال ما تبقى من فلسطين قبل مهاجمة مصر. لكن بطليموس الرابع حشد جيشاً كبيراً من المصريين ومن مرتزقة آسيا. والتقى الملكان وجيشاهما في رفح (٢١٧ ق. م)، وكان في المعركة نحو ١٣٠,٠٠٠ جندي وقرابة مئتي فيل. ودارت الدائرة على أنطيوخس، واحتفظت مصر بفلسطين وفينيقيا، وهي المنطقة التي كان يُطلق عليها رسمياً اسم سوريا وفينيقيا (وكان يُشار إليها أحياناً باسم سوريا المجوّفة).

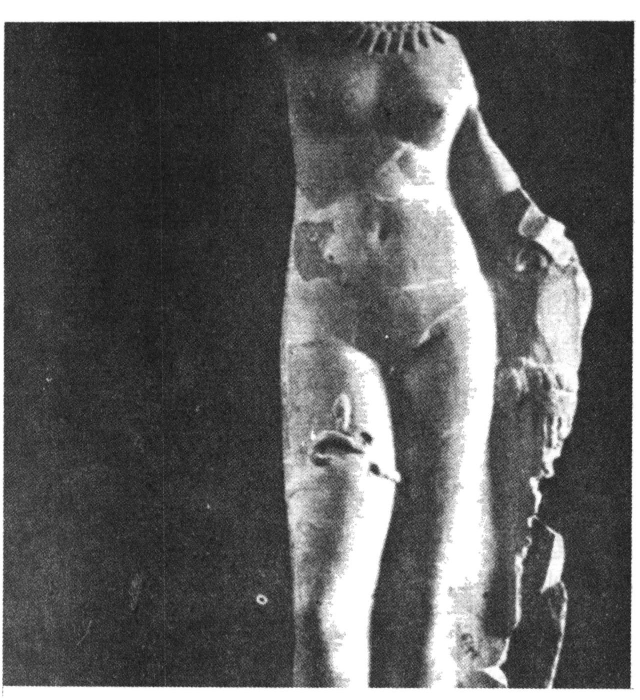
(هـ) الحرب الخامسة (٢٠٢ ــ ٢٠٠ ق. م): أعاد أنطيوخس الثالث الكرّة وهاجم البطالمة. والتقى جيشُه القائدَ المصري في بانيون (بانياس) عند منابع الأردن، وانتصر أنطيوخس واستعاد عندها بلاد الشام بأجمعها. وأصبحت هذه المنطقة بعد ذلك جزءاً من المملكة السلوقية[٤].

ومع أن فلسطين قد أصابها الضرّ بسبب حروب الخلافة المبكرة، فإنها لم تتأثر مباشرة بالحروب السورية الثلاث الأولى، لذلك أُتيح لها أن تستمتع بنحو ثمانين سنة (في القرن الثالث قبل الميلاد) نعمت فيها بقسط من الاستقرار النسبي، فأفادت منها في تطوير اقتصادها.

أما في العصر السلوقي فلم يُتَح لفلسطين مثل هذا الاستقرار والهدوء. فإن أنطيوخس الثالث (الكبير) (٢٢٣ ــ ١٨٧ ق. م) لم يلبث، بعد أن انتزع فلسطين من البطالمة، أن خاض حرباً ضد رومة، الدولة التي ظهر نجمها في المغرب والتي كانت قد بدأت زحفها نحو المشرق. وقد غُلب أنطيوخس في معركة مغنيزيا Magnesia سنة ١٩٠ ق. م. وعقد صلح أفامية Apamea سنة ١٨٨ ق. م. واضطُر الملك السلوقي أن يدفع غرامة حربية لرومة قيمتها ١٢,٠٠٠ وزنة (وهي أكبر غرامة حربية عرفها التاريخ القديم)[٥].

كان موقف أنطيوخس الثالث من سكان منطقة بيت المقدس (اليهوديّة) مثل موقف أسلافه وموقفه هو بالذات من الشعوب المتعددة التي كانت تقطن الامبراطورية الواسعة، ومن مدنها وحكامها (راجع ما يلي). لكن الدولة السلوقية بدأت، بعد وفاته، تعاني مشكلات عديدة؛ منها الحروب التي كانت تشنها ضد الفرثيّين (في إيران وشرقيها) أو التي تواجه بها هجمات الفرثيين. فالدولتان كانتا في خصومة دائمة لأنهما كانتا تتنازعان حول منطقة ذات قيمة اقتصادية لكل منهما ــ أرض الرافدين والطرق التجارية. ومن مشكلات الدولة السلوقية الحروب الأهلية التي نشبت بين أصحاب الوراثة في العرش والمطالبين به ومغتصبيه وأدعيائه. ومنها موقف البطالمة العدائي الذي تجدد في أيام بطليموس السادس الذي جرّب استعادة ما فقده أسلافه من بلاد الشام. وكل من هذه المشكلات كانت تتطلب نفقات مالية كبيرة. وبذلك وقع السلوقيون في مصيبة الحاجة إلى جمع المال من الرعايا وعلى حساب الرعايا. وقد اضطُر أنطيوخس الرابع (١٧٥ ــ ١٦٤ ق. م) إلى أن يقود بضع حملات ضد بطليموس السادس. وقد وصل مشارف الإسكندرية وكاد يحتلها لولا أن تدخلت رومة (١٦٨ ق. م) وأمرته بالجلاء عن مصر[٦].

وفي السنة ١٧٥ق.م. قامت في فلسطين حرب المكابيين ضد السلوقيين، وهي الحرب التي استمرت أربعين سنة (١٧٥ ــ ١٣٥ ق. م) وانتهت بقيام الأسرة الحشمونية التي قضى بومبي عليها سنة ٦٣ق.م. لما احتل القدس. فأصبحت فلسطين عندها



تمثال افروديت في جبل الكرمل من القرن الثالث قبل الميلاد

جزءاً من الدولة الرومانية، شأنها في ذلك شأن جميع بلاد الشام[٧].

٢ ــ البطالمة والسلوقيون وفلسطين:

لم تكن فلسطين، حتى قبل مجيء الاسكندر، غريبة على اليونان، ولم يكونوا هم غرباء عنها. فبلاد اليونان الفقيرة في مواردها الطبيعية، عرفت، منذ القرن السابع قبل الميلاد، تفجّراً سكّانياً كبيراً، ترتب عليه أن خرج أبناء مدنها العديدة إلى سواحل البحرين ــ المتوسط والأسود ــ وإلى آسيا الصغرى؛ هناك أنشأوا عشرات المستوطنات المتباينة في عدد السكان وفي العمل الاقتصادي. وجاء تجار بلاد اليونان وبحارتها إلى موانىء فلسطين وفينيقيا ينقلون إليها ما عندهم من متاجر، وفي مقدمتها الفخار ومشتقاته، ويحملون منها ما كان يتجمع فيها من سلع الأقطار الواقعة إلى الشرق والجنوب. وهذه غزّة، على سبيل المثال، كانت من أكبر الموانىء التي كانت تنتهي إليها القوافل القادمة من جنوب الجزيرة ثم من البتراء محمّلة بالبخور والطيوب والأفاويه. فكان التاجر اليوناني يحمل منها حاجته. وإلى جانب التاجر اليوناني كان هناك تجار يجارونه ويتعاونون معه فينقلون السلع إلى موانىء البحر المتوسط الشمالية والغربية ــ إلى صور وصيدا وديلوس Delos ــ ثم إلى موانىء إيطاليا[٨].

ولم يكن يقل أهميةً عن التجار، بالنسبة لبلاد المشرق، العدد الكبير من مرتزقة اليونان الذين وجدوا في الانضمام إلى جيوش تلك البلاد مورد رزق كبيراً، فضلاً عن إرضاء روح المغامرة عند من يحبها. فالذي يعرفه التاريخ هو أن اليونان عملوا مرتزقة في جيوش الأشوريين المتأخّرين وفي جيوش الكلدانيين، إذ كان منهم عدد كبير في جيش نبوخذنصّر الذي رابط في عسقلان (٦٠٥ ق. م). وقد استعملهم الفرس في جيوشهم التي كانت تقاتل في ولاياتهم الغربية. وفي القرن الرابع قبل الميلاد قامت ثورة ضد الفرس في مصر، فاستعان المصريون بالمرتزقة اليونان، وجاء الجيش الفارسي لإخماد الثورة، وكان فيه أيضاً مرتزقة يونان. وهكذا فقد كان المرتزقة اليونان يتقاتلون فيما بينهم دفاعاً عن خصمين. وبين سنتي ٣٨٠ و ٣٧٤ق. م. كان جيش فارسي يرابط في عكا، وكان جلّه من مرتزقة اليونان. وقد قامت ثورة في صيدا سنة ٣٥٠ق. م، فأخمدها مرتزقة اليونان لحساب الفرس. وقد ظهر من آثار التنقيب الأثري الذي أُجري في عتليت (على الساحل الفلسطيني إلى الجنوب من حيفا) أن حامية فارسية، من مرتزقة اليونان، كانت تقيم هناك، كما بَدَت بقايا متاجر كثيرة كانت يونانية الأصل. ومن الطبيعي أن لا يقتصر أثر هؤلاء المرتزقة على المواقع التي أقاموا فيها، بل إنهم كانوا يتصلون ببقية السكان أيضاً[٩].

إلا أن حملات الاسكندر جاءت بنوع آخر من المقدونيين واليونان. فقد جاء هؤلاء البلاد فاتحين، وكانوا، شأنهم في ذلك شأن أكثر الفاتحين، عدوانيين في تصرفهم. كانوا يرمون إلى قطف ثمار الفتح. وقد أدرك السكان، في فلسطين والجوار، تفوق الفن العسكري اليوناني والتنظيم الحربي، وشعر الفاتحون بهذا التفوق، فلم يخفوا شعورهم بذلك في تصرفهم نحو سكان البلاد الأصليين، وخاصة في الفترة المبكرة من وجودهم. فآلة الحرب التي كانوا يملكون أدق، والحصون أكثر إتقاناً، والسفن كانت أضخم، وإعدادُ جنودهم كان أفضل. والجنود الذين رافقوا الاسكندر، وأولئك الذين جاء بهم خلفاؤه من بعد، كانوا، في نهاية المطاف، يقيمون في مستعمرات عسكرية أُنشئت لهم، كما كانت الحاميات تقيم في مدن تُعدُّ لها (للحاميات) إعداداً خاصاً أو تُبنى لها أصلاً. وقد مر بنا أن بردِكاس، أحد قواد الاسكندر أنشأ أول مستعمرة عسكرية في فلسطين في مدينة السامرة.

لما كانت فلسطين تابعة للبطالمة أقاموا فيها حصوناً وبنوا قلاعاً وأنشأوا مدناً لهذه الحاميات، في غزة، وفي فيلوطريا Philetaireia، وفي بيسان وأسموها سكيثوبوليس Scythopolis، وفي عكا وأسموها بطوليمايس Ptolemais اعتباراً من سنة ٢٦١ ق. م، وفي عين جدي (في التلال المشرفة على البحر الميت في جزئه الجنوبي الغربي). هذا فضلاً عن تلك التي بنوها على الحدود الشمالية لممتلكاتهم. وحري بالذكر أن عدد المرتزقة من المقدونيين واليونان ازداد في فلسطين أيام السلوقيين بعد سنة ٢٠٠ ق. م[١٠].

يجدر بنا، قبل أن نتناول الشؤون الأساسية (الإدارية والمدنية والاقتصادية والاجتماعية) لفلسطين في هذه الفترة الأولى من العصر الهلينستي، أن نضع بين يدي القارىء بضع ملحوظات عامة تتعلق بالسلوقيين والبطالمة الذين كان لهم دور هام في حياة البلاد.

كان السلوقيون يعتبرون أنفسهم ورثة الاسكندر في نظرته للعالم الذي فتحه، أكثر من البطالمة. فالاسكندر أراد أن يوحّد العالم عن طريق نشر الحضارة الهلينية في امبراطوريته. وهذا ما عني به السلوقيون وأخذوا على عاتقهم القيام به في البلاد التي حكموها، ولو في الظاهر. وكانت بلاد الشام الموقع الأخير الذي

ثبتوا فيه حكمهم، ومن ثم فقد ساروا على خطة الاسكندر من حيث إنشاء مدن يونانية في طبيعتها ومستعمرات عسكرية عديدة، بحيث تكون هذه وتلك 'مراكز' للمحافظة على المكاسب في الأرض والاقتصاد من جهة، و'أوعية' لتطوير الحضارة الهلينية والعمل على نشرها في ربوع دولتهم من جهة ثانية. أما البطالمة فقد كانوا أقل احتفالاً بهذا الأمر. لذلك فإنهم لم يُنشئوا سوى مدينة واحدة في مصر هي بطوليمايس (في صعيد مصر)، كما اهتموا بالاسكندرية التي اتخذوها عاصمة ملكهم. أما اليونان والمقدونيون فقد انتشروا في أنحاء وادي النيل، وكان انتشارهم في تجمعات خاصة بهم.

كانت الملكية هي النظام السياسي الذي عرفه المشرق من أقدم الأزمنة. لذلك كان من الطبيعي أن يقوم النظام الملكي أساساً للحكم الجديد. على أن المدن اليونانية كانت تتمتع بالكثير من الحرية المدنية الداخلية. وكانت للمدينة نظمها التي ألِفها اليونان في ديارهم أصلاً ــ مثل المجالس والمجامع والموظفين المنتخبين.

كان البلاط الهلينستي أقل اهتماماً بالأبهة من البلاط الفارسي أو المصري الفرعوني، وكان أفراد الحاشية قريبين من الملك والشعب وكان اتصالهم أيسر. لكن سلطة الملك كانت مطلقة ونافذة في أنحاء مملكته. فقد كان هو المرجع للاستئناف في الأحكام على اختلاف أنواعها ودرجاتها، وكان يتحكم في شؤون المال والضرائب ويستأثر بتعيين الموظفين في القضاء والسياسة والحرب. كما كان الملك 'يُؤلَّه' في حياته(١١).

ومع ذلك فإننا إذا أخذنا المملكتين السلوقية والبطليمية، فإننا نجد بينهما فروقاً في تصريف الأعمال، وهي فروق أساسها اختلاف الفلسفة السياسية عند الذين كانوا ينظّرون الأمور سياسياً. فالسلوقيون كانوا، مثل الفرس قبلهم، يطلقون لسكان البلاد الحرية الدينية، حتى كانوا ينفقون على بناء المعابد والهياكل للفئات المختلفة في دولتهم. ولكنهم، إذا وقعوا في ضائقة مالية، كانوا لا يتورعون عن مصادرة أموال الهياكل هذه. وقد يفعلون ذلك لا عن حاجة، بل إذا رأوا أن ازدياد الثروة بين أيدي المشرفين على الهياكل قد يؤدي بهم إلى التنكر للسلطان. ومع أن البطالمة كانوا ينظرون إلى الحرية الدينية نظرة مشابهة للنظرة السلوقية، فإنهم كانوا يُخضعون أماكن العبادة والهياكل أصلاً لرقابة شديدة.

وكانت الدولة السلوقية تضم، إلى جانب المدن والمستعمرات اليونانية أي الدول ــ المدن، دولَ الهياكل (وقد ورثوها عن أسلافهم في آسيا الصغرى وبلاد الشام وأرض الرافدين وفي إمارات ومشيخات كانت قائمة من قبل). وقد كان وجود هذا التنوع ناشئاً عن تضاريس البلاد الشامية من جهة، وعن وجود القبائل العربية في أنحاء المنطقة. وهذه القبائل تتصل بالقبائل القريبة منها موضعاً أو نسباً في الجزيرة ذاتها. ومن ثم فإن النزعة القبلية تستمر في نموها. وبسبب هذه الاختلافات كان على السلوقيين أن يأخذوا بعين الاعتبار تنوعاً في الإدارة يلائم هذه الأحوال، ومرونة في تطبيق هذه الأمور. أما البطالمة فكانوا يحكمون قطراً تسمح طبيعته بقيام حكم مركزي، ورثته مصر جيلاً عن جيل من أيام الفراعنة. وقد أتقن البطالمة صناعة الحكم المركزي إذ أحكموا الإدارة وأقاموا نظاماً بيروقراطياً دقيقاً بحيث تنتهي جميع القضايا والشؤون إلى الملك ومساعده ــ المدبّر المالي والاقتصادي والإداري (ديوكيتس) Dioketes، وذلك عبر الحكام المسؤولين عن الأقضية المختلفة، وكان واحدهم يطلق عليه لقب ستراتِغوس Strategos. ومع أن التسمية عسكرية أصلاً لأن معناها ضابط أو قائد، فقد كان هذا الموظف في مصر موظفاً مدنياً. وكان جميع الموظفين، باستثناء الصغار منهم، من اليونان(١٢).

ويتفق السلوقيون والبطالمة في أنهم كانوا يعتبرون جميع أرض المملكة 'مُلْكاً' خاصاً بالملك. وهو الذي يمنح 'المدينة' الجديدة، أي التي ستنشأ، ما تحتاج من الأرض للبناء والعيش، أي للبيت والاستغلال، وهو الذي يُقْطِعُ أتباعه ورجاله من الأرض ما يشاء. وله الحق أيضاً في انتزاعها منهم إذا رأى ذلك. ولعلَّ الأراضي الوحيدة التي لم يعتبرها الملك 'ملكاً' خاصاً به هي أراضي الهياكل، لكنه لم يعفها من المراقبة الدقيقة، وخاصة في مملكة البطالمة. وكان جميع العاملين في الأراضي الملكية يعتبرون 'نوعاً' من الأقنان، فهم يقومون بشؤون الأرض من حرث وزرع وحصاد وجمع للغلة لمصلحة الملك، وذلك لقاء حصة ضئيلة ينالونها من غلة الأرض(١٣).

وكانت واردات الدولة ــ الملك تأتي من إنتاج الأراضي التي ذكرناها ومن الضرائب المفروضة على الإنتاج الزراعي والحيواني. وهذه كانت في دولة السلوقيين تُقدّر سنوياً، فتتبدّل بحسب ما قد تُغِلُّه الأرض؛ أما في دولة البطالمة فقد كانت هذه الضرائب ثابتة، وإذا تغيرت، فبشكل ضئيل، وهناك مناطق لم تتغير ضريبتها قط. وكانت الضرائب، من حيث فرضها وجمعها، تخضع لمراقبة أدق في دولة البطالمة منها في الدولة السلوقية. وقد أدخل اليونان في دولهم الهلينستية تلزيم الضرائب. وكان الذين يقبل منهم أن يلتزموا

الضرائب هم أفراد تمكنهم ثرواتهم من دفع الضرائب المطلوبة للدولة، ثم يقومون بجمعها بمساعدة من موظفين خاصين بذلك. وكان للدولة مصدر ثالث لأموالها، وهو نظام كان للبطالمة فيه القِدح المعلّى وهو احتكار التجارات، والخارجية منها خاصة، والصناعات، والكبيرة منها بشكل خاص. ويدخل في عداد ما كان حكراً للدولة الشؤون المصرفية وصناعة الزيوت والاتجار بها وصناعة الأقمشة وتجفيف الملح وبيعه داخلياً وتصديره إلى الخارج. ومن هنا يرى الباحثون أن دولة البطالمة كانت ‹دولة رأسمالية›، على نحو لم تعرفه العصور القديمة. فكانت مصر، على وجه العموم، تنتج الأموال لكل من يستطيع استغلال البلد. وبقدر ما كانت الدولة توفّر لنفسها الموارد الكبيرة التي تحتاجها، وخاصة للحروب الكثيرة والطويلة الأمد والبعيدة المدى، كان الشعب يتحمل الأعباء الثقيلة ويعيش في شبه فقر دائم[١٤].

٣ ــ إدارة فلسطين في زمن البطالمة:

كانت فلسطين، في أيام الفرس، جزءاً من المرزبانية الخامسة، التي كانت تشمل بلاد الشام وجزيرة قبرص. وكانت هذه المرزبانية تسمى ‹عبر النهر› ‹أبر ناري بالفارسية وعَبَر نهارا بالآرامية›، أي عبر الفرات بالنسبة إلى موطن الفرس الأصلي. وكان يقوم على رأس الإدارة فيها مرزبان عاصمته دمشق.

أما فلسطين فكانت مقسمة إلى خمس وحدات إدارية موزعة على النحو التالي من الشمال إلى الجنوب: الجليل وقصبتها مجدّو Magiddo أو تل المتسلّم؛ والسامرة وقصبتها كانت أصلاً في المصفاة (تل النَّصْبَة) ثم نُقلت إلى مدينة السامرة؛ ومنطقة القدس (اليهودية) وكانت القصبة بيت المقدس؛ وأسدود، وهي فِلِسطيا القديمة باستثناء عسقلان وغزة وكانت قصبتها يبنا (يمنيا)؛ وأدوم التي كانت تدار من لخيش (تل الدُّوَير).

يضاف إلى هذه الأقسام الإدارية البحتة فئتان من المدن. الواحدة منحها الملك الفارسي مع الأراضي الملحقة بها، لمدينتي صور وصيدا الفينيقيتين، وذلك رغبة منه في أن يكون لهما أراض تستوعب الفائض السكاني فيهما. فكان لصور حيفا (عند تل أبو حوّام) وعسقلان وأرصوف (أرسوف) (أبولونيا Apollonia فيما بعد). أما حصة صيدا فكانت دورا (إلى الجنوب من جبل الكرمل) وحصن ستراتون Straton's Tower (موقع قيصرية فيما بعد) ويافا (جوبا أو يوبه). وأما الفئة الثانية من المدن، وهي ساحلية أيضاً، فقد كانت حصوناً ملكية وهي إكزيب (الزيب) وعكا وغزة.

ولسنا نعرف ما فيه الكفاية عن أسلوب الحكم أو أسماء الولاة، لا بالنسبة إلى الأقسام الإدارية الصغرى فحسب، بل حتى بالنسبة للمرزبّانية نفسها. فضلاً عن ذلك فقد كان الحكم الفارسي قد أخذ يتآكل في أواخر عهده، بحيث ان الحروب بين المرازبة، وحتى بين حكام الأقسام الأصغر كانت شيئاً مألوفاً. يضاف إلى هذا ثورة بعض الحكام والمدن على الملك الفارسي. فقامت ثورة في صيدا سنة ٣٥٠ق.م. وثار المصريون على الدولة الفارسية حوالي الوقت نفسه.

هذا هو التنظيم الإداري لفلسطين الذي ورثه البطالمة عن الفرس. إلا أن هذا الإرث لم ينتقل انتقالاً مباشراً من الفريق الأقدم إلى الجماعة الأحدث. أي أن البطالمة لم يحلوا محل الفرس حالاً. فقد مرت ثلاثة عقود أو ما يقرب من ذلك، إلى أن استقر البطالمة نهائياً في فلسطين. وكانت هذه العقود الثلاثة بمجملها فترة حروب ومعارك. ولما استقر الأمر للبطالمة في فلسطين أدخلوا تعديلات على التقسيم الإداري. فقد ألغوا، تدريجاً، تبعية المدن الساحلية لفينيقيا، باستثناء عكا (بطوليمايس) التي ظلت تُعتبر جزءاً من فينيقيا[١٥].

اعتبر البطالمة القسم الذي ظل في حوزتهم من سوريا وحدة إدارية سموها ‹سوريا ــ فينيقيا›. وأطلقوا على الأقسام الإدارية التي قسّمت الولاية على أساسها إبارخيّات (واحدتها إبّارخية Hyparchy). وكانت هذه ستاً هي: الجليل وقصبتها بيسان (سكيثوبوليس)، إلا أن جبل طابور كان يُتخذ أحياناً عاصمة لإبارخيّة الجليل، ولعل مثل هذا الإجراء كان يلجأ إليه في حالات حربية، فجبل طابور يمكن أن يُدافع عنه بسهولة أكثر من الدفاع عن بيسان. وكانت إبارخيّة الجليل تشمل الجليل الأعلى وتلال الجليل الأدنى ومرج ابن عامر حتى بحيرة طبرية ونهر الأردن شرقاً. أما في الغرب فقد كانت حدودها تنتهي عند أقدام مرتفعات الجليل وجبل الكرمل. وتلي الجليل إبارخيّة السامرة. وكانت عاصمتها جبل جِرِزِّيم (قرب نابلس الحالية). أما العاصمة الفارسية القديمة، أي مدينة السامرة، فقد أصبحت مستعمرة عسكرية مقدونية بسبب ثورة سكانها على والي الاسكندر. وقد اقتُطِعَت من إبارخيّة السامرة منطقة واسعة أُتبِعَت بالمستعمرة الجديدة. واحتفظت إبارخيّة بيت المقدس (اليهودية) بالحدود التي كانت لها من قبل. فقد شملت المنطقة الممتدة من منحدر جبال القدس غرباً إلى نهر الأردن والبحر الميت شرقاً، ومن حدود السامرة شمالاً إلى خط يمتد شمالي مدينة الخليل (حبرون) جنوباً. وكانت بيت المقدس العاصمة.

أما الإبارخيّة الادومية فقد وسِّعت، إذ أصبحت مدينة الخليل ودورا وما والاهما شرقاً وغرباً جزءاً منها. ويبدو أن حدودها الجنوبية، التي لم تكن واضحة في غالب الحالات، نقلت نحو الجنوب أيضاً. وقد أُهملَت العاصمة الفارسية القديمة لخيش (تل الدُوَير) وأصبحت مَرِيسَة (تل صَنْدَحَنَّة) هي العاصمة الجديدة.

وقد أُنشئت إبارخيّتان جديدتان في السهل الساحلي. الأولى هي الإبارخيّة الساحلية التي أصبح مركزها الإداري حصن ستراتون. ولما انتُزعت دورا (الطنطورة) من سيادة صيدا الفينيقية اقتُطِع جزء من هذه الإبارخيّة وضُم إلى أرض دورا. أما الإبارخيّة الثانية فهي أسدود التي شغلت الجزء الجنوبي من السهل الساحلي، والتي جُعِلَت يبنا (يَمْنيا) مركز إدارتها. وحري بالذكر أن مدينة أسدود الداخلية تراجعت في الأهمية بسبب قيام أسدود البحرية (أزوتوس Azotus). وقد كانت مدن يافا وعسقلان وأسدود (الداخلية) وغزة تتمتع بحكم ذاتي، وكانت مرتبطة بالملك البطليمي مباشرة.

ومن السهل أن يُرى أن هذا التنظيم، وخاصة بالنسبة لغزة، كان يمثّل اهتمام البطالمة بالناحية التجارية اهتماماً خاصاً. ذلك بأن المدن المذكورة، وغزة بشكل خاص، كانت المنافذ الرئيسة على الساحل الشامي الجنوبي للمتاجر التي كانت قوافل الأنباط تنقلها من البتراء، عبر أدوم، إلى البحر المتوسط ــ إلى موانئه اليونانية والرومانية[١٦].

ولم يكن هذا التنظيم الإداري الفارسي والبطليمي نتيجة مصادفة. وهو تقسيم إداري سيظل واضحاً مع تعديلات هنا وهناك، حتى نهاية العصر البيزنطي، بل سنجده في التنظيم العربي للبلاد بعد الفتوح التي جاءت في مطلع القرن السابع الميلادي. ذلك بأن التضاريس الأرضية التي نجدها في فلسطين، من مرتفعات وسهول وأغوار، والتي هي واضحة كل الوضوح وبينة المعالم، كانت تتحكم في التقسيم الإداري للبلاد، كما كانت تعيّن، على ما سنرى، اتجاه الطرق الرئيسة، ومن ثَمّ سير التجار والتجارة. وهكذا فلم يكن باستطاعة البطالمة أن يجعلوا من فلسطين وما إليها مما كان تحت سلطانهم وحدة إدارية على نحو ما تمّ لهم في مصر. أما المنطقة بأسرها فهي ولاية سميت سوريا ــ فينيقيا، وكانت عاصمتها عكا (بطوليمايس).

كانت لكل إبارخيّة إدارة يرئسها ستراتغوس. ومع أن الأصل في هذه الكلمة أنها كانت عسكرية وكانت تعني ضابطاً (رفيع المستوى)، فقد كان هذا الموظف هنا ذا صلاحيات عسكرية ومدنية معاً. لكن درجة نفوذه لم تكن على مستوى واحد في الإبارخيّات جميعها. فقد كانت البيروقراطية في أدوم مثلاً أدق تنظيماً ومراعاة للقواعد منها في السامرة. وكان يقوم إلى جانب الستراتغوس موظف آخر مسؤول عن الشؤون المالية والاقتصادية كان يسمى إيكونوموس oeconomus، وكانت سلطاته دون سلطات الستراتغوس، لكنه لم يكن تابعاً له مباشرة. وجميع هؤلاء الموظفين كانوا من اليونان. أما رؤساء القرى فكانوا يؤخذون من الشيوخ المحليين.

كانت الضرائب تُلزّم هنا على نحو ما كان يتم في مصر نفسها. لكن التلزيم لم يكن يتم محلياً، لا في مركز الولاية (عكا) ولا في العواصم الإبارخيّة. فكان يتوجب على المتقدمين لمثل هذه العطاءات أن يذهبوا إلى الاسكندرية، عاصمة الدولة، وأن يقوموا بالمناقصات هناك. وكان هذا ينطبق على كبار الموظفين ووجهاء المواطنين وأثريائهم. والراجح هو أن موظفي المالية في الإبارخيّة كانوا يعملون إلى جانب ملتزمي الضرائب، أو أنهم كانوا يقومون بخدمتهم، بحيث تأتي المراقبة المالية متلازمة من الفريق الواحد على الآخر. ولما استولى السلوقيون على فلسطين فيما بعد تبنوا هذا النظام المالي ــ الإداري، بل إن بعض نواحيه استمرت عبر العصر الروماني أيضاً[١٧].

على أن هذه الصورة للإدارة الفلسطينية في العصر البطليمي لم تكن بهذا الوضوح، ولم تكن خطوطها بسيطة. فقد كان في البلاد جماعات ومناطق لها ترتيبات خاصة، أساسها الحكم الذاتي، ومن ثم فقد كانت تُتّبَعُ أساليب خاصة في معالجتها. فالمدن اليونانية، ذات النظم اليونانية أصلاً، مثل عكا وغزة وعسقلان ويافا ودورا لم تكن تتبع الستراتغوس وموظفيه. بل كانت لها تنظيماتها التي حملتها معها من بلاد اليونان أصلاً. كان قد دخلها بعض التعديل، ولكنها كانت تختلف عن إدارة الإبارخيّة. فضلاً عن ذلك فقد كانت هناك ‹شعوب›. وقد ذكر الباحثون أربعة من هذه الشعوب هي: الأدوميون واليهود والغزيون والأشدوديون. وهذه الشعوب، ومنهم يهود بيت المقدس ومنطقتها، لم تكن مستقلة سياسياً، بل أنها لم تخطُ خطوة واحدة نحو الاستقلال. والجماعة اليهودية لم تكن تُعتبر حتى ‹دولة هيكل› على نحو ما عُرف في العصر الهلينستي. وكانت مدينة بيت المقدس يشار إليها رسمياً باسم ايروسوليما Hierosolyma المكوَّنة من جذرين الأول ايرو Hiero التي تشير إلى قدسيتها كما هي الحال في مدن

أخرى كثيرة في المنطقة منها Hierapolis ايرابوليس (منبج) و (بعلبك) وغيرهما، والقسم الثاني هو سوليما ولعل معناه السلام. وهذا معناه أن بيت المقدس كانت تعتبر نوعاً من دولة ــ هيكل. وهذه المدن كانت جميعها تحت إشراف ملكي دقيق في الدولة البطليمية. وقد عرفت بيت المقدس موظفاً يطلق عليه لقب إِبِسْتَاتِس Epistates يعينه الملك، وكان عمله الإشراف على مالية الهيكل. كما كانت الأراضي التابعة للهيكل في بيت المقدس، مثل غيرها من الأراضي التابعة للهياكل في أمكنة أخرى، تخضع لإشراف حكومي في شؤونها المالية.

ومن الناحية النظرية كان الكاهن الأعظم هو المسؤول عن الشعب اليهودي وعن الهيكل. إلا أن المهم هو أن الكاهن لم يكن حاكماً مستقلاً. وقد كان هناك موظف مسؤول عن إدارة المعبد تعينه السلطة الرسمية، وكان من المنتظر منه أن يتعاون مع الكاهن الأعظم، لكنه لم يكن تابعاً له.

عرفت بيت المقدس، حتى منذ أيام الفرس، مجلس شيوخ يسمى غيروسيا Gerousia. كان أعضاؤه من رؤساء الأسر الكبيرة ورجال الدين الكبار والنبلاء العلمانيين الأثرياء وأصحاب الأملاك. وهو مجلس تغلب على أعضائه الأرستقراطية ويتجه نحو المحافظة. وكانت رئاسة الغيروسيا تنتهي إلى الكاهن الأعظم، الذي كان يتولى المنصب على اعتبار أنه إرث عائلي. والأسرة التي كانت تتوارث هذا المنصب منذ بعض الوقت كانت أسرة «أونيّا». ولعلّ مما كان يعقد الإدارة بعض الشيء في بيت المقدس تعدد الموظفين الذين لا نملك لأعمالهم أو مناصبهم وصفاً واضحاً. ومن هؤلاء مثلاً موظف اسمه الأجنبي هو «بروستاسيا» Prostasia، أما محلياً فالذي كان يشغله كان يسمى «ممثل الشعب» أمام الإدارة الملكية. ومع أن الوظيفة لم تكن أصلاً ذات أهمية فإن طبيعتها تبدّلت مع الزمن، ذلك بأن هذا الموظف كان يُعهد إليه بجمع الضرائب. وقد يُعهد إلى الشخص نفسه أن يتولى هذا الأمر سنوات متعاقبة. وبطبيعة الحال فإن الشخص الذي يقوم بهذا الأمر مدة طويلة يصبح صاحب نفوذ بقطع النظر عن أصل منصبه.

يبدو من هذا العرض المقتضب أن البطالمة ورثوا في فلسطين عناصر إدارية قديمة أفادوا منها، وبدلوا أموراً معينة. والأصل في الإرث والتبديل كان الإشراف على الإدارة المدنية والإبارخيّة وفي الولاية بحيث تكون الكلمة العليا للدولة لا للعناصر التي تتكون منها الولاية ــ المدن والشعوب والجماعات الدينية[١٨].

٤ ــ فلسطين في زمن السلوقيين:

شُغل أنطيوخس الثالث (٢٢٣ ــ ١٨٧ ق. م) سنتين في تطبيع فلسطين وجوارها على النهج السلوقي. والذي يتفق عليه الباحثون هو أنه حتى قبل احتلال السلوقيين لفلسطين، أي والبطالمة بعدُ حكام البلاد، كان قد قام في بيت المقدس فريق أو حزب يميل إلى السلوقيين. ومع أنه من الصعب التعرّف على جميع الفئات أو الأفراد التي انضوت تحت لواء هذا الفريق، فإنه من الممكن أن نشير إلى بعض عناصره. كان في مقدمة هؤلاء الكاهن الأعظم يومها وهو سمعان الأُونيّ، من أسرة أونيّا التي كان قد مر عليها بعض الوقت وهي تزود هذا المنصب بالقائمين بأمره. وكان سمعان رئيس الغيروسيا أيضاً. وكان يؤيده أفراد من أسرة يوسف طوبيّا التاجر الثري الذي كان قد انتقل من شرق الأردن (من بيريا Perea) إلى القدس. وكان يوسف أصلاً ذا ميول بطليمية قوية بسبب اشتغاله بالتجارة مع مصر على نطاق واسع، إلا أنه عرف كيف يميل مع الريح لما رآها تتجه نحو المصلحة السلوقية. وكانت الطبقة العليا من الكهنة وأرستقراطية بيت المقدس يميل أفرادهما إلى السلوقيين. ويتفق الباحثون على أن نقمة هذه الفئات على البطالمة تعود إلى الضرائب الفادحة التي كانت الدولة تفرضها على البلاد، والتي كان العبء الأكبر منها يقع على كاهلهم، خاصة وأن نظام جمع الضرائب عند البطالمة كان دقيقاً. على أننا نود أن نضيف إلى ذلك أن سكان بيت المقدس والمنطقة الواقعة إلى الشمال من المدينة كانوا على كثير من الاتصال الاجتماعي والتجاري والثقافي مع المناطق السلوقية، ولذلك كانوا قد رأوا في الدولة الشمالية ومجتمعها أموراً حضارية يحبون الاستمتاع بها.

هذه الخلفية التاريخية توضح لنا سبب الاستقبال الحار الذي لقيه أنطيوخس الثالث في بيت المقدس لما دخلها، كما أنها تبين موقف أنطيوخس بالذات من «الجماعة الدينية» في المدينة. فقد منح سكان المدينة حق العيش بمقتضى ناموسهم، وأعفى سكانها من الضرائب ثلاث سنوات، ثم أمر بإنزال ثلث هذه الضرائب بأجمعها بعد السنوات الثلاث الأولى. أما أعضاء الغيروسيا والعاملون في الهيكل فقد أُعفوا من دفع الضرائب إطلاقاً. فضلاً عن ذلك فقد تبرع أنطيوخس بالمال لإصلاح الهيكل أو بناء أجزاء جديدة أُضيفت له.

وليس في هذا الذي فعله أنطيوخس شيء جديد. فالسلوقيون، مثل البطالمة، لم يكونوا يتعرضون لأديان الشعوب الخاضعة لهم ولا لتقاليدها. وكانت الهياكل والدول ــ الهياكل

موضع عناية ملوكهم دوماً، كما كانوا ينفقون الأموال الطائلة على تعمير الهياكل وإصلاحها[١٩].

وثمة أمر حري بالاهتمام وهو أن 'الشعب' اليهودي لم يكن له كيان سياسي مستقل خاص به، ولم يتمتع حتى باستقلال داخلي. وكل ما هناك هو أن ما قام به السلوقيون والبطالمة نحو 'شعوب' ودول ـ هياكل أخرى لم يجد من يدونه بتفصيل كي يتضح العمل للأجيال التالية. أما الأدب 'اليهودي' الديني فقد دوّن هذه الأمور بتفصيل كبير. وهو لم يدوّن 'للتاريخ' و 'الحقيقة'، بل كانت الغاية من ذلك إظهار هذه الأمور بأنها 'إتمام' لعناية يهوه بالشعب اليهودي. فقد خلق العبرانيون 'قضية' العهد الذي قطعه يهوه لشعبه إذ 'اختاره' دون الشعوب الأخرى، ووعده بأمور كثيرة منها أرض الميعاد. وهذه القضية التي خلقها العبرانيون القدامى واعتبروها عهداً من يهوه يترتب عليه المحافظة عليه، تبناها اليهود فيما بعد وأكدوا عهد يهوه لشعبه المختار. ومن الواضح أن جميع هذه الأمور ادعاءات ومختلقات. وقد أصبحت هذه 'العقيدة' اليهودية 'عقدة' في تاريخ الشعب وتاريخ علاقاته بالشعوب الأخرى على مدى الأجيال، ولا تزال[٢٠].

كان السلوقيون قد شغلوا في القرن الثالث ومطلع القرن الثاني قبل الميلاد بحروب خارجية في ميادين متسعة ـ من أواسط آسيا إلى اليونان ومن آسيا الصغرى إلى مصر. ولكنهم منذ أيام أنطيوخس الرابع (١٧٥ ـ ١٦٤ ق. م) وجدوا أنفسهم يتطاحنون في حروب أهلية فيما بينهم وذلك في سبيل العرش. وهذه الحروب ـ الخارجية والداخلية ـ هي التي امتصت نشاطهم وقضت على ثرواتهم وألقت على عاتق الشعب عبئاً من الضرائب ثقيلاً، وأحوجتهم إلى البحث عن المال حيث وُجِد ـ بين أيدي الأثرياء أو حتى في الهياكل. فلم يتورع أصحاب السلطان عن نهب هيكل زفس في عيلام (سوسة) ـ وقد قُتل أنطيوخس الثالث أثناء ذلك ـ أو الهيكل في بيت المقدس. وقد قامت ثورات ضد الحكم السلوقي اضطُر الملوك إلى قمعها بشدة. وهكذا فقد واجه الحكم السلوقي مجموعة من المشكلات المضنية من حروب أهلية وخطر بطليمي من مصر وظهور رومة وزحفها نحو الشرق. وقد أضعفت هذه الأمور السلوقيين بحيث انهم عجزوا عن مقاومة تغرانس Tigranes ملك أرمينيا، الذي تمكّن من احتلال قسم كبير من بلاد الشام (سنة ٨٦ ق. م)، وظل يحكم تلك المناطق إلى أن أقصته الجحافل الرومانية المحاربة في المشرق من ٦٩ إلى ٦٤ ق. م. وعندها بدأ زحف بومبي على بلاد الشام، واحتل فلسطين سنة ٦٣ ق. م. وبذلك انتهت دولة السلوقيين. ويمكن إجمال هذا الواقع الذي آلت إليه الأمور بالقول بأن الدولة السلوقية كانت قد هرمت، وأصبح الملوك شديدي الحساسية من موقف السكان والشعوب التابعين لهم ومن احتمال خروجهم عن الطاعة[٢١].

في السنة ١٨٧ق.م. تولى أمر الامبراطورية السلوقية سلوقس الرابع. وفي هذه السنوات التي حكم فيها (١٨٧ ـ ١٧٥ ق. م) تبدل الجو في بيت المقدس بحيث عاد الاتجاه إلى تأييد البطالمة. وكان الكاهن الأعظم (أونيّا الثالث) من مؤيدي هذه النزعة. ويبدو أن هذا كله كان يعود إلى فرض الضرائب الباهظة على أهل بيت المقدس ومنطقتها، وإلى خيبة آمال 'المُتَهَلْيِنين' من سكان المدينة في سلوقس. وقد تبدَّل الوضع ثانية بعض الشيء لما تولى أنطيوخس الرابع (١٧٥ ـ ١٦٤ ق. م) العرش. فمن ذلك أن ياسون Jason ابتاع منصب الكاهن الأعظم من أنطيوخس (١٧٥ ق. م) منتزعاً إياه من أخيه أونيا الثالث. وكان ياسون أحد زعماء 'التَهَلْيُنْ' والدعوة إلى اقتباس الحضارة الهلينية. وعادت هذه الجماعة إلى نفوذها في العاصمة. وعندها بُني الجمنازيوم، وأُدخلت جميع التنظيمات الرياضية اليونانية والدروس للشبيبة. والجمنازيوم بناء كان يقام من أجل التمارين الرياضية أصلاً ولكن في العصر الهلينستي أصبح مكاناً للمحاضرات أيضاً. فالجمنازيوم وما حوله كان في الواقع مركز نشر الثقافة الهلينية. وسمي المُتَهَلْيِنون في بيت المقدس «الأنطاكيون في المدينة المقدسة». هذه الأمور جميعها لم ترق للمحافظين وخاصة المتزمتين. فهناك خروج عن الأصول والناموس، وهناك مخالفة صارخة في أن يُولّى كاهن أعظم والكاهن الأول لا يزال حياً. والمرجح هو أن الكثرة من سكان بيت المقدس كانت إلى جانب المحافظة والتقيد بأصول الناموس[٢٢].

وكما اشترى ياسون منصب الكاهن الأعظم من أنطيوخس، اشتراه مِنِلاوس Menelaus من الملك نفسه، وأُقصي ياسون عنه. ومنلاوس لم يكن من أُسرة الكهنة، أي الصدوقية، أصلاً، ولذلك فالمخالفة بالنسبة إليه مزدوجة. ولعلّ هذا العمل أدى إلى تحرك ولو جزئياً، بين الجموع الفقيرة التي كانت تتأثر بمواقف الحَسِيديم (أي المحافظين المتزمتين). وقد زاد الطين بلة أن منلاوس مد يده إلى بعض أموال الهيكل. ثم عمل على اغتيال أونيا الثالث، إذ ان هذا الكاهن الأعظم الأصلي هو العقبة في طريقه.

في سنة ١٧٠ ق. م. ذهب أنطيوخس إلى مصر محاولاً ضمها إلى ملكه. لكن ذلك لم يتم له، وعاد فاحتل بيت المقدس (١٦٩ ق. م) ونهب الهيكل، وكان ذلك بالاتفاق مع منلاوس

وإرشاده. واضطُر إلى السير إلى مصر ثانية سنة ١٦٨ ق. م. وكاد أن يضيف مملكة البطالمة إلى ملكه لولا تدخل رومة. فإن المندوب الروماني الذي كان هناك أمر أنطيوخس بالعودة أدراجه. فعاد ساخطاً غاضباً فاشلاً. وكانت أخبار التذمر في بيت المقدس قد بلغته، فأرسل القائد أبولونيوس Apollonius، فيما سار هو نحو فينيقيا كي يُهدِّىء الأحوال هناك، وكانت قد اضطربت بسبب المطالب المالية الكثيرة التي كانت تُفرض على المدن. وقد احتل أبولونيوس المدينة وقتل ونهب وهدم الأسوار وبنى الأكرا Acra، أي القلعة، وحشد فيها الجنود من الغرباء. وقد أصبحت الأكرا شاهداً عملياً للوجود الهليني القوي في بيت المقدس. وأصبحت المدينة، من ناحية عملية، ‹مستعمرة عسكرية›. والذي نراه أن التدوين اليهودي لهذه الأحداث بالغ فيها على ما نجده في سفري المكابيين. وقد بلغ السيل الزبى في رأي المحافظين لما أُقيم هيكل لزفس الأولمبي في بيت المقدس سنة ١٦٧ ق. م.

وقد دعا أنطيوخس الرابع إلى أن يتخلى الجميع في أنحاء الامبراطورية عن سبلهم الخاصة وعاداتهم بحيث يصبح الجميع ‹شعباً واحداً›. ولما اعتزم أولو الأمر تطبيق هذا في بيت المقدس على الجماعة الدينية كان معناه التخلي عن الختان وعدم التقيد بأحكام التوراة فيما يتعلق بالطقوس المختلفة والقوانين الشخصية والعامة.

ويمكن القول بأن الأسرة الحشمونية، بقيادة مَتَتِيا Mattathias الأب، هي التي حركت الجموع للثورة التي بدأت من قرية مودين (إلى الشمال الغربي من القدس) سنة ١٦٧ ق. م. وثمة خلاف بين المؤرخين على معنى هذه الثورة. فالاتجاه العام يرى أن أنطيوخس كان لديه برنامج سياسي، لعلّ بعضه منتزع من آمال الإسكندر بالذات، أساسه محاولة توحيد شعوب الدولة السلوقية التي كانت قد تقلّصت في ذلك الوقت بحيث انها اقتصرت على بلاد الشام وعلى بعض أجزاء من أرض الرافدين. وفي نظر الدولة ثارت الجماعة الدينية ‹ثورة سياسية› ضد الدولة، فعوقبت سياسياً بالسيف. لكن سفري المكابيين اللذين نجد فيهما أخبار هذه الثورة يرويان القضية على أنها «اضطهاد ديني كان اليهود هم المقصودون به بالذات». وقد قُبلت هذه الرواية في محافل كثيرة لمجرد أنها وردت في أسفار العهد القديم. أما محررو سفري المكابيين فموقفهم، المعبَّر عنه في النصوص، فقد رأوا، أو أرادوا أن يروا في هذه القضية واحدة من سلسلة القضايا التي يتكرر تصويرها في أسفار العهد القديم للتأكيد أنه في النهاية لا بد من أن يعود الله إلى نصرة شعبه الذي حمله اليهود على اختياره.

ولما كان مَتَتِيا قد بلغ من الكبر عتياً فقد عهد إلى ابنه الأكبر يهوذا Judas بقيادة الحركة. ولأن هذا سُمي ‹المطرقة›، وهي بالعبرية ‹مكابي›، عرفت هذه الحركة باسم الحركة المكابية. وقد استمرت في دورها الأول (١٦٧ ــ ١٤٢ ق. م) بين كرّ وفرّ. لكن في سنة ١٤٢ق.م. أسس سمعان المكابي Simon، وهو الابن الثالث لمَتَتِيا (الذي تولّى بعد مقتل يهوذا ويوناثان Jonathan)، أسرة ‹ملكية› هي الأسرة الحشمونية التي تولت إدارة المدينة والأجزاء التي سيطرت عليها من فلسطين. وكان أول من تلقب ملكاً من الأسرة الحشمونية هو أرستوبولس الأول Aristobulus ١٠٤ ــ ١٠٣ ق. م). وفي السنة ١٤٠ ق. م قرر زعماء الثورة بتأييد من ‹مجمع شعبي› في اجتماع عقد في بيت المقدس اعتبار الأسرة الحشمونية هي الأسرة الحاكمة ومُنِحَ سمعان منصب الكاهن الأعظم والقائد العسكري (ستراتغوس) على أن تكون هذه وراثية في أسرته، وهذا الأمر هو الذي أدى إلى خلافات داخل الأسرة ثم إلى حروب أهلية بسبب المطالبة ‹بالحق› الشرعي في الخلافة.

وقد أحاق بفلسطين بسبب هذه الثورة، وخاصة خلال الفترة التي مرت بين «تأسيس الأسرة الحشمونية» ووصول بومبي إلى فلسطين سنة ٦٣ ق. م مصائب ومعارك أتت على الحرث والضرع. ولما اشتد التنافس بين أفراد الأسرة، ثم لما ثار الفريسيون (وهم، على الراجح، بقايا الحسيديم) على المكابيين (٩٤ ــ ٨٨ ق. م)، زادت المصائب حجماً ومساحة وعمقاً بحيث كان مجيء بومبي إنقاذاً لأرواح الذين لم تحصدهم سيوف المكابيين من مخالفيهم، بقطع النظر عن العنصر الذي انتسبوا له أو الجهة التي أيدوها[٢٣].

لما احتل أنطيوخس الثالث الولاية البطليمية من ديار الشام أطلق عليها اسم «استراتيغيه» Strategia، «سورية المجوفة وفينيقيا»، وكان هذا الاستعمال الرسمي للاسم لأول مرة. وقد أجرى السلوقيون شيئاً من التعديلات العامة في تقسيم الولاية الجديدة إلى أقسام إدارية، تسهيلاً للإدارة. والذي عليه الباحثون هو أن هذه الاستراتيغية الجديدة قُسمت، بدءاً من حوالي سنة ١٩٨ ق. م إلى ثلاث وحدات إدارية استعمل لكل منها اسم «إبارخيّة». وكانت هذه الوَحدات هي: السامرة وكان على رأسها إبارخوس eparchos، وقد ضُمّت منطقة القدس (اليهودية) ومنطقة الجليل ومدينة يافا إليها. أما العاصمة فكانت مدينة

السامرة بالذات. ثم كان هناك إبارخيا أدوم التي ظلت عاصمتها، على ما يظهر، مَريسة (تل صَنْدَحَنّة). أما الوحدة الثالثة، بالنسبة لفلسطين، فقد كانت إبارْخِيَا الساحل التي كانت تمتد من عقبة صور إلى حدود مصر، وقد ضُمّ إليها قضاء أسدود (أزوتوس) الفارسي ــ البطليمي، وأصبح الآن يُسمى قضاء يَبْنا (يمنيا). إلا أن الأراضي التي كانت تخص يبنا وأسدود (والأراضي هذه كانت دوماً تتبع المدن ولا تخضع للإدارة العادية) وأراضي يافا كانت تفصل هذه الإبارخيا الساحلية إلى قسمين، فقسمها الجنوبي كان يشمل منطقتي عسقلان وغزة، وكان ما تبقى يحسب في القسم الشمالي. أما دورا فقد انتُزعت من الإدارة العادية وأصبحت «قلعة ملكية». وكما كان ليافا ويبنا واسدود أراض خاصة بها، فقد كانت ثمة أراض خاصة بكل من بيسان (سكيثوبوليس) وعكا (بطوليمايس) والسامرة أيضاً.

ولما اشتدت الثورة المكابية وجد الملك السلوقي أنه يتعذر على ابارخوس (أو قد يكون الحاكم ستراتغوس دون تعيين سلطاته في كثير من الحالات)، أي حاكم السامرة، أن يدير الابارخيا الواسعة ويتولى قيادة الآلة العسكرية ضد المكابيين، لذلك فصل الملك منطقة القدس (اليهودية) وجعلها إبارخيا مستقلة. وكان أول إبارخوس عُين فيها هو نيكانور Nicanor، وذلك في أواخر أيام أنطيوخُس الرابع، وقد قتل في إحدى حملاته على بيت المقدس في ١٦١ ق. م.

ولكن والبلاد كانت ساحة حرب في معظم هذه الفترة، فقد كان من الصعب الحفاظ على الحدود الإدارية. فالمكابيون الذين أعلنوا أنهم دولة مستقلة كانوا يتطلعون إلى التوسع في النواحي المختلفة. لذلك فقد تمكنوا، في أوقات مختلفة، من احتلال مناطق في فلسطين (وحتى خارجها عبر الأردن). لكن المهم ليس الاحتلال فحسب بل إن الحشمونيين أرغموا سكان الجليل والأدوميين على اعتناق الدين اليهودي وفرضوا الختان على الرجال. وقد فعلوا مثل ذلك مع بعض المدن. والمدن التي آنسوا من أهلها رفضاً لطلبهم قتلوهم أو أجْلوهم وأنزلوا اليهود مكانهم.

بمثل هذه الأساليب حاول حكام اليهود أن يهوّدوا شعب فلسطين؛ ولكن ذلك لم يتيسّر لهم تماماً. أما المدن التي أنزل الحشمونيون فيها يهوداً فقد أخرجوا منها فيما بعد. وأما السكان فليس عندنا ما يدل على أن الأدوميين كانوا يهوداً تماماً. فاتصالهم المباشر بالأنباط كان يؤدي إلى عكس النتيجة المرجوّة.

وقد كان للبعض من حكام الأسرة الحشمونية اتصالات بروما، وهي النجم الذي أخذ يسطع في الغرب. ويبدو أن الاتصال الأول كان حوالي سنة ١٦٤ ق. م. ثم كانت اتصالات أخرى في ١٤٦ ق. م. وبعد ذلك ببضع سنوات تم اتصال ثالث في أيام يوحنا هركانوس الأول John Hyrcanus ١٣٥ ــ ١٠٤ ق. م. وهكذا لما جاء الرومان إلى فلسطين كانت الصلات قائمة؛ لكن موقف بومبي كان خارج هذا الإطار الذي صاغه يهود القرنين الثاني والأول قبل الميلاد[٢٤].

٥ ــ المدن الهلينستية:

كان للمدينة المستقلة (مع ما يتبعها من أراض) دور كبير في تاريخ فلسطين منذ أقدم الأزمنة؛ وحتى لو تركنا الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد واقتصرنا على الفترة التي تدور حول سنة ١٠٠٠ق. م. لوجدنا أن السهل الساحلي ــ فلسطيا ــ مثله مثل فينيقيا، كانت فيه مدن متعددة يعود إنشاؤها إلى الوقت الذي وصل فيه الفلسطيون إلى البلاد، أي في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. والذي حدث في العصر الهلينستي هو أن المدن زاد عددها، ودخل في تنظيمها العنصر الهليني الذي لم يكن معروفاً من قبل. وإذن فالذي تبدل في هذه الفترة هو طبيعة دور المدينة ونشاط المجتمع الذي كان يعيش في هذه المدن. وهذان الأمران مهمان جداً لأن المدينة هي أصلاً مركز التطور الحضاري والثقافي. وهي المركز الذي تشع منه عناصر هذين إلى الريف. فتعدد المدن كان معناه ازدياد المراكز التي تُضَمّ أراضي الريف وقراه إليها، ومن ثم تصبح العناصر الحضارية أيسر تناولاً.

والمدينة الهلينستية، ويدخل في عدادها المدينة الرومانية التي بُنيت في أيام الرومان، كانت مستقلة، تشرف على شؤونها بنفسها بوساطة المؤسسات التي ألفتها أو ألفها مؤسسوها من قبل في بلادهم الأصلية. ولعلّ أهم المؤسسات هي المجلس (البُولة boule) الذي كان أعضاؤه يُختارون من بين المواطنين بالقرعة. فالذي نعرفه، على سبيل المثال، هو أن المجلس في غزة كان يتألف من خمسمئة عضو، فيما كان مجلس طبرية (وهي منشأة رومانية) يتكون من ستمئة عضو. يضاف إلى المجلس هذا الموظفون الذين كانوا يُنتخبون، وكان انتخابهم لمدة محدودة وقصيرة وقد لا تتجاوز السنة أو السنتين أصلاً.

والعلاقة بين الملك والمدينة تتحدد في أمرين: الأول هو أن إنشاء أي مدينة كان يقتضي موافقة الملك، لأنه هو الذي يقدم الأرض وقد يُعين في النفقات الإنشائية. (هذا بالنسبة للمدينة. أما المستعمرة العسكرية فأمرها أيسر لأنها مقر للقوى المقاتلة،

وهذه لا تدخل في حسابنا الآن). فإذا أُنشئت المدينة كان موقفها من الملك، وهو الأمر الثاني، يتضح في شيئين، أولهما أن تعترف المدينة للملك بالسلطة العسكرية. ذلك بأن الضابط أو القائد العسكري للمنطقة الذي كان يحمل لقب ستراتِغوس كان تعيينه بيد الملك، وكان هو مسؤولاً نحو صاحب التاج. وهذا الأمر طبيعي، فهناك أمن داخلي للبلاد، وهناك دفاع عن البلاد من عدوان خارجي، وكلا الأمرين يجب أن يُعهد بهما إلى السلطة العليا لا إلى سلطة المدينة. أما الشيء الثاني المطلوب من المدينة فهو أن تقوم بدفع ما يترتب عليها من إتاوات وضرائب للخزينة (وهذا غير ما يترتب على المواطنين دفعه من أجل الحفاظ على المدينة وعلى الخدمات العامة فيها). وإتاوات الدولة وضرائبها كانت تُجمع عن طريق التلزيم لا عن طريق موظفين ماليين. ولسنا متأكدين من أن التلزيم كان أسلم عاقبة بالنسبة للمواطن من الجمع المباشر. فنحن نعرف مثلاً أن يوسف بن طوبيا ذهب إلى الإسكندرية كي يتقدم بعرض لالتزام الضرائب المترتبة على فلسطين وما إليها أيام البطالمة. وقد نجح في الحصول على الالتزام لأنه عرض أن يدفع ضعف ما تقدم به الآخرون. وفضلاً عن حصوله على الالتزام أُعطي امتيازاً أن يكون تحت إمرته فرقة من الجند لا تتجاوز الألفين لتعينه في أعماله. وظل يوسف يتولى هذا الالتزام اثنتين وعشرين سنة (٢٤٠ ــ ٢١٨ ق. م) (هذه الرواية مأخوذة من يوسيفوس المؤرخ اليهودي وقد وردت في مؤلفه تاريخ اليهود، الكتاب ١٢، الفصول ١٦٧ ــ ١٨٠).

وقد لجأت الدولة السلوقية، بسبب من ضعفها وحاجتها إلى المال، إلى منح المدن استقلالاً يكاد يكون تاماً لقاء جُعل تدفعه للخزينة. وفي هذه الحالة كان الاستقلال يظهر في أمرين، الأول هو أن المدينة تتمتع باتخاذ تاريخ تدوِّن بموجبه فيما بعد أحداث المدينة (والغالب أن يبدأ هذا من سنة استقلالها). والثاني هو أن تُعطى المدينة حق سك النقود في دار ضرب تقام داخل أسوارها. ومن المدن الساحلية التي كانت مستقلة من أول الأمر غزة، أما عسقلان فقد حصلت على هذين الامتيازين سنة ١٠٤ ق. م. (وبهذه المناسبة فقد مُنحت كل من صور وصيدا مثل ذلك). وأما حصن ستراتون ودورا فقد تولّى أمرهما في تلك الفترة طاغية، بالمعنى اليوناني للطغيان، فاستقل بأمرهما قسراً واستبداداً، فلما انتهى أمره ظل لهما استقلال أبعد مدى حتى من عسقلان.

وفي أيام حكم الحشمونيين احتل اسكندر يانيوس Alexander Janius الذي حكم ١٠٣ ــ ٧٦ق.م. جميع المدن الساحلية (باستثناء عسقلان وعكا) وعدداً من المدن الداخلية.

لكن بومبي حرر غزة وأسدود ويبنا ويافا وحصن ستراتون ودورا وبيسان والسامرة من هذا الحكم. وقد قال شورر معلقاً على ذلك: «وقد كان الاحتلال الروماني بالنسبة لهذه المدن، التي خضعت لليهود، تحريراً لها من الحكم البغيض». وقد عمل أول وال روماني على سوريا، غابينيوس Gabinius، على إعادة بناء رفح وغزة وأنتيدون Anthedon وأسدود ويبنا وأرسوف ودورا والسامرة وبيسان(٢٥).

ونرى من المفيد أن نورد نبذة مقتضبة عن كل من المدن الهلينستية ذات الشأن في فلسطين تيسيراً لمتابعة الأحداث والأخبار والنشاطات الاقتصادية والاجتماعية لا في العصر الهلينستي وحده بل حتى في العصر الروماني بكامله.

وإذا بدأنا بالساحل واتخذنا شماله نقطة انطلاقنا، وجدنا فيه المدن التالية:

● **عكا**: وقد ورد عن عكا (عكو) أنها كانت ميناء في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وذلك في رسائل تل العمارنة التي وجهها حكام بلاد الشام إلى ملك مصر أخناتون يشتكون إليه سوء الأحوال واضطراب الأمن في البلاد، كما كان الكثيرون منهم يتهمون جيرانهم الأمراء بالاعتداء عليهم. ومع أن المدينة خف نشاطها بعض الوقت لما زحمتها صور (في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد) فقد استعادت دورها، وكان لها علاقات تجارية كبيرة مع أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد، أيام كانت فلسطين تابعة للامبراطورية الفارسية. وقد اهتم بها البطالمة وأطلقوا عليها اسم بطوليمايس، وذلك سنة ٢٦١ ق.م. وقد أصبحت الإشارة إلى سكانها أنهم «الأنطاكيون في بطوليمايس» إشارة إلى قبولهم الهَلْيَنَة أساساً لتصرفهم. أما عناية السلوقيين بها فقد فاقت اهتمام البطالمة كثيراً، إذ انهم اعتبروها عاصمة الولاية ومركزاً رئيساً لنشر الحضارة اليونانية وهَلْيَنَة البلاد. وجدير بالذكر أن عكا كانت المنفذ الرئيس لغلاّت مرج ابن عامر والجليل بحيث يمكن نقلها إلى الخارج. كما كان ينقل إليها منتوجات شمال الأردن عبر بيسان وشمال الغور. ومن هنا نجد أن السفن التي تخرج منها كانت تحمل الزيت والزيتون والخمور والحبوب.

● **جبع**: كانت تقوم على منحدر الكرمل عند اتصاله بمرج ابن عامر. وقد كانت أصلاً مدينة صغيرة، لكنها أصبحت، في أيام السلوقيين، مدينة هامة. فهي تقع في النهاية الغربية لمرج ابن عامر في مقابل بيسان شرقاً وجنين جنوباً. ومن ثم فقد كانت محطة على الطريق الذي يصل سهل عكا بمرج ابن عامر نفوذاً إلى

جنين وجبال نابلس. (وهي غير قرية جبع التي كانت تتبع جنين، ومن ثم سبسطية، في العصر الروماني).

● **دورا**: تقع دورا على الساحل الفلسطيني إلى الجنوب من جبل الكرمل. وهي منشأة فينيقية أصلاً. وقد احتلها المكابيون ودمروا الكثير من أبنيتها. وبعد أن حررها بومبي عُني غابينيوس بإعمارها. وتعود أهميتها إلى أنها تحتل موقعاً حصيناً يمكّنها من الدفاع عن الجزء الشمالي من الساحل. وقد أدرك السلوقيون أهميتها فاتخذوها «قلعة ملكية».

● **حصن ستراتون**: أنشأها الصيداويون في القرن الرابع قبل الميلاد في أيام الامبراطورية الفارسية. وقد اتخذ منها الفرس ثم البطالمة مركزاً ثانياً للدفاع عن الساحل. وقد أصابها ما أصاب المدن التي احتلها المكابيون وهوّدوها، ونالها من التحرير والإعمار على أيدي بومبي وغابينيوس ما أصاب غيرها. لكن مجدها قد تم فيها بعد على أيدي الرومان لما اختارها هيرودس (٣٧ ــ ٤ ق. م) مكاناً لبناء مدينة قيصرية. (وسنعود إليها في مناسبة لاحقة).

● **أرسوف** (أبولونيا ــ Apollonia): وكانت تقع بين قيصرية (أي حصن ستراتون أصلاً) ويافا. وهي قديمة لكنها شُهِرت في العصر الهلينستي. وسواء أبنيت أصلاً لتكريم أبولّو أم أن ذلك جاء متأخراً، فقد كانت تحوي أحد هياكله الكبيرة.

● **يافا**: ورد الاسم يافو Jafo أو يابو Japo في القرن الرابع عشر قبل الميلاد في رسائل تل العمارنة. وقد منحها الملك الفارسي للصيداويين وضُمت إلى المكابيين الذين أخرجوا سكانها منها وأسكنوها يهوداً. فلما جاء بومبي حررها سياسياً وسكانياً، واهتم بها خليفته غابينيوس. وظلت يافا بعد ذلك مدينة يونانية، وكانت من أكبر المدن الفلسطينية.

● **يبنا** (يَمنيا Jamnia): تقع جنوبي يافا وقد كانت مدينة كبيرة قبل أن يدمرها المكابيون ويحرقوا أسطولها التجاري، لكنهم لم ينجحوا في احتلالها، فظلت خارج حكمهم. وقد عاد إليها ازدهارها في أيام الرومان بحيث روي، بشيء من المبالغة، انه كان بإمكانها أن تزوّد أصحاب السلطان بأربعين ألف مقاتل!

● **أسدود** (أزوتوس Azotus): يعود إنشاؤها إلى الفلسطيين لما نزلوا السهل الساحلي الجنوبي لفلسطين وقبل أن يتوسعوا شمالاً (وكان ثمة مدينتان أخريان من إنشاء الفلسطيين هما جَتّ وعَقْرون لكن الحياة فيهما لم تستمر إلى العصر الهلينستي). وقد وردت إشارة إلى أسدود في تاريخ هيرودتس Herodotus على أنها مركز زراعي وتجاري كبير. وقد أصابها ما أصاب غيرها من شر على أيدي المكابيين، وخير على أيدي بومبي وغابينيوس.

● **عسقلان**: كانت هذه المدينة تابعة لصور أيام الفرس. وقد عُني بها البطالمة عناية خاصة، وكانت في القرن الثالث قبل الميلاد، مع مينائها، المركز الرئيسي للاتجار مع ديلوس Delos ورودس Rhodes وبيوتولي Puteoli في إيطاليا. وقد استطاعت عسقلان أن تحافظ على استقلالها أيام المكابيين. ولما احتل الرومان فلسطين اعترفوا باستقلال المدينة.

● **غزة**: ورد ذكرها في رسائل تل العمارنة، لكنها أصبحت مدينة هامة في أيام الفلسطيين. وقد كانت لها تجارة واسعة مع اليونان في أيام الفرس؛ قال عنها هيرودتس انها مدينة كبيرة وغنية وانها أكبر من ساردِيس Sardis عاصمة ليديا Lydia في آسيا الصغرى. قاومت الاسكندر بضعة شهور قبل أن تمكن من احتلالها. لذلك دمرها ثم أمر بإقامة مدينة يونانية مكانها، وفي مكان بعيد عن الشاطىء. ولما كانت غزة على الطريق الفلسطيني ــ المصري، ولما كانت حروب خلفاء الاسكندر لم تنقطع، فقد كانت تصاب بالدمار كثيراً، وخاصة سنة ٣١٢ق.م. لكنها، بسبب هذا الموقع المهم، تجارياً وحربياً، كانت الحياة تعود إليها كي تقوم، في العصر الذي نتحدث عنه، بدورها كمنفذ لتجارة الجزيرة العربية، عن طريق البتراء وقوافل الأنباط، عبر السفن المتوسطية إلى موانىء البحر المتعددة، شمالاً وشمالاً في غرب. وقد كان فيها، في القرن الثالث قبل الميلاد، موظف للإشراف على تجارة الطيوب كان لقبه «مراقب للعطور».

وكانت تقع إلى شمال غزة مدينة انتيدون، وهي هلينستية أصلاً. ولعلها كانت مدينة رافدة لغزة.

● **رفح**: وهي أقصى مدينة في جنوب السهل الساحلي وأقرب مدن فلسطين إلى مصر. وقد ورد ذكر رفح في رسائل تل العمارنة. وتقلبت أمورها إلى أن عُني بها البطالمة. وكانت واسعة ومهمة حتى ان بطليموس الخامس إبيفانس Epiphanes أقام فيها حفلة زواجه من كليوباترة بنت أنطيوخس الكبير سنة ١٩٣ ق. م. ومع أن المكابيين دمروها، فإن غابينيوس عمّرها بعد أن حررها بومبي.

أما في الأجزاء الداخلية من فلسطين فإننا نجد **السامرة**، وهي التي ثارت على حاكم المنطقة اليوناني بعد أن رحّبت بالاسكندر فهدمها بردِكاس وأقام مكانها أول مستعمرة مقدونية في فلسطين. ولما احتلها المكابيون دمروها ودمروا هيكل السامريين

على جبل جرزيم. لكن مجيء بومبي وتولي غابينيوس الإدارة وضع حداً لمأساة المدينة. وأعاد السامريون بناء هيكلهم هناك. ولما تولى هيرودس حكم فلسطين (٣٧ ــ ٤ ق. م) بنى هناك مدينة جديدة هي سبسطية Sebaste، وكانت من أجمل ما شاد هذا الحاكم.

وهناك مدينة صفورية Sepphoris في الجليل. وقد هوّدها المكابيون على طريقتهم لكن احتلال الرومان لها أعادها سيرتها الأولى. وقد جعلها غابينيوس مركزاً إدارياً للجليل.

وتقع بيسان في شمال غور الأردن. وتعود بيسان في تاريخها إلى أواخر العصر البرونزي. وقد عُني بها البطالمة والسلوقيون واهتموا بهَلْيَنَتِها وسُميت سكيثوبوليس. وكانت، قبل احتلال المكابيين لها وإحراقها، أكبر المدن الهلينستية في فلسطين. إلا أنها عادت إلى بعض سابق عزها على أيدي الرومان. وكانت الأراضي التابعة لها واسعة جداً.

ولنذكر، بالمناسبة، أن البطالمة والسلوقيين أنشأوا أو ساعدوا على تطوير بعض المدن في الأردن الحالية أو في جنوب سوريا وهي فيلادلفيا Philadelphia، أي عمّان، وجرازا Gerasa أي جرش، وقناثا Kanatha، وهي القنوات، وديون Dion، ولعلها ايدون!، وهِبّوس Hippus، أي قلعة الحصن وجَدَرَة Gadara، وهي أم قيس الحالية وبلّا Pella أي فحِل أو طبقة فحِل. ولما جاء بومبي إلى بلاد الشام أراد أن يفيد من وجود هذه المدن التي كان بينها نوع من التفاهم والتحالف، فتكون خط دفاع عن سوريا. فضم مجموعة من المدن التي تتلاصق أملاكها، فتكوّن بذلك وحدة تجارية فضلاً عن قيمتها الاستراتيجية. لكن بومبي ترك لها حريتها السياسية والحفاظ على مؤسساتها الهلينية. وقد سميت هذه المجموعة ديكابوليس Decapolis أي "المدن العشر"، إذ ان عدد المدن كان دوماً قريباً من عشر. والمدن التي ذكرناها مضافاً إليها بيسان كانت دائمة العضوية، وهي المؤسسة للتحالف. أما بعض المدن التي كانت تنضاف إليها، أحياناً، فهي دمشق وبُصرى Bostra ودرعا وكابيتولياس Capitolias أي بيت راس. وهذه الأخيرة هلينستية. والمرجح أن عمان (فيلادلفيا) هي الوحيدة التي يعود بناؤها إلى البطالمة.

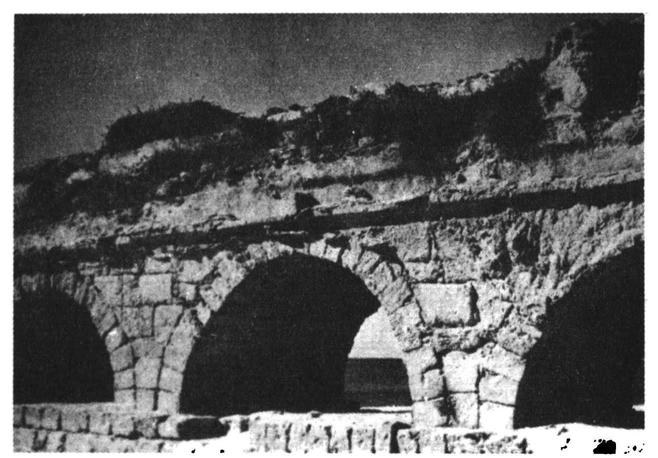
ومع أن الرومان شادوا عدداً من المدن في فلسطين، فإن طبيعة هذه المدن، من حيث الهندسة والفكرة، كانت هلينستية. ونحن نذكرها هنا إلا أننا سنعود فنتحدث عنها فيما بعد. أما المدن فهي قيصرية Caesarea وسبسطية وأنتيباترس Antipatris (ولعلها كفر سابا؟) الواقعة شمالي شرقي يافا. ومع أن أنطيوخس الرابع أراد أن يجعل من بيت المقدس مدينة هلينستية فإن محاولته لم تنجح. والذي نجح في ذلك وجعل من بيت المقدس مدينة هلينستية ــ رومانية هو الامبراطور الروماني هدريان Hadrian (١١٨ ــ ١٣٨ م) وسماها إيليا كابيتولينا Aelia Capitolina.

ويلاحظ أن أربع عشرة مدينة من المدن المذكورة في فلسطين كانت قائمة، على شكل أو آخر، قبل فتوح الاسكندر. لكن البطالمة والسلوقيين عملوا على تطويرها، بحيث تم لكل منها القيام بدورها الإداري أو العسكري أو التجاري أو الحضاري أو الثقافي.

ولنضف أيضاً أن أكثر هذه المدن كان سكانها من الجماعات الأصلية من سكان البلاد وعدد من القادمين من الخارج. وحري بالذكر أن السكان اليهود كانوا قلة في أكثر المدن الساحلية والمدن الواقعة في الجنوب (ولو أن الأدوميين كانوا قد أُرغموا على التهوّد)، والمدن الواقعة في منطقة السامرة وأكثر مدن الجليل[٢٦].

٦ ــ مجتمع فلسطين في العصر الهلينستي:

ليس من اليسير أن ترسم صورة واضحة تماماً لمجتمع فلسطين في العصر الهلينستي. ويعود ذلك إلى عدة أسباب. من ذلك، أولاً، سطح الأرض. ففلسطين بالرغم من صغر رقعتها (مساحة فلسطين هي نحو سبعة وعشرين ألف كيلومتر مربع) فإن تضاريسها متنوعة متباينة. ففي الشرق يمتد غور الأردن من الشمال إلى الجنوب على انخفاض عن سطح البحر يتراوح بين مئتي متر (عند بحيرة طبرية) وأربعمئة متر (عند البحر الميت). والغور تتناقص المياه والنباتات فيه (باستثناء واحة أريحا) في الاتجاه


قناة قيصرية الرومانية

من الشمال إلى الجنوب، كما ترتفع الحرارة ويتضح جفاف الأرض في الاتجاه ذاته. وتحاذي غور الأردن إلى الغرب، في النصف الجنوبي من البلاد، جبال القدس والخليل وجبال نابلس (التي يتراوح ارتفاعها بين ٧٠٠ و ٩٠٠ متر). وجبال القدس والخليل جرداء غبراء عندما تتجه نحو الغور، إلا أنها خضراء في انحدارها نحو الغرب ــ نحو الساحل. وجبال نابلس خضراء ريانة في اتجاهها شرقاً وغرباً وشمالاً. وتنبع عند كعوبها ينابيع كثيرة تتجمع فتكوّن أنهاراً تصب في الأردن مثل وادي الفارعة، أو في البحر المتوسط مثل نهر العوجا ونهر المقطّع، وهذا ينبع جنوبي جنين ويصب في البحر شمالي حيفا. وتحتضن جبال القدس والخليل وجبال نابلس أودية متسعة تصلح للزراعة، وهي في مجموعة الجبال الثانية أوسع منها في الأولى. وحيث تزودها المياه بحاجتها تينع فيها الغلات ــ حبوباً وأشجاراً مثمرة. وما عدا ذلك فإن الجبال توفر للأغنام والماعز والأبقار المراعي الصالحة نسبياً. وجبال القدس والخليل تنحدر جنوباً تدريجاً حتى تفقد وجودها في النقب، وهو أرض بعضها صحراوي والبعض الآخر شبيه بذلك.

وبين جنين، الواقعة عند أقدام جبال نابلس، والناصرة التي تتصدر نقطة ابتداء الجليل الأدنى، يقع مرج ابن عامر، وهو سهل من أخصب ما تعرفه المنطقة أرضاً ومن أكثرها عطاء. وجبال الجليل أوسع انتشاراً من الجبال الجنوبية وأقل ارتفاعاً، والسهول التي تحتضنها أوسع من التي توجد في الجنوب أيضاً.

والسهل الساحلي الذي يمتد من البصة شمالاً إلى رفح جنوباً، يتكون في أوله من جيوب ساحلية، حتى إذا دار بجبل الكرمل، الذي يحمي مرج ابن عامر وهو في اتجاهه الجنوبي الشرقي، أخذ في الاتساع تدريجاً، حتى يصل إلى نحو ثلاثين كيلومتراً في منطقة غزة، وهو سهل معطاء كريم لمن يُعنى به.

هذه التضاريس أدت، وفي العصور القديمة خاصة، إلى قيام مجتمعات صغيرة تدور حول مدينة أو قرية أو منتجع قبيلة. وقد يكون التنابذ بين هذه المجتمعات أغلب على حياتها من التواصل.

وهذا التاريخ الطويل الذي ترك آثاره في حياة السكان في فلسطين هو عامل ثانٍ. ولسنا نقصد بذلك التراكم التاريخي البالغ آلاف السنين فحسب، بل إننا نقصد هذا الاتصال المستمرّ بين أجزاء من فلسطين والبلاد المجاورة ــ براً من الشمال والشرق والجنوب وبحراً من الغرب. فقد كانت أجزاء معينة تفيد من حضارة البحر، فيما تتأثر أجزاء أخرى بحضارة الجوار البري في الوقت ذاته. ومن ثم فقد كانت تقوم مجتمعات منوعة الثقافة متجاورة مكاناً ولكنها مختلفة طبيعة. وقد تقوم بينها صلات جوار سلمية، كما قد تكون الحروب الأمر الغالب على العلاقات.

ويجب أن نضيف، بالنسبة للفترة التي نتحدث عنها، عاملاً ثالثاً وهو دخول المستوطنين والجنود والتجار اليونانيين والمقدونيين إلى البلاد يحملون حضارة جديدة على المنطقة هي الحضارة الهلينية. وقد عرفت فلسطين خلال القرون الثلاثة التي تلت مجيء الاسكندر هذه الحضارة الجديدة بزخمها وقوتها كما شهدت مقاومة لها من بعض عناصر السكان.

ولعلّ أهم ما أثّر في تطور المجتمع في هذه الفترة هو إنشاء المدن polies الهلينستية، أو تطبيع المدن القديمة هلينستياً. هذه المدن الجديدة والمطبّعة كانت تختلف عن المدن التي عرفتها فلسطين طيلة الفترة التي سبقت العصر الهلينستي. كانت مدن الفترة الأولى، على العموم، مدناً نشأت كيفما اتفق الحال، فكانت طرقها وشوارعها أزقة، وبيوتها متراصة ومساكنها مزدحمة. أما المدن الجديدة فقد نُسِّقت على نظام تقاطعي هو الذي استنه هبودراموس Hippodramus مهندس المدينة الهلينستية، وشقّتها شوارع عريضة وتُركت فيها ساحات فسيحة للتجمعات وأُقيمت فيها هياكل فخمة للآلهة وأُنشِئت فيها نمفيات (نافورات) أنيقة للحوريات المقدسة[٢٧].

هذا من حيث الوعاء. أما من حيث المحتوى فالعنصر البشري الذي أُسْكِن هذه المدن، كما وضِع في المستعمرات العسكرية، كان من اليونان والمقدونيين أصلاً. أَسْكِنَ هؤلاء المدن وأنزِلوا المستعمرات ليكونوا جنوداً للدفاع عن الدولة التي قامت في المنطقة في نهاية الأمر. وكان مع هؤلاء الناس عناصر حضارية حملوها من بلادهم كان على الأقل ملوكهم وقادتهم ومفكروهم يعتبرونها حَرِيّة بأن تُنشَر ليفيد منها العالم. وقد عمل الجميع على نشر هذه الآراء والأفكار والفلسفات والآداب عبر المؤسسات المدنية والثقافية التي ألفوها من قبل في بلادهم الأصلية ــ مجامع ومجالس وموظفين للإدارة والتنظيم، وجمنازيوم وقاعات رياضية ومسارح وحلبات سباق للعناية بالفكر والجسم. وقد مُتّع هؤلاء القادمون بالامتيازات والحريات التي كانت معروفة عندهم في بلادهم الأصلية. وكانت لهذه المدن الهلينستية أراض واسعة تابعة لها أقطعها إياها الملوك لما سمحوا لهم بإنشاء المدينة. ولم تكن هذه الأراضي تقتصر على أرباض تحيط بالمدينة فحسب، بل كانت مساحات واسعة شاسعة، وكان الأفراد يمتلكونها استغلالاً واستثماراً، وذلك تحت حكم المدينة لا تحت حكم الملك. فالملك كانت له أطيانه الملكية الواسعة المنتشرة في أنحاء المملكة. وكانت واردات هذه الأطيان الملكية أحد موارد الخزينة الملكية الهامة. وهذه المدن، كما رأينا قبلاً، لم تقتصر على جزء معين من فلسطين (أو سوريا) مثلاً، بل وزِّعت في أنحاء مختلفة، لكن قد تكون رقعة من الأرض تتكثف فيها المدن أكثر من غيرها، وذلك اما بسبب خصب الأرض (للزراعة)، أو قربها من السواحل (للتجارة)، أو تحسباً للدفاع، أي لأسباب استراتيجية كما نقول اليوم. وعلى سبيل المثال فإن شمال سوريا، داخلاً وبحراً، كانت فيه كثافة مدن أكثر من نواح أخرى من سوريا ــ فهناك الأرض الخصبة والتجارة الرابحة (البحرية والبرية) والحاجة إلى الدفاع ضد الشمال والشرق! وفي فلسطين كانت كثافة مدن نسبية على الساحل بسبب الثروة الزراعية والبحر. وعرف شمال غور الأردن ومنطقة بحيرة طبرية وشمال الأردن كثافة كبيرة في المدن العشر، لأن طرق التاجر والجندي تمر من هناك في جميع الاتجاهات تقريباً[٢٨].

وما تبقى من البلاد كان الريف بمعناه الطبيعي الأصلي. وكان سكانه هم أهل البلاد. وقد ظل أكثر هؤلاء فئات تتمتع بنظم اجتماعية خاصة وتقاليد محلية، فقد حال جهلهم اليونانية دون الاختلاط بالآخرين. لكن ثمة جماعة خاصة كانت قد أخذت نفسها بناموس معين، وطبعت في أذهان أبنائها فكرة اختلقتها مع الزمن وأودعتها كتبها المقدسة، ونسبتها إلى الله عهداً وميثاقاً منه أن يفضلها على غيرها وأن يورثها هذه الأرض. هذه الجماعة هي الجماعة اليهودية التي يُسميها المؤرخ نوت Noth الجماعة الدينية المقدسية. هؤلاء ظلوا منفصلين عن الآخرين لا طيلة العصر الهلينستي فحسب، بل على طول الزمن الذي نعنى به في هذه الدراسة.

ولنرجعْ إلى الريف الطبيعي الأصلي وسكانه. كان عمل الغالبية منهم الزراعة وتربية المواشي. وكانت تجمعاتهم تدور حول القرى صغرت أو كبرت. وفي المناطق التي لا تصلح للزراعة كانت تربية المواشي المهنة الرئيسة لهم. وكان هؤلاء السكان، في أيام السلوقيين، يعتبرون أقناناً مرتبطين بالأرض. (في مصر لم يكن الفلاحون في أيام البطالمة يعتبرون أقناناً، ولم يكونوا مرتبطين بالأرض). ومن ثم فقد كان هؤلاء الناس هم عُمّال الملك، يدفعون ما يتوجب عليهم من إتاوة إلى موظفي الملك. فإذا ما أُقطعت أراضيهم (قراهم) إلى ‹مدينة› ما أصبحوا تابعين لتلك المدينة، وعندها يتوجب عليهم دفع الاتاوة إلى المدينة عن طريق موظفيها. والملاحظ أنه في هذه الحالة كانت أوضاع الفلاحين تتحسن، ذلك لأن المدينة كانت أقل تشدداً في تطبيق قواعد ‹الأقنان› عليهم بالنسبة للملك، ولو أنهم لم يتحرروا منها تماماً. وكانت أكبر فائدة تعود عليهم أنهم كانوا يصبحون مستثمرين للأرض وراثة، بحيث لا يمكن إخراجهم منها[٢٩].

وكانت لهؤلاء القوم قواعد وأعراف خاصة بهم تتحكم في حياتهم الاجتماعية من البيت إلى الهيكل. وأهم ما فيها أنه كانت لهم محاكم خاصة تنظر في قضاياهم بموجب ما توارثوه من قوانين وأعراف. ولكن القضايا المتعلقة بالجنايات كانت خارج اختصاص هذه المحاكم[٣٠].

ولنعد إلى المدن وسكانها. هؤلاء كانوا أصلاً من اليونان والمقدونيين. وهم أصحاب الامتيازات. لكن السلوقيين، وهم بناة المدن في الدرجة الأولى في العصر الهلينستي، كانوا يشجعون جماعات من سكان البلاد على السكنى في المدن. فالمدينة كانت بحاجة إلى من يعمل فيها. فضلاً عن ذلك فإن بعض المهتمين بقضية نشر الحضارة الهلينية كانوا يرون أن المعايشة داخل أسوار المدينة الواحدة هي سبيل لذلك. إلا أن هؤلاء لم يصبحوا جزءاً ‹عضوياً› من مجتمع المدينة كجماعات، بل كانوا يظلون جماعة خاصة كان يطلق عليها اسم ‹بوليتوما› Politeuma وكانت هذه الجماعة ذات تنظيم خاص: فلم يكونوا يسهمون في الحياة السياسية، ولا يشتركون في الجيش (إلا نادراً)، ولكن دورهم في الحياة الاقتصادية كان كبيراً.

ومع أن السكان الغرباء لم يكونوا مقسمين طبقات ذات امتيازات معينة، فقد كان ثمة تفاوت بين الجماعة المختارة أو الطبقة العليا وغيرها من بقية المواطنين مع أن الجميع كانوا يوناناً ومقدونيين. فالطبقة العليا' كانت تتألف من حاشية الملك، وهم أفراد أسرته وأصدقاؤهم ومستشاروه المقربون؛ ومن كبار الموظفين وغيرهم من رجال البلاط. وكان يدخل في عدادهم عدد من اليونان والمقدونيين الذين لم يكونوا في مراكز السلطة، لكنهم كانوا في مراكز النفوذ بسبب ثرائهم، وهم عادة من كبار الملاكين وموسري التجار. وقد ينضم إلى هذه 'الطبقة' قلّة من أهل البلاد المقيمين في المدينة بسبب ثرائهم كتجار.

لكن المدينة لم يقتصر سكانها على رجال الدولة والأغنياء وأصحاب الدساكر، ولا حتى على الجند والعمال والصناع وأصحاب الحوانيت. فقد كان يقطنها فضلاً عن أولئك أجمعين موظفو الدرجات الدنيا من العاملين في المالية والضرائب والإتاوات، وكبارُ الفلاحين والملاكون المتوسطو الحال. ويجب أن نضيف إلى هؤلاء ما يصح أن يسمى 'بالطبقة المتوسطة'، أو البورجوازية من أصحاب المهن الحرة ـ معلمين وأطباء وتجاراً ومهندسين وصناعاً ماهرين وتجاراً يزودون المدينة بحاجاتها اليومية. وقد كان لهؤلاء الأشخاص مواقع مميزة لأن المدربين من أصحاب المهن الحرة عنصر هام للتطور الاقتصادي والاجتماعي في أي مدينة. والمنطقة كانت آخذة بأسباب هذا التطور. والدولة، بوصفها الموظف الأكبر كانت بحاجة إلى الأيدي العاملة في صفوف الضباط وضباط البحرية لإدارة آلة الحرب، وبين التقنيين العارفين ببناء السفن وصيانتها، والبنائين لإقامة الحصون وبناء الأسوار وإنشاء المباني العامة، الدينية والمدنية في المدن المنتشرة في أنحاء الدولة.

وإذا تذكرنا أن الإدارة الهلينستية في فلسطين والجوار (بطليمية كانت أم سلوقية) كانت شيئاً جديداً بالنسبة للتجربة الشرقية السابقة من حيث وجود طبقة من الموظفين في الحقول المختلفة يرتبط أفرادها ارتباطاً عمودياً بالإدارة الملكية وارتباطاً أفقياً مع الآخرين للقيام بالأعمال اللازمة داخل المدينة أو أراضيها أو الإبارخيا أو الاستراتيغية، أدركنا أن تدريب هؤلاء الموظفين كان يقتضي العمل المستمر، لأن العدد المطلوب كان كبيراً جداً. وهذا التدريب لم يكن مهنياً فحسب بل ثقافياً أيضاً، لأن اليوناني كان يدرك أمراً غاية في الأهمية وهو أن العامل الماهر، مهما كان نوع عمله لا يمكنه إجادة العمل إن لم يكن مثقفاً[٣١].

وكان ثمة عدد كبير من الأعمال والأشغال المستقلة عن الدولة، وهو ما نسميه اليوم بالقطاع الخاص. وهذه الأعمال كان يقوم بها جماعات مدربة تدريباً فنياً خاصاً دقيقاً مثل الطب والقانون. وكان عالم الثقافة يضم العلماء والفلاسفة والشعراء والكتاب والممثلين والموسيقيين والراقصين والرسامين. وكان هؤلاء يقصدون بلاط الملوك أو قصور الأغنياء حيث يجدون العمل والرزق. وكان أهل العلم منهم يشتغلون بالتعليم خاصة. إن التعليم في الدرجات المبكرة لم يكن من عمل الدولة. بل كان على الآباء أن يدبروا أمر تعليم أولادهم.

وتدريب هؤلاء القوم كان يتم في أماكن العمل بالذات، أو في معسكرات الجيش أو في دوائر الحكومة. فالمسرح مثلاً كان مدرسة لتدريب الممثلين والراقصين. والمهنة الوحيدة التي كان للدولة يد في الإشراف على تدريب أصحابها هي مهنة الطب. ويبدو أن الاسكندرية كانت مركزاً لتدريب الأطباء أولاً لأن مصر، حتى من أيام الفراعنة، كانت تُعنى بالطب وذلك لارتباطه بالتحنيط أصلاً، وثانياً لوجود المتحف والمكتبة هناك حيث كان العلماء والباحثون يقومون بأعمالهم بتعيين من الملك البطليمي (كما كان الملك يستطيع أن يعزل أياً منهم متى شاء)[٣٢].

ويبدو لنا أن اليونان والمقدونيين الذين كانوا يأتون للسكن في هذه المدن والمستعمرات ـ وهم جنود عاملون أو من قدامى الجنود، فضلاً عن عدد من العاملين الآخرين ـ لم يكونوا دوماً بالعدد الكافي. وقد نقص عدد القادمين بعد سنة ١٨٨ ق. م بسبب احتلال رومة لبعض مناطق بلاد اليونان، وبسطِ نفوذها على آسيا الصغرى، فانقطع طريق المدد. ومن هنا نجد أن القيادات العسكرية أخذت تستعين بالمرتزقة. ومن بين الشعوب التي استخدمت بهذه الصفة الأدوميون واليهود مثلاً. وكان السلوقيون يسمحون لأبناء البلاد بأن يكوّنوا وحدات خاصة بهم في التجمعات العسكرية والمهنية.

كان الإغراء الأصلي لحمل اليونان والمقدونيين على الإقامة في المستعمرات هو أن يُقْطَعَ هؤلاء الأراضي التي تمكنهم من العيش. والملك كان يفعل ذلك بوصفه المالك أصلاً لجميع الأراضي في الدولة. وكان أبناء البلاد الذين يُسمح لهم بسكنى هذه المستعمرات يُمنحون قطعاً من هذه الأرض أيضاً. والمهم أنهم كانوا يمنحونها أفراداً لا جماعات، كما كانت الحال بالنسبة لليونان والمقدونيين. ولم يُعتبر هؤلاء السكان مواطنين مثل اليونان والمقدونيين، لكن كان باستطاعتهم كأفراد ان يبلغوا درجة المواطنة هذه، وذلك عبر تقبلهم للحضارة الهلينية. وكان المظهر الأول لذلك هو تعلم اللغة اليونانية، إذ ان هذا كان يفتح أمام هؤلاء

الأفراد المجال للإسهام في الأعمال العامة كالطب والقانون وغير ذلك من الحقول المختلفة. وحتى الوصول إلى الوظائف الكبرى كان ممكناً عندها(٣٣).

ولنتذكر أن الرقيق كان له في العالم القديم دوران كبيران اجتماعي واقتصادي. ولم يختلف الأمر في العصر الهلينستي. وكل ما هناك أن مصادر الحصول على الرقيق تنوعت. ففضلاً عن الرقيق الذي كان يأتي من الأسواق المألوفة منذ القدم جاءت الحروب الكثيرة تزيد في عدد الرقيق المطروح في الأسواق. فكم من معركة انتهت بوضع آلاف من أسرى الحرب في السوق. يضاف إلى ذلك القرصنة التي لم يكتف القرصان العامل فيها بالبحر وسفنه بل كانت سفن القرصان تغير على السواحل بل حتى على بعض المدن الداخلية في بلاد اليونان، فتحمل سكان قرية أو بلدة أو مدينة بأكملها إلى أسواق الرقيق. واختلف نوع الرقيق، فلم يظل جميعه من البرابرة، على تفاوت الدلالة في هذه الكلمة عند اليونان والرومان، بل أصبح اليونان أنفسهم معرضين للاسترقاق. وكان الكثيرون من اليهود يباعون في سوق النخاسة.

كانت أسواق الرقيق العديدة تتكفل بتصريف الأعداد الكبيرة من العبيد. وكانت الأعمال التي يقوم بها الرقيق تتوقف على مستواه الثقافي وخبرته العملية. فالمثقفون كانوا معلمين ومؤدِّبين وكتاباً، وغيرهم كانوا يقومون بالأعمال المنزلية. وكانت الأسر في تلك الأزمنة كبيرة وكانت خدمة المنزل تمتص الرقيق بأكثره.

لكن العبيد كانوا يعملون في المناجم والمصانع ومقالع الحجارة وفي المزارع. ومن هنا فإن أصحاب الأملاك الواسعة والمشرفين على المنشآت الصناعية والتجارية الضخمة كانوا بحاجة إلى المئات من الرقيق.

وكانت الهياكل تحتاج أيضاً إلى أعداد كبيرة من العبيد لتعمل في الأرض زراعة وحصاداً وفيما تبقى من الأعمال كخزن الحبوب وتوزيعها. وكانت بعض الهياكل تبتاع 'عذارى الهيكل' من الرقيق على ما عُرِف عن هياكل آسيا الصغرى مثلاً.

وحري بالذكر أن النظام البطليمي في مصر كان يمنع استرقاق السكان، ولذلك كانت مصر سوقاً لاستيراد الرقيق من الخارج. وكان استخدام الرقيق في مصر في المنازل أكبر منه في المجالات الأخرى(٣٤).

٧ ــ الحياة الاقتصادية في فلسطين:

يُعتبر أرشيف زينون Zeno من المصادر الرئيسة لدراسة الحياة الاقتصادية في فلسطين في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد. كان زينون يوناني الأصل، هبط مصر سعياً وراء الرزق والمنصب. وكان أن ولّاه أبولونيوس Apollonius الذي كان وزير المال (دِيُويكِتِس Dioiketes) في أيام بطليموس الثاني (٢٨٢ ــ ٢٤٦ ق. م) عملاً يتعلق بإقطاعاته الكثيرة ومتاجره الواسعة. وفي أواخر سنة ٢٦٠ ق. م أرسله أبولونيوس إلى فلسطين والمناطق المجاورة. والمهمة كانت رسمية، أي أنها كانت مرتبطة بمصالح الملك التجارية. وقد رافق زينون عدد كبير من الموظفين (٧٨ موظفاً منهم عشرة بأسماء ساميّة). وكان الموظفون من الطبقة العليا. وقضى زينون نحو أربعة عشر شهراً في فلسطين (أي سنة ٢٥٩ بكاملها وبعض سنة ٢٥٨ ق. م). وقد استُدعي على عجل في نهاية رحلته لأن أبولونيوس احتاجه لتولي شؤون إقطاعه الكبير في الفيوم.

كان لأبولونيوس إقطاع في الجليل في بيت عناتا (البِعْنة في قضاء عكا). وقد زاره زينون. وكان أبولونيوس، بصفته وزيراً للمال، وكيلاً تجارياً للملك البطليمي بالنسبة للتجارة الخارجية. ولذلك فقد كان على زينون أن يتفاوض مع عملاء أبولونيوس في الشؤون التجارية؛ ومع أصحاب السفن التي كانت تقوم بنقل السلع والمتاجر من موانىء فلسطين وفينيقيا إلى مصر وبالعكس؛ وكذلك مع أصحاب القوافل التي تنتقل بين البتراء وغزة عبر النقب.

وقد زار زينون مناطق فلسطين المختلفة وبعض مناطق عبر الأردن. فقد ألقى مراسيه أولاً في غزة ومن هناك زار مريسة (تل صندحنّة) وأدورا في النقب والتقى موظفين من يبنا. وفي هذا الجزء من رحلته زار بقية مراكز النقب ووادي عَرَبَة ولعله زار بيت المقدس يومها أيضاً. ونقرأ أن زينون نزل من البحر ثانية في حصن ستراتون، ومن هناك انتقل إلى الجليل واجتاز نهر الأردن إلى المدن العشر، وقضى بعض الوقت في فيلادلفيا (عمان)، حيث كان مركز آل طوبيا كبار التجار اليهود في ذلك الوقت. ودار في المناطق الواقعة إلى الجنوب من المدينة. وفي هذه الزيارة استطاع التعرف إلى التجارة بين البتراء ودمشق عبر المدن الأردنية عن كثب. ويبدو أن زينون حصل على معلومات هامة تتعلق بأحوال البقاع ودمشق وحوران والجولان، ولكنه لم يزر هذه المناطق نفسها. ولعلّه حصل على ما يريد من التجار والمسؤولين الذين التقاهم.

وقد دوَّن زينون كل شيء رآه أو سمعه، وقيّد الأشياء التي ابتاعها مع أثمانها. وقد سجّل جميع مراسلاته مع الأشخاص الذين وثّق علاقاته بهم وكاتبهم في شؤون مختلفة. ومن حسن الحظ أن مراسلات زينون وتقاريره قد وصلتنا. وهي مكتوبة باليونانية على ورق البردي، لكنها لم تُحفظ بشكل لفّات، شأن محفوظات البردي، بل في مجلدات. ويضم إلى برديات زينون بردية راينر Rainer التي تحوي معلومات اقتصادية عن مصر ومجموعة القوانين المتعلقة بالضرائب في مصر البطالمة[٣٥].

يلاحظ هِنْغل Hengel أن ملوك مصر بعد بطليموس الأول لم يكونوا من القواد النابهين ولكنهم كانوا من رجال الاقتصاد البارزين. ويرى تارن Tarn أن مصر أصبحت في أيامهم آلة لتوليد المال. وكانت موانىء فلسطين (وفينيقيا) مراكز تجارية ينشطون فيها جميعاً لجمع الثروة من التجارة البحرية والبرية، إذ كانت قوافل الأنباط تمر بالنقب، كما كانت ثمة قوافل تنتقل من شمال فلسطين عبر المدن العشر ودمشق إلى أرض الرافدين.

على أن البطالمة أدركوا أن الزراعة هي عماد الثروة في مصر أصلاً. ولذلك عنوا بالحبوب والنباتات الأخرى وتربية المواشي. وكما عني البطالمة بالزراعة والأرض في مصر كانت الأرض والزراعة موضع عنايتهم في ولايتهم الآسيوية، فنالت فلسطين حصتها من ذلك. ولعلّ أهم ما أفادته فلسطين هو الاهتمام بالري في غور الأردن. وكانت الحبوب وأشجار الزيتون والكرم يُعنى بها عناية فائقة، ولذلك كانت الحبوب وزيت الزيتون والخمر تُصدَّر إلى الخارج. وقد جاء في مراسلات زينون أن خمر الجليل كان يضاهي خمر جزيرة كيوس Chios الايجية طعماً. وكانت فلسطين تستورد من خمر جزيرة كيوس كميات كبيرة لإعادة تصديرها[٣٦].

وكانت جبال فلسطين يومها تكسو الغابات بعض أجزائها، لذلك كانت الأخشاب بعض صادراتها. وبسبب العناية بتربية الأغنام كان الصوف من مواد التصدير الهامة. وهذه السلع مع السمك المملح والأجبان والرقيق كانت تُصدَّر إلى مصر. وكانت فلسطين تستورد من مصر ورق البردي والزجاج والفخار والأقمشة. على أن مصر لم تكن البلد الوحيد الذي يبعث بالفخار إلى فلسطين، فالكميات التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية الحديثة من الفخار المستورد من المدن اليونانية المتعددة تدل على اتساع نطاق هذه التجارة.

كانت فلسطين تشغل حيزاً كبيراً في التخطيط الاقتصادي في عهد البطالمة، وذلك لأن الملوك كانوا يحتكرون الكثير من الصناعة في الداخل والاتجار مع الخارج، على ما سنرى. فضلاً عن ذلك فإن موانئها، مثل موانىء فينيقيا، كانت مراكز لتبادل المتاجر البحرية ــ البحرية (في المتوسط) والبحرية ــ البرية (إلى الشرق). هذا هو الدور التجاري المزدوج الذي كانت عكا ودورا وحصن ستراتون أو قيصرية (فيما بعد) ويافا وعسقلان وغزة تقوم به. وغزة بالذات كانت ذات أهمية خاصة، فإن تجارة الطيوب والبخور والأفاويه التي كانت تنتهي إلى غزة مع قوافل الأنباط كانت توزَّع منها إلى موانىء سوريا واليونان وجزيرة ديلوس بشكل خاص؛ فقد أصبحت هذه منذ أن أخذت رومة تزحف شرقاً، مركزاً رئيساً للاتجار[٣٧].

ولكن الأجزاء الداخلية من فلسطين كانت أيضاً موضع عناية التاجر اليوناني. أولاً لأنها، كما أشرنا من قبل، أصبحت على طرق تجارية رئيسية إلى الشرق. ثانياً لأن بيت المقدس التي كانت المدينة الأولى وبلد الهيكل والتعبد والحج كانت سوقاً كبيرة. وكانت في مواسمها الدينية الثلاثة تحتاج إلى كميات كبيرة من المواد الغذائية والزيوت والطيوب والحيوانات والطيور. وهذه جميعها لتقديم القرابين والضحايا. ومن هنا كان اهتمام زينون بزيارة الأجزاء الداخلية من فلسطين كما اهتم بزيارة الموانىء. وقد ذكر زينون أنه أرسل قافلة إلى حوران لجلب القمح الذي طلبه أبولونيوس، كما شحن بحراً بضائع إلى مصر لم يفصّل محتوياتها. وابتاع زينون إماء، كما أرسل له طوبيا، فيما بعد، ثلاث إماء. وهناك ما يدل على أن زينون وضع الأسس للاتجار بالرقيق، إذ انها كانت تجارة رابحة. فقد كان أثرياء اليونان وبعض المصريين يبتاعون الرقيق للعمل في المنازل.

وإذا نحن أنعمنا النظر في مصادرنا التي تتحدث عن الحياة الاقتصادية في فلسطين في العصر الهلينستي أدركنا أن الثروة الرئيسة للبلاد هي الأرض والزراعة. يتضح هذا في تصرف القوم هناك، إذ كانوا دوماً يعتبرون أن «المُلك» ــ أرضاً أو كرماً أو غابة زيتون أو حتى بيتاً ــ هو القيمة الأصلية الثابتة في حياة الناس. وحري بالذكر أن الضرائب كانت، في أحيان كثيرة ــ وفي الفترة التي نتحدث عنها بالذات ــ تُدفع عيناً: حبوباً أو زيتوناً أو زيتاً أو خمراً أو بقراً أو غنماً أو طيوراً. أما النقود، فمن حيث اقتناؤها أو من حيث استعمالها لدفع المكوس، كان دورها ثانوياً. (هذامع العلم بأن الاقتصاد النقدي الصحيح، بالنسبة لفلسطين، بدأ في أيام البطالمة). وحتى رضى الله عن الشعب أو غضبه عليه كان يُعبَّر عنه بالخير العميم في الحالة الأولى، وبالقحط أو الجفاف يصيب الحقول أو الكروم وما إليها. وقد أخرج آفي ــ أيونا Avi-Ayonah أن الذين كانوا يخرقون قوانين السبت كان خرقهم زراعياً في

طبيعته. وقد أورد (نقلاً عن المِشنا Mishna) ذكر تسع وثلاثين مخالفة منها ثماني عشرة متعلقة بالأرض والزراعة.

وقد كانت التجارة في شمال البلاد يقوم بها الصوريون، سواء في ذلك المقيمون في صور أو في بعض موانىء فلسطين. وكان للصوريين اهتمام خاص بتجارة السمك ــ تصديراً واستيراداً.

ويبدو أن هذا الاهتمام بالأرض والإنتاج الزراعي هو الذي مكن للبلاد أن توازن بين حاجاتها وإنتاجها. لكن البلاد كانت، عندما تتعرض لجفاف أو قحط، تستجير بمصر للحصول على الحبوب وبقبرص لاستيراد التين الناشف (القُطّين). وكان التصدير يُمنع في مثل هذه الحالات، لا في أيام الدول الهلينستية فحسب، بل وفي أيام الرومان أيضاً[٣٨].

ولننتقل الآن إلى دراسة تفصيلية للحياة الاقتصادية في فلسطين في العصر الهلينستي.

وفلسطين، كما نعرف، تتوسطها من الشمال إلى الجنوب جبال الجليل وجبال نابلس (مع امتداد الكرمل) وجبال القدس والخليل. وبسبب اختلاف الطبيعة والمناخ في هذه الجبال اختلفت النباتات الطبيعية والغلات الزراعية والحيوانات فيها من مكان إلى مكان. فجبال القدس والخليل وعرة والأودية والسهول التي تحتضنها قليلة ومساحاتها صغيرة. ومن ثم فالأرض الصالحة للاستغلال الزراعي محدودة. والأرض، على العموم، هي للأشجار أصلح، الطبيعي منها والمزروع. والطبيعي كان يتناقص مع الزمن بسبب قطعه للبناء أو لآلات الحصار أو للوقود. وكانت الجنائن تقوم أحياناً مكان تلك الأحراج، فتُغرس فيها أشجار الزيتون والكرم والخروب وغيرها من الأشجار المثمرة. هذا مع العلم أن المحاولة لزرع الحبوب ــ والقمح خاصة ــ في جهات بيت المقدس كانت مستمرة. ولنذكر دوماً الأماكن المرتبط اسمها بالزيتون (في منطقة القدس) مثل جبل الزيتون وبيت زيتا وبير زيت. وعلى كل فلم يكن زيت الزيتون الذي يُنتج هناك من الدرجة الأولى.

لكن الكرم كان أقرب مزاجاً إلى جبال القدس والخليل. فقد كان إنتاجه غزيراً، والخمور المستخرجة منه جيدة. ويظهر أن الكرمة كانت تُزرع في المنطقة بأسرها وصولاً إلى كفر عزيز (في أدوم) جنوباً. وكانت شجرة التين عزيزة على الفلاح، فثمرها يُستهلك وهو ناضج طري ويُجفف لأيام الشتاء.

وقد حرص أصحاب الأرض على زرع الخضر والبقول والفطر والورد. وكانت هذه تقتصر على قطع من الأرض يمكن أن تُروى، وكان غالبها، بالنسبة لبيت المقدس، في وادي قدرون الواقع جنوب شرقي المدينة.

وتظل السفوح الجبلية أماكن صالحة لتربية الماشية ــ غنماً وماعزاً وبقراً. وكان معنى هذا وجود الصوف بكميات لا يستهان بها. وكان صوف الخليل يتصدر أسواق القدس، إذ كان ثمة سوق خاصة بالصوف الخليلي. واستتبَع وجود الصوف قيام صناعة الصباغة.

وكانت حجارة بيت المقدس، كما هي الآن، من أجمل الحجارة للاستعمال في البناء. كما كان صلصالها صالحاً لصنع الفخار. وكانت بيت المقدس مركزاً هاماً للحياة الاقتصادية، وذلك بسبب المكانة التي كانت تحتلها دينياً واجتماعياً وسياسياً. فهي مركز المنطقة، لذلك كانت تُحمل إليها الضرائب والمكوس التي تُجمع من المنطقة، وفيها يُنفق معظمها. وكان الهيكل يُزار ثلاث مرات سنوياً. فكان بحاجة إلى عدد كبير من العاملين فيه وحوله لتزويد الزوار بحاجاتهم. وقد أشرنا إلى الحاجات النباتية والحيوانية / الغذائية والطقسية. لكن كان ثمة حاجة إلى عدد من الصناع ــ الخبازين والحاكة والصاغة والبنائين والنجارين والنحاسين وتجار المراهيم والمعاجين والكتبة والصرافين. وكانت المدينة المقدسة تحتاج إلى مواد كثيرة في هذه المواسم، فكان من الضروري أن تُنقل حاجاتها إليها. هذا مع العلم بأن اليهود، المعنيين بهذه الطقوس الدينية، كانوا يؤلفون جزءاً فقط من سكان المدينة ونواحيها. فالوثنيون الأصليون كانوا هناك.

فإذا اتجهنا شمالاً إلى جبال نابلس وجدناها أقل ارتفاعاً وأوسع سهولاً وأغزر ماء، مثل وادي نابلس (شكيم) وسهل سبسطية ووادي الفارعة وعين عسكر سوخر. وفي هذه كلها كان يُزرع القمح والذرة والحمص. وكان الزيت يُنتج بكثرة في جبال نابلس، وكان أكثره يُصدَّر إلى الخارج، وخاصة إلى مصر، وذلك لأنه لم يكن نقياً (دينياً) فلم يكن يصلح للطقوس، فيما كان الزيت المستخرج في القدس والخليل وفي جبال الجليل يُعتبر نقياً. وكان الكرم يغطي سفوح المرتفعات في هذه الجبال، لذلك كان الخمر يُعصر في مدنها[٣٩].

يقع غور الأردن شرقي جبال القدس والخليل وجبال نابلس. والمنطقة المصاقبة منه لهاتين السلسلتين اجتمع فيها الطقس المداري، والماء الغزير، وتنظيم توزيع الماء، وصرفه بترع وأقنية للري، تم إنشاؤها في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد.

وقد أدّى ذلك إلى أن يقوم في غور الأردن والمنحدرات الشرقية إلى البحر الميت اقتصاد متخصص أساسه النخيل والبلسم. وقد التصق اسم أريحا بالبلسم منذ أيام المملكة المصرية القديمة، وبلغ الغاية في تطوير زراعته في العصر الهلينستي (واستمر حتى أيام الرومان). وقد أصبح إنتاجه على درجة رفيعة من الإتقان، بحيث انه أثار أطماع كليوباترة في القرن الأول قبل الميلاد فطلبته من أنطونيوس، فأهداها المنطقة، ثم أجّرتها إلى هيرودس. وهيرودس (٣٧ ـ ٤ ق. م) هو الذي أنشأ قريتي فصايل Phasael وأرخلايس Archelais في الوادي شمالي أريحا، واتّخذ منهما مركزين للإشراف على زراعة البلسم والنخيل. وقد زرع من النخيل بستاناً بلغ طوله ثمانية عشر كيلومتراً، وكان التمر جيداً. وعين جدي، على شاطىء البحر الميت الغربي (في الطرف الجنوبي تقريباً) معروفة بتمورها وخمورها.

وأهم نتاج زراعي في غور الأردن كان البلسم. وهو زيت خشبي كان يدخل في صناعة العطور والعقاقير. وقد حصر هيرودس زراعته في حقلين صغيرين قرب القريتين المذكورتين آنفاً. وقد سَلِمَ الحقلان فيما بعد من الخراب الذي عمّ الكثير من المناطق في حرب ٦٧ ـ ٧٠ م. كان اليهود ينوون اقتلاع كل شجرة فيما كان الرومان يدافعون عنها. وقد وسّعت الدولة الرومانية، فيما بعد، رقعة إنتاج البلسم، فامتدت المنطقة (في القرن الرابع الميلادي) من عين جدي إلى الرَمْثا (الجنوبية) (قبالتها في شرقي الأردن). وثمة إشارة إلى إدخال وسائل مستحدثة للإنتاج، ولكننا لم نحصل على توضيح لهذه الوسائل المستحدثة.

ونعرف أن القطن كان يُزرع في غور الأردن، كما كانت الخضر تُحمل من مزارع على ضفة النهر إلى بيت المقدس.

وحري بالذكر أن القار كان يُجمع من البحر الميت، وكان يَدخل في صناعة السفن لتمتينها، وكان يُنقل إلى مصر لاستعماله في التحنيط. وقد كانت حملات انتيغونس Antigonus السلوقي في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ضد الأنباط ترمي، فيما ترمي إليه، إلى السيطرة على تجارة القار التي كانت حكراً على الأنباط. هذا فضلاً عن السيطرة على تجارة البتراء أصلاً[٤٠].

والسهل الساحلي يمتد من الكرمل نحو غزة في اتجاه جنوبي وفي اتساع تدريجي من نحو مئتي متر إلى قرابة ثلاثين كيلومتراً. هذا السهل تكثر فيه الكثبان الرملية والمستنقعات، ولو أن هذه لم تكن أيام السلوقيين على ما هي عليه الآن. وأجزاء السهل الجنوبية في الداروم وما جاورها أقل رطوبة من الأجزاء الشمالية، ومن ثم فقد كان الشعير يغلب على الأولى إنتاجاً، فيما كانت المنطقة الممتدة من يافا شمالاً أرض القمح والذرة (البيضاء). وكانت يبنا (يمنيا) وعسقلان مركزين لتصدير الشعير، فيما كانت يافا وحصن ستراتون تصدِّران القمح.

وكانت الزراعة المكثفة معروفة في بساتين عسقلان فشهرت بالنخيل (التمور) والكروم (الخمور) والبصل والبقول. أما المنطقة الممتدة من اللد إلى عمواس فكانت تنتج التين الجيد. وكانت السهول الواسعة تصلح لرعي الأبقار كما كان الماعز حيوان المرتفعات الجانبية. وكانت تُقام في عمواس سوق للماشية. ولعلّ صناعة صبغ الصوف في اللد وما إليها كانت مرتبطة بالصوف الذي يُحمل من جبال الخليل ومن منطقة عمواس.

ولما لم يكن لأكثر المدن الساحلية موانىء جيدة، كان دور عسقلان ويافا كبيراً بالنسبة للتجارة البحرية. وكانت كل من غزة وأسدود ويبنا تبعد عن الشاطىء، بحيث انه كان لكل منها مرسى خاص بها. وقد كان المعوّل على بحارة يافا في الأعمال البحرية لا في يافا فحسب ولكن في غيرها أيضاً.

وكان يتوسط هذا السهل الساحلي ـ من الشمال إلى الجنوب ـ الطريق البحري المعروف باسم «فيا مارِس» Via Maris الذي كان يتصل بسوريا (ساحلاً وداخلاً في الشمال) وبمصر (في الجنوب). فكان لهذا الطريق أهمية كبرى بالنسبة للتجارة الدولية. وكانت تُقام عليه أسواق موسمية كثيرة كان أهمها سوق غزة وسوق عسقلان.

وفي الجزء الشمالي من السهل الساحلي كانت الخمور أكبر مصدر للثروة. فخمر الكرمل وخمر شارون وخمر قيصرية كانت مطمع الشاربين. وكذلك كانت قرى متعددة في المنطقة السامرية تنتج كميات من الخمور الجيدة مثل طولكرم (بيرة سوريكا) وكفار سالم. إلى جانب هذا كان ثمة الجوز واللوز من بيت فوريك (بِرِخ) والرمان من بِدّان (خربة فروة في وادي بَيْدان) والكرّاث من جبع (في قضاء جنين). وكانت الخضر والفواكه تُحمل من بساتين السامرة (سبسطية فيما بعد) إلى مدن الساحل. وكان الأُترجّ يزرع في جهات قيصرية. كما كان الملح يُجفف على الساحل قرب مَجْدل مالحة (برج الملح).

أما صناعات السهل الساحلي وبعض الداخل فكانت تشمل الصباغة بالأرجوان في نابلس (نيابولس) Neapolis وقيصرية، والنجارة وصنع الأثاث في قيصرية. وكان سكان قيصرية يستوردون الأسماك من مصر وحتى من إسبانيا.

وقد كانت في الجزء الشمالي من هذا السهل غابة من السنديان. وشجرة السنديان تسمى باللغة اليونانية الكلاسيكية سَرونيس Sarunis، ومنها اشتُقّ اسم السهل شارون[٤١]. ولما جاءت مجموعة من الألمان المتدينين في القرن التاسع عشر وأنشأوا مستعمرة في ذلك السهل على مقربة من يافا سمّوها سرونا.

يبدأ الجزء الشمالي من فلسطين عند جنين، وينتهي عند حدود البلاد في الشمال (الحدود الدولية مع لبنان وسوريا)، وهذا هو الجليل. ويشمل أولاً سهل مرج ابن عامر وجزءاً ضيقاً من غور الأردن ومنطقة بحيرة طبرية والجيوب الساحلية الواقعة بين حيفا والناقورة. ثم يشمل ثانياً مرتفعات الجليل الأسفل وثالثاً جبال الجليل الأعلى.

وإذا نحن استثنينا الجيوب السهلية الساحلية المذكورة فإن ما تبقى من المنطقة صالح للاستغلال. وقد تحدث عن ذلك عدد من كتّاب الفترة التي نتحدث عنها. فيوسيفوس، مثلاً، يقول إنه ليس ثمة قطعة أرض غير مستغلة. والأرض في هذه المنطقة يملكها صغار الملاكين بحيث ان الرجل لا يتجاوز ما يملكه، إلا فيما ندر، حقلاً أو كرماً أو بستان زيتون، ولذلك فإن الاستغلال الدقيق هو صفة الفلاح الجليلي. وكانت تغطّي غابات شجر الخروب سفوح الكثير من المرتفعات.

وتنتج السهول كميات كبيرة من الحبوب. ومرج ابن عامر كان من أكثر أجزاء البلاد إنتاجاً للحبوب. وقد كان هذا المرج من الأملاك المَلَكيّة الخاصة. وكانت غلال المرج تُجمع في مراكز متعددة. وكان خصب منطقة بيسان (بيت شان) مضرب الأمثال. وكانت الحبوب تُزرع في أجزاء كثيرة من الجليل على ما نستدل من آثار البيادر (أماكن درس الحبوب) ومن المطاحن الكثيرة التي عُثر على آثار الكثير منها، وأهمها ما وُجِد في صفورية وعكا وخوارزين (على بحيرة طبرية).

كانت قوافل من الحمير هي التي تنقل قمح الجليل أو قمح غور الأردن إلى صور بطريق الزيب (اكزيب — الواقعة شمالي عكا)، مما يدل على أن تلك الجهة كانت تنتج فائضاً من الحبوب، وكان بإمكانها أن تصدِّر إلى جاراتها. وقد كان أهل الأسواق حريصين على تمييز قمح صفورية عن قمح طبرية مثلاً. (يذكر كاتب هذه الأسطر أن أهل الناصرة كانوا، حتى في العشرينات من القرن الحالي، حريصين على شراء القمح النورسي، الذي كان يأتي من الغور، لأنه قمح يابس، فهو أصلح للتحويل إلى برغل).

وثمة إشارات كثيرة إلى الكرم والخمر في الجليل. فطبرية وصفورية وسخنين وبيسان ومجد الكروم كانت فيها معاصر كبيرة للخمور. ومثل ذلك يُقال في التين وأنواعه التي عُرفت في الأماكن نفسها، وفي غيرها.

ومع ذلك فإن الزيت كان النتاج الأكبر فائدة للسكان. وكان زيت الجليل يُعتبر نقياً (بحسب الناموس) ومن ثم فقد كان اليهود في سوريا وآسيا الصغرى يبتاعونه بكثرة لاستخدامه في طقوسهم الدينية. وقد نقل آفي — يونا عن المشنا والتلمود ما يدل على أن دور الزيت في الحياة الاقتصادية في الجليل يقابل دور الصوف في منطقة القدس، ودور العجول في السهل الساحلي الأوسط. ورُوي أن الكاهن الفقير كان يُعطى قَدراً من الزيتون أجراً على عمله.

إلى جانب هذا جميعه كانت أراضي الجليل، بسبب تنوع تربتها وطبيعة المناخ فيها، تصلح لزراعة أنواع كثيرة من الخضر، وتكاد أكثر البلدان، وحتى القرى الكبيرة، تتمتع ببساتين تقوم في أرباضها، وتزود السكان بحاجتهم من نتاجها. وفي الأراضي المرتفعة قليلاً كان البصل والفول والخيار والقرع والأُتْرجّ والخردل من الأشياء التي تنتج فيها (الأترج في صفورية والخردل في سخنين).

ومنطقة بحيرة طبرية كانت غنية بالقنّب. ومما كان يزرع في غور الأردن قرب بحيرة طبرية البصل والترمس. ومع أن منطقة الغور هنا كانت تزرع النخيل، فالمرجح أن نوع التمر هنا كان دون ما زُرع في بساتين أريحا درجةً وكمّاً. ويُعْتَقد أن البلسم زُرع هنا، ولكن هذه قضية لا تزال تحتاج إلى بحث واستقصاء.

والثروة المعدنية في الجليل ضئيلة، وتكاد تقتصر على الرمال الناعمة حول نهر النعامين (بيلوس) Belus جنوبي عكا. والمرجَّح أن هذا الرمل كان يُرسل إلى صيدا (وإلى طبرية فيما بعد) لاستعماله في صنع الزجاج.

وقد طُوِّرت صناعة الأقمشة، وخاصة الكتان في الجليل في تلك الأزمنة، إلا أنها بلغت الذروة في القرن الثالث للميلاد. لكن الأقمشة العادية كانت تُصنع في طبرية، كما كانت تصنع فيها الحصر والمنتجات الجلدية. وكانت الصباغة تستتبع، بطبيعة الحال، قيامَ صناعة النسيج وصبغ القماش. وقد كانت الصناعة والصناع في الجليل أموراً محترمة. وفي التلمود إشارة إلى الصناعات التي كان يمارسها العلماء ومنها: الكتابة والحياكة والصباغة وصناعة الأحذية والتبليط والخزافة والخبازة والحدادة.

ومن الصناعات المرتبطة بالبحر وبحيرة طبرية التي عُرف بها

أهل الجليل تمليح الأسماك للتصدير. وقد وصل سمك بحيرة طبرية إلى تدمر (بلميرا) Palmyra. وكان صيد الأصداف لاستخراج مادة صباغ الأرجوان يشغل الكثيرين من سكان الشاطىء الممتد من حيفا إلى الناقورة.

ولمناسبة الحديث عن الجليل لنذكر أن أبولونيوس صاحب أرض بيت عناتا (البعنة) في الجليل قد استورد أنصاب (أشتال) الكرم من كيوس إلى مزارعه. وقد أرسل مندوباً (غير زينون) ليكتب له تقريراً عن الوضع. وقد كتب المندوب رسالة إلى أبولونيوس يثني فيها على العمال الذين أتموا نصب ٨٠,٠٠٠ شجرة كرم (لعل المقصود تطعيم البعض ونصب البعض الآخر) وبناء الآبار اللازمة لجمع مياه الأمطار وتشييد أماكن لسكنى العمال. وتشير الرسالة إلى أن الخمرة التي كانت تُعصر هناك جاءت جيدة بحيث لا يمكن تمييزها عن خمر كيوس الايجية(٤٢).

والمنطقة التي تقع إلى الجنوب من بئر السبع حتى خليج العقبة في الجهة الواحدة وحدود مصر في الجهة الثانية هي المنطقة الجافة في فلسطين. ومن هنا جاء اسمها النَقَب (الأرض الجافة)، أمطارها قليلة، إذ لا تتجاوز مئتي مليمتر في السنة، ويبدو أنها كانت دوماً على هذا الوضع (على الأقل خلال العصور التاريخية). ومن ثم فإن ما يمكن أن يُستغلّ من أرضها صغير الرقعة موزع المكان، وكان ذلك يعتمد دائماً على إمكان خزن ما يسقط من ماء المطر في آبار الجمع في الغالب (أما السدود فلم يعثر بعد على آثارها) وتوزيعه بحكمة ودقة. وعلى كل فإن الاستقرار في مواضع في هذه المنطقة كان يرتبط بالتجارة وطرقها. ففي أيام الأنباط كانت المراكز التجارية هنا نابضة بالحياة، إذ ان هؤلاء القوم أحسنوا الإفادة من المياه القليلة التي عثروا عليها في الري وفي المنافع الأخرى، فنجد دورا ومريسة وأبودا (عُبده) ونسّانا Nassana. ويبدو من الآثار التي عُثر عليها أنه كان ثمة حمامات في عُبْده وخانات للتجار حتى خارج المدن.

كانت موانىء فلسطين وفينيقيا ذات أهمية كبيرة لا حربياً بل تجارياً بشكل خاص. إذ كانت النقاط التي تنتهي إليها تجارة عطور البتراء وقوافل أرض الرافدين من الشرق وتبدأ عندها الخطوط البحرية المتوسطية. ونحسب أننا قد قلنا حول هذه النقطة ما فيه الكفاية(٤٣).

أشرنا من قبل إلى دور تجارة الرقيق بين فلسطين ومصر أيام البطالمة. ونضيف الآن أمرين: الأول أن بطليموس الأول (٣٢٣ ــ ٢٨٢ق. م) اعتبر عدداً من أسرى اليهود الذين حملهم معه إلى مصر رقيقاً. وقد بيع اليهود رقيقاً حتى في بلاد اليونان، وذلك في وقت مبكر من فترتنا. والثاني هو أن الاتجار بالرقيق بين مصر وفلسطين لم يتوقف لمجرد انتهاء السلطة البطليمية في فلسطين، بل استمر بعد ذلك. وكان تجار الرقيق من اليونان الذين يسوّقونه في المنطقة ينقلون السلع إلى البتراء وبلاد العمونيين وغير ذلك، فضلاً عن مصر.

وقد ورد في يوئيل (٣: ٤ ــ ٨) إشارة واضحة إلى استرقاق اليهود، إذ نقرأ: «لأنكم أخذتم فضتي وذهبي وأدخلتم نفائسي الجيدة إلى هياكلكم وبعتم بني يهوذا وبني أورشليم لبني الياوانيين لكي تبعدوهم عن تخومهم!». وفي سفر المكابيين الثاني في الترجمة اليسوعية (٨: ١٠ ــ ١٢) ترد إشارة لا إلى بيع اليهود فحسب، ولكن إلى تسعيرهم: «كل تسعين رقبة بقنطار». ويبدو في هذه الإشارة الأخيرة الفينيقيون كأنهم وسطاء هذه التجارة الخارجية.

وكان لفلسطين (وفينيقيا معاً) دور كبير في تجارة العبور (الترانزيت) على ما مر بنا. ولنذكر سلعاً لم نشر إليها من قبل. كانت ترد من آسيا الصغرى وبلاد اليونان الوسائد والأغطية (للفرش) والفرش والشراشف (الملايات) إلى مصر وفلسطين وفينيقيا، إلا أن التبادل بين التجار اليونان والتجار المشارقة كان يتم في ميليتوس Miletus وهَليكَرْناسوس Halicarnassus وغزة وعكا وحتى في عمان، المركز التجاري الداخلي على طريق البتراء دمشق(٤٤).

وكان كثير من هؤلاء التجار العالميين من فلسطين، وكانت لهم مراكز مستقرة ثابتة في ديلوس ورودس وبيوت تجارية تُعنى بمتاجرهم الفنية. وكان للصيداويين دور خاص في تجارة فلسطين يومئذٍ. فقد أقام هؤلاء التجار مستوطنة تجارية ناجحة في مريسة (تل صندحنّة) في النقب. وبحكم موقع مريسة على الطريق الموصل بين غزة والقدس وبين عسقلان والخليل وبين البتراء والساحل، أفاد هؤلاء التجار الصيداويون من ذلك ليحصلوا على المتاجر في الطريق بدل الانتظار حتى الوصول إلى محطات النهاية. وكانت لهم «جماعة» خاصة (بوليتويما) Politeuma في مريسة. ولكن يبدو أن هذه الجماعة التحمت تدريجاً بنبلاء مريسة، واستمتعوا معاً بحياة رخاء وثراء، واتخذوا اللغة اليونانية وسيلة تخاطب وتقبلوا الحضارة الهلينية.

وفي الوقت ذاته تقريباً أنشأ الصوريون لهم مستوطنة مماثلة في عمان (ربة عمّون التي سماها البطالمة فيلادلفيا). وهذه كانت محطة على طريق تجار الخليج العربي والجزيرة وسوريا. ومما يدل

على اتساع نطاق التجارة الخارجية وتنوع مواردها وموادها الجرار الخزفية المدموغة التي كانت تأتي من رودس إلى فلسطين وفيها الخمور اليونانية التي كانت لها سوق رائجة في البلاد.

لسنا نريد أن نكرر ما قلناه عن البلسم والقار. لكننا نود أن نشير إلى أن هناك ذكراً لزراعة البردي في فلسطين، وأن المحاولة كانت في منطقة بحيرة طبرية. لكن الظاهر أن المحاولة لم تنجح. وبهذه المناسبة فقد كان ثمة محاولتان من هذا النوع في أول عهد الدولة العباسية، الواحدة في فلسطين والثانية في جنوب العراق، ولكن التجربتين لم تنجحا فيما نعلم(٤٥).

٨ ـ المصارف والنقد:

جدير بنا أن نضع أمام القارىء بضع ملاحظات قبل التحدث عن المصارف والنقد.

أولاً: إن فتوح الاسكندر ضمت مناطق كانت من قبل تتاجر الواحدة منها مع الأخرى بحيث تكون شريكات في التجارة الخارجية في وحدات سياسية متعددة، فأصبحت هذه المناطق تتعامل واحدتها مع الأخرى داخل هذا الإطار الجديد. وانتقلت المدن التي كانت من قبل مستقلة إلى أن أصبحت مراكز تجارية رئيسة في الكيان الجديد ـ مثل أثينا وميليتوس وديلوس ورودس والاسكندرية وغزة وعسقلان ويافا وصور وغيرها. ولنستبق الحوادث قليلاً فنقول إن إنشاء الامبراطورية الرومانية، عندما يُنظر إليه من هذه الزاوية، نجد أنه وسّع الرقعة السياسية ومن ثم التجارية. فأصبح لا الحوض الشرقي للبحر المتوسط وحده وحدة، ولكن أصبح البحر المتوسط كله مع المشرق العربي وغرب أوروبا وحدة سياسية اقتصادية. وفي هذه الحالة فإن المهم أن سبل التعامل تبسطت والحاجات الضرورية أصبحت أيسر تناولاً في العالمين الهلينستي والروماني.

ثانياً: كان النقد، الذي يعود بدء سكّه واستعماله إلى القرن السادس قبل الميلاد، مشوشاً مضطرباً بحيث لم يكن من اليسير إجراء الحسابات التجارية على أساس من النقد يختلف من مكان إلى آخر. وقد كانت واحدة من نتائج فتوح الاسكندر إدخال شيء كثير من التنظيم، من حيث مادة النقد وأساسه وقيمته. صحيح أن الدول الهلينستية لم تسر جميعها على قواعد الاسكندر باستمرار، لكن التنظيم أصبح أساس التعامل. ولما جاء الرومان قاموا هم أيضاً بإجراء تنظيم جديد، هو الذي استمر حتى القرن الثالث للميلاد. وهكذا فإن إنشاء الامبراطوريتين كان عاملاً تنظيمياً للعلاقات النقدية.

ثالثاً: كان من آثار قيام امبراطورية الاسكندر (ثم الامبراطورية الرومانية فيما بعد) أن نشأ نظام التعامل المصرفي. فقد كانت خزينة الهيكل أو الملك الشيء الوحيد المعروف فيما يمكن أن يسمى مصرفاً. لكن العصر الهلينستي شهد إنشاء مصارف في المدن التي مُنحت حق سك النقود، فضلاً عن إنشاء مصارف خاصة (قطاع خاص). وقد أُنشئت هذه الأخيرة بسبب المتاجرة المبنية على تبديل النقد. وقد كانت أعمالها على درجة عالية من التنوع. فمع أنها تابعت خطها الأول وهو تبديل النقود (الصرافة)، تطورت المصارف الخاصة فأصبحت بيوتاً مالية دولية تقوم بتصفية الحقوق المالية. يضاف إلى ذلك أنها احتفظت بالحسابات لزبائنها، كما قبلت الودائع سواء لمدة قصيرة أو طويلة، وبفائدة أو بدون فائدة، وتولت تسديد الفواتير، كما تقدمت للزبائن بالقروض، وقبلت الرهونات. ويجب أن نعود قروناً طويلة إلى الوراء لنتصور أثر مثل هذه الأمور لما بدأت، فنحن الآن نعتبر هذه القضايا أمراً مألوفاً.

قامت المصارف في المدن التجارية جمعاء، لكن أثينا ظلت المركز المصرفي الرئيس للعالم القديم. وقد كانت بعض الهياكل تقوم، عن طريق خزينتها، بأعمال مصرفية. وقد كان هيكل أبولو Apollo في جزيرة ديلوس أشهرها. وقد تنبه البطالمة إلى ثروة هيكل أبولو الطائلة فاستعملوه واحداً من مصارفهم المركزية. وقد تابعت كل من رودس ومقدونيا وروما على استعمال معبد أبولو للغاية نفسها. ولم تكن خزانات الهياكل تعنى بالشؤون التجارية، بل كانت تعمل على استيداع الأموال والحفاظ عليها. ويعود ذلك إلى أن الهياكل كانت تُعتبر أماكن لا يجوز الاعتداء عليها، لذلك تكون الأموال فيها آمنة. أما المصارف التجارية فلم تقتصر على مدن معينة أو موانىء مشهورة في حوض البحر المتوسط، بل كانت تقوم على طرق القوافل. وقد كان العمل الأساسي لهذه المصارف إعداد قوافل جديدة وتمويلها، لأن القوافل كانت عادة تنقل المتاجر لمسافة محدودة. ومن المصارف الخاصة الكبيرة في العصر الفارسي مصرف «اخوان موراشو» Murashu Bros. في بابل.

وقد طوَّر البطالمة نظاماً مصرفياً فريداً في مصر. فقد كان نظام المصارف هناك مركزياً تماماً شأن نواحي الاقتصاد الأخرى. وقد قامت الخزينة الملكية بدور المصرف المركزي (الرسمي)، وكان له فروع في جميع أنحاء القطر. وقد لا تكون هذه الفروع تختلف عن مكاتب المالية المحلية. وقد استعمل المصرف «الوثائق المكتوبة» فقط. وبما ان المصارف المحلية (الفروع) كانت أعضاء في النظام المركزي، والذي كان بدوره جزءاً من الإدارة

المركزية الملكية، أصبح الدفع (أو القبض) بواسطة الصك (الشك) أو تجيير الحساب بواسطة المصرف الأسلوب العادي للتعامل النقدي (المصرفي). وقد أخذ النظام المصرفي الروماني عناصر من هذا النظام البطليمي. لكن المصرفية الرومانية هي التي أدخلت أسلوب التقييد المزدوج في النظام المصرفي(٤٦).

من المفارقات التي يسجلها التاريخ بالنسبة للتطور الحضاري الذي شهده الإنسان منذ أن بنى أول بيت وأقام أول حصن وأنشأ أول سور وحرث الأرض لأول مرة وسقى الزرع من ماء جره في قناة لأول مرة ــ وكان ذلك قبل آلاف السنين ــ حتى القرن السادس قبل الميلاد هو أن هذا الإنسان لم يخترع النقد. ونحسب أنه لم يخترع النقد لانه لم يجد حاجة إليه حتى مع توسع نطاق التجارة في الامبراطورية القديمة. فلا المصريون القدامى ولا الآشوريون العنيفون ولا البابليون المتشرعون ولا الفرس المدبرون خطر لهم أن يجدوا سبيلاً لتقييم ثمن السلع التي يتبادلها الناس. كانت المقايضة هي سبيل التبادل. وفي بادىء الأمر كانت مقايضة مباشرة: غنم بقمح وتمر بقماش وهكذا دواليك. ثم لما تنوعت الحاجيات وأصبحت الكميات ضخمة بحيث أصبح التبادل المباشر مستحيلاً، لجأ الإنسان إلى استخدام قطعة من المعدن، هي من الذهب أو الفضة للكميات الكبيرة المتبادلة؛ وكان لهذه القطعة وزن معين وشكل كعكي أو ما يشبه ذلك، وهذه كانت الواسطة. وإذ لم يكن ثمة أية ضمانة في أن تكون صافية ــ أي ذهباً خالصاً أو فضة خالصة ــ فقد تؤخذ قطعة صغيرة منها لفحصها. ومن طريف ما يروى عن النقود أنه بعد أن اخترعت النقود، وأصبحت أمراً مألوفاً في شرق البحر المتوسط، حملت قطعة من النقد الفضي التي تساوي أربع دراخمات إلى المناطق الشرقية. قطعة النقد هذه كانت معروفة في أثينا وفي المناطق التي ألفتها. لكن محيطها الجديد لم يكن قد تعرّف إلى ذلك بعد، فلا النقش ولا الكتابة عليها كان لها أية دلالة. لذلك عولجت كما لو كانت قطعة معدن، فانتزع جزء منها للفحص، ثم انتزع جزء آخر لأن وزنها كان يزيد عما ألفه الناس.

وعلى كلٍ فقد كان من حظ البشر أن اهتم أهل ليديا، في غرب آسيا الصغرى بوجوب اتخاذ وزن معين من الذهب أو الفضة على أن تُختم القطعة ويُنقش عليها ما يدل على قيمتها ومكان ضربها، كي تُقبل. وتم ذلك في السنوات السابقة لسنة ٦٠٠ ق. م على ما ذهب إليه الباحثون، ولو أن استعمال النقد بشكل واسع نسبياً لم يتم إلا حوالي سنة ٥٥٠ ق. م.

وأخذت المدن الفينيقية تسك النقود، كما سكّت غيرها. والذي نعرفه هو أن فلسطين استعملت النقود منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد. وقد سُكّت نقود في دار الضرب في غزة قبل سنة ٤٠٠ق. م. كما ضربت النقود في بيت المقدس نفسها في القرن الرابع قبل الميلاد. وثمة أمران يجب أن يُذكرا هنا أولهما أن النماذج التي كانت تُحتذى هي النماذج اليونانية، وثانيهما أن النقوش بحد ذاتها كانت بالآرامية. وكانت فلسطين تعتمد على الفضة المستوردة من بلاد اليونان لسك نقودها(٤٧).

في سنة ٣٣٢ق. م. جاء قضاء الاسكندر على الامبراطورية الفارسية. وقد جاء مع فتوحه القضاء على الفوضى الكبيرة التي أصابت النقد، حين كان لا ضابط في الوزن ولا قيد فيما يتعلق بنقاء المادة. وكان من أول ما فعله في سبيل ذلك إنشاؤه داراً للضرب في عكا (بطوليمايس) التي سكّت أول نقد باسمه. وكانت القطعة كبيرة الحجم كي تنتشر في المشرق وقيمتها أربع دراخمات. وكانت الفضة معدن النقد كما كانت القاعدة الأتيكية (نسبة إلى منطقة أتيكا اليونانية) أساساً له. وهكذا استن الاسكندر استعمال الفضة للنقد في دولته. والمهم أنه باستثناء فترة قصيرة في أول عهد خلفائه بالحروب فيما بينهم، كان من الميسر الحصول على الفضة اللازمة لسك النقود للاستعمال في هذه الامبراطورية الواسعة. وظل الأمر كذلك إلى أواخر العصر الهلينستي، إذ شحت موارد الفضة من المناجم، وأكثر الناس من خزن الفضة نقوداً وأشياء أخرى، وكانت رومة تفرض غرامات حربية كبيرة على الدول الشرقية، فاتجهت الفضة إلى «مخزن» واحد بدل أن تكون سبيل التبادل.

وكانت المؤسسات الرسمية والمدن المستقلة والمنظمات السياسية، مثل الأحلاف، هي التي تقوم على سك النقود، وذلك بإذن من السلطات الرئيسة. لكن السياسة النقدية بالذات ظلّت من الأمور التي تعالجها الدول والمدن الكبرى.

وقد قبل المجتمع الهلينستي ما استنه الاسكندر إلا مصر. فإن بطليموس الأول (حوالي ٣٢٣ ــ ٢٨٢ ق. م)، الذي قبل النهج الاسكندري أولاً، خرج عنه في أواخر عهده بالحكم. فأنقص الوزن فعادت النقود إلى الوزن الفينيقي (في أيام الفرس) وتلاعب بالأساس الأتيكي. وقد سُكت هذه النقود الفضية في المدن الفينيقية، التي كانت تابعة للبطالمة أصلاً (ويبدو أن البطالمة قبلوا بهذا النقد حتى بعد أن خرجت فينيقيا عن طاعتهم) واستعملت خارج مصر. أما في مصر فقد استن بطليموس استعمال نقود نحاسية، ولم يكن هذا غريباً على المصريين، فقد ألفوا استعمال النحاس أساساً للمقايضة والتبادل من قبل. وسك

أصحاب الأمر في مصر نقداً ذهبياً كان يستعمل في التجارة الخارجية وفي تقديم المساعدات للدول الأجنبية. وهكذا فقد كان في مصر نقد ثلاثي الأصول: الذهب والفضة والنحاس، لكن كان لكل نوع مجال أرضي محدود، ومجال استثماري معروف[٤٨].

أما السلوقيون فلم يخرجوا عن قاعدة الاسكندر. فاحتفظوا بقاعدة الفضة على الأساس الأتيكي. وقد ضُربت نقود ذهبية ونحاسية أيضاً بكثير من الحرية، واستعملت كذلك، وتم ذلك في دور الضرب الملكية بالنسبة للذهب والفضة، وكان استعمالها شائعاً في أنحاء المملكة الواسعة، أما النقود النحاسية، التي سُكّت في مراكز متعددة، فقد كانت تستعمل في السوق المحلية. وقد منح انطيوخس الرابع (١٧٥ ــ ١٦٤ ق. م) عدداً من المدن حق سك النقود. ومع أن السياسة النقدية كانت تمنع تداول نقد أجنبي في الأسواق الداخلية السلوقية، فإن الاستثناءات كانت تتبع بعضها البعض دون اهتمام أو مراعاة للقوانين.

وإذا توقفنا قليلاً عند الذي حدث في فلسطين وجدنا أن النقد الذي كان يُقبل في الدولة السلوقية كان هو السائد. لكن المؤرخ لا يمكنه إلا أن يتذكر موقف الجماعة الدينية في بيت المقدس من هذه الأمور. ويبدو أن المكابيين لم يتخلوا عن استعمال النقد الرائج، لكن في أيام اسكندر يانيوس (١٠٣ ــ ٧٦ ق. م) سُكت نقود برونزية في بيت المقدس، وكان النقش عليها باليونانية والعبرية. وهيرودس (٣٧ ــ ٤ ق. م) سك نقوداً نقشها باليونانية واستلهم رموز ملوك سوريا القدامى في رسومه. أما غزة فقد استمرت تسك نقودها.

وقد سَكّت رومة النقد من الفضة في القرن الثالث قبل الميلاد. وفي أيام اغسطوس (٢٧ ق. م ــ ١٤ م) عرفت الامبراطورية نقداً ثلاثي القاعدة المعدنية ذهباً وفضة ونحاساً ــ الأَوْرِوُس aureus والدينار dinarius والأس as. وظل هذا هو النقد المعمول به، وهو الذي دخل فلسطين لما أصبحت فلسطين ولاية رومانية.

أما وقد عرضنا للنقد وسكه وضربه تاريخاً، فلنقرر الأمور المتعلقة به واقعاً. وأول ما يجب أن نعرفه هو العلاقة بين النقد وأجزائه في مجالين (على الأقل) اليوناني والروماني، كي نتمكن من المقابلة والمقارنة بالنسبة لفلسطين، التي عرفت النقدين مع تشعباتها. والجدولان التاليان يوضحان هذا:

النقد اليوناني:

وزنة واحدة (ليست نقداً بل مجرد وزن من الفضة عادة) = ٦٠ مَنّاً.

المن الواحد = ٥٠ استرا staters من الذهب.

استر واحد = دراخمتين (درهمين) من الفضة.

دراخما واحدة = ٦ أوبول obol من البرونز.

النقد الروماني:

أَوْرِوُس (ذهباً) = ٢٥ ديناراً dinarius فضة.

سسترتيوس sestertius واحد = اثنين من دوبندي dupondii.

دوبنديوس واحد = أَسَيْن (اثنين) 2 asses.

أس واحد = ٤ أرباع 4 quadrants.

وبالمقارنة نجد أن:

دراخما واحدة = ديناراً واحداً.

ويمكن أن نضيف إلى هذين الجدولين القصيرين أن قطعة النقد المسماة ترادراخما tetradrachma ومعناه (الأربع دراخمات) كانت شائعة لأنها تيسر التعامل التجاري بالجملة في الأسواق الموسمية إذا اقتضى الأمر الدفع المباشر. فهذه الأسواق لم تتعامل بالذهب[٤٩].

هذا النشاط الاقتصادي ــ في ظواهره الزراعية والصناعية والتجارية ونظامه النقدي وتنظيمه المصرفي الذي بدأ في القرن الثالث قبل الميلاد ــ أصابته، في القرن الثاني قبل الميلاد، أزمة اقتصادية شملت لا فلسطين وحدها بل منطقة البحر المتوسط بأسرها. ويرجعُ الباحثون هذا الركود والأزمة التي رافقته إلى الحروب العنيفة والكثيرة والطويلة التي قامت بين الأسَر والأقطار. فقد خربت هذه أشياء كثيرة. وإذا تذكرنا الحرب المكابية وحدها لا نستغرب أن ينتهي الأمر بتحطيم المرافق الاقتصادية في فلسطين بالذات. وهناك أيضاً سبب آخر يعود إلى نقص في الكميات التي كان يُحصل عليها من الفضة في المناجم. وبسبب ما فرضته رومة على الدول والمدن والحكام الذين تغلبت عليهم من غرامات مادية ذهبت النقود إلى رومة، ولم يعد في الأسواق من السيولة ما يكفي للتعامل الفعال.

وثمة من يرى أن الوحشية التي هاجمت بها رومة دول العصر الهلينستي وقضت عليها الواحدة بعد الأخرى هي المسؤولة أولاً وآخراً عن الأزمة الاقتصادية[٥٠].

٩ ــ الهلينية وفلسطين:

أشرنا، في أكثر من مناسبة واحدة، إلى ما عرفته فلسطين من عناصر الحضارة الهلينية قبل فتوح الاسكندر أولاً، وبعدها، أي خلال حكم البطالمة وأوائل العهد السلوقي حتى ثورة المكابيين

ثانياً. وأشرنا إلى المدن التي بُنِيت من جديد، أو التي طُبِّعت لتكون مراكز للجند والمهاجرين والتجار وما إلى ذلك، مع ما كان يترتب على ذلك من إنشاء المؤسسات المرتبطة بالمدينة في ضمير الفكر اليوناني وبطريقة تصرّف الشعب اليوناني سياسياً.

وهَلْيَنَة بلاد الشام كانت أصلاً عملية تمدين؛ فقد قبس الناس الأساليب المعاشية اليونانية، واللغة اليونانية أصبحت لغة المثقفين لا في المدن والمستوطنات التي أُنشئت لليونان والمقدونيين فحسب، بل وحتى في مدن فينيقيا القديمة، وفي القدس. ومع أن القدس كانت فقيرة، إذا قورنت بالمدن الساحلية في فلسطين وفينيقيا، فإن القدس بالذات كانت فيها حركة فكرية قوية، كانت المدارس الحِكَمية مأواها ومستقرها. وكانت هذه الحركة تتقوى بالاتصال المستمر مع اليهود الذين ظلوا في بابل ومع اليهود الذين رحلوا إلى مصر فيما بعد والموجودين في سوريـا. وكان عـدد لا يستهان به يأتي إلى المدينة المقدسة للزيارة والحج، كما أن نفراً من هؤلاء كانوا يستوطنون القدس. فهذا الجو الفكري المتصل بغيره، والذي يعرف الانفتاح، ولو نسبياً، كان من الممكن إثارته وتقويته ليتقبل عناصر الهلينية الأصلية. وفضلاً عن ذلك، فقد كانت ثمة علاقات وثيقة قائمة باستمرار بين سكان البلاد، وعلى الأخص أهل الطبقة العليا، إذا جاز التعبير، وبين الموظفين والوكـلاء التجاريين الذين كانوا يمثلون الدولة البطليمية، على نحو ما عرفنا عن زينون وجماعته الكبيرة خـلال زيارتـه الطويلة لفلسـطين (٢٥٩ ـ ٢٥٨ ق. م). ولنتذكر أيضاً ما لا يقل عن مئتي حملة عسكرية مـرت عبر فلسـطين أو قاتلت فيهـا بين سنتي ٣٢٣ و٦٣ ق. م[٥١].

وما حدث في مريسة، وهي مدينة في النقب، من تمازج واختلاط اجتماعي وثقافي ‹وتجاري› بين الجوالي اليونانية والفينيقية واليهودية مع سكان البلاد الأدوميين، بحيث أصبحت المدينة هلينستية تماماً، يوضح لنا تماماً كيف كانت تنتقل عناصر الحضارة الهلينية إلى سكان البلاد، وكيف كانت تقبل، عندما يسمح لها أن تعمل بحرية. وكانت ثمة تجربة ثانية حيث كانت تقوم مستوطنة فينيقية أخرى في موضع شكيم (نابلس). وقد أصابها ما أصاب مريسة تقريباً.

وقد بدأ التَهَلْيُن بين اليهود باتخاذهم أسماء يونانية (أو أسماء مـزدوجة يـونانيـة ويهوديـة) مثل منـلاوس وياسـون وانتيبـاتـر أو اسكندر ـ يانِيُوس؛ ثم استعملوا اللغة اليونانية في حياتهم العامة. وتلا ذلك التزاوج بين الفريقين؛ ولم يتأخر تقبل الثقافة الهلينية بكاملها كثيراً. فجاءت بالجمنازيوم ومؤسساته الرياضية المتنوعة والألعاب بالذات والمحاضرات والدروس التي كانت تلقى فيه على ما يبدو. ومع أن الهلينية نفسها قد تشرّقت إلى درجة كبيرة، فقد ظل لها لونها الثقافي المميز. ذلك أن أكثر تشرقها كان في المجال السياسي، أي النظرة إلى الملك الهلينستي[٥٢].

ويبدو أثر الفكر اليوناني في الأدب العبري الديني وغيره، في كتاب كوهِلوت Koheloth، وفي سفر يشوع بن سيراخ، وفي الأدوات الموسيقية الوارد ذكرها في سفر دانيـال، وفي التلمود فيما بعد.

ولعل من أطرف ما ورد في الأدب اليهودي في ذلك هو هذه القرابة التي اختلقها اليهود، وذلك في القرن الثاني قبل الميلاد. فقد كتب يوناثان الكاهن الأعظم (١٥٢ ـ ١٤٣ ق. م) إلى أهل إسبارطة يقول ان أهل إسبارطة أخوة لليهود، ويشير إلى رسالة مصطنعة قديمة من إسبارطة يعترف ملكها بذلك. ويقول الكاهن الأعظم انه يذكر أهل إسبارطة دوماً في صلواته. وخلاصة هذه الدعوة أنه وُجِدَ في بعض الكتب (؟) أن الأسبارطيين واليهود أخوة من نسل إبراهيم. وفي مكان آخر يقول واضعـو الأسطورة ان العالم تعلّم الحكمة من اليـونان، واليـونان كـانوا تـلاميذ الاسبارطيين في الحكمة. لكن الاسبارطيين أصلاً تعلموا الحكمة من إبراهيم لما اجتمعوا به في مكان ما في شمال أفريقيا، لعله ليبيا. والذي أرادت الأسطورة أن تقوله هو أن شعوب العالم جميعها تعلّمت الحكمة من اليهود!

فضلاً عن الموضوعات التي تأثر فيها الأدب العبري بالأدب والفكر الهلينستيين والتي تم التعبير فيها باللغة العبرية، فقد انتقل بعض اليهود وغيرهم إلى الكتابة باللغة اليونانية. فمن ذلك النقشان اللذان عثر عليهما الباحثون، وهما مكتوبان شعراً. وُجِد أحدهما في غزة (الثاني عُثِر عليه في صيدا) ويعود إلى حوالي سنة ٢٠٠ق.م. وهو في رثاء ضابطين بطليميين وأفراد عائلتيهما. (أما النقش الصيداوي فقد قُصِدَ منه تكريم بطل رياضي اسمه ديوتيموس Diothemos نجح في سباق العربات في أرغوس Argos ببلاد اليونان).

وقد حفظ لنا التاريـخ أسماء عدد من أهل الفكر من غير اليهود الذين كتبوا باليونانية منهم، من مدينة جَدَرَة (من المدن العشر وتقـع في شرقي بحيرة طبرية وهي أم قيس الحالية)، فيلوديموس Philodemus الفيلسوف الأبيقوري، وميلياغر Meleager الشاعر، ومنيبـوس Menippus الشاعر الساخر وثيودورس Theodorus البلاغي.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد أصبحت عسقلان مركزاً فكرياً

هاماً، وظهر فيها عدد من الكتّاب الكبار: من الفلاسفة أنطيوخس Antiochus وسوسُس Sosus وأنتيبيوس Antibius ويوبيوس Eubius؛ ومن رجال النحو والبلاغة بطليموس Ptolemy ودوروثيوس Dorotheus؛ ومن المؤرخين أبولونيوس Apollonius وأرتيميدورس Artemidorus. ولعلّ أبرز هؤلاء المفكرين كان أنطيوخس (١٣٠ ـ ٦٨ ق. م) الذي كان يشار إليه 'بالعسقلاني'. وهناك أيضاً أبولونيوس Apolonius العكّي[٥٣].

وحري بالذكر أن صيدا خرج منها في القرن الثاني قبل الميلاد أنتيباتر Antipater الشاعر، وزينون Zeno الفيلسوف ومؤسس الفلسفة الرواقية، وبويثوس Boethus. وأنجبت صور، فيمن أنجبت هرقليتوس Hericlitus الفيلسوف وأبولونيوس Apollonius الذي كان أول من أرّخ للفلسفة الرواقية.

ونحن إذا أخذنا هؤلاء المفكرين بمجملهم وجدنا أن أكثرهم، إن لم يكن جميعهم، هم من أبناء البلاد: من فلسطين وفينيقيا أو بقية أجزاء سوريا. فهم ليسوا يوناناً أو مقدونيين. والشعراء منهم على الخصوص يخلطون في نتاجهم الأدبي بين النثر والشعر، حتى في العمل الأدبي الواحد. وفي شعرهم مسحة غنائية قوية. ويمتاز منيبوس بأنه تخيل رحلة في العالم السفلي، ورأى هنا الهول والشياطين، وتحدث إلى مَن قابل، وأتم رحلته بأن انتقل إلى السماء، وهنا كانت أحاديثه مع الآلهة. ومع أن آثار منيبوس فُقدت، فقد حفظ لنا محتواها لوسيان Lucian السميساطي (وسميساط المنسوب إليها كانت مدينة على الفرات الأوسط).

ومن أطرف ما جاء في شعر ميلياغر ادعاؤه أن هوميروس كان سوري الأصل. ومع أن انتيباتر الصيداوي قال بأن هوميروس له بلد واحد هو السماء، وأن أمه كانت إلهةً، فإن ذلك لم يُرض الذين كانوا يؤيدون ميلياغِر.

ونكتفي بهذه الإشارة العامة إلى هذا الموضوع كي نبيّن أن المفكرين من أبناء البلاد لم يكونوا بمعزل عن الثقافة التي كانت منتشرة، أو التي كانت تنتشر في البلاد. حتى ان أشعار هوميروس كانت معروفة لدى كثير من المعلمين والمتعلمين. وهو تقليد بدأ في القرن الثالث قبل الميلاد ونما ونضج في القرن الثاني قبل الميلاد، فكان هذا الأدب والفكر نتيجته.

وقد كتب كثيرون من المفكرين اليهود أيضاً باليونانية. وفي مقدمة هؤلاء 'السامري المجهول' الذي وضع مؤلفه في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد. ومع أنه يوصف بالمؤرخ، فهو، في واقع الأمر، لم يدوّن تاريخاً بأي معنى للكلمة. هذا الرجل أراد أن يمجّد إبراهيم، فحاول الجمع بين ما جاء عنه في العهد القديم وما دونه الآخرون، مثل بروسوس Berossus الكاهن البابلي، وما روته الأسطورة. فخرج بشخصية لإبراهيم تتسم بالبطولة والعظمة. لكنه، أي المؤلف 'المجهول'، أراد أن يعظّم العبرانيين في شخص إبراهيم: إذ يصل إلى نتيجة غريبة وهي أن إبراهيم هو الذي علّم المصريين والفينيقيين الحكمة؛ وأن الفينيقيين هم معلمو اليونان (ويبدو أن إبراهيم قد اتصل بالإسبارطيين في ليبيا أيضاً وعلّمهم) وإذن فكل شيء ينبع من عند العبرانيين!

وقد سار في أعقاب هذا الكاتب اثنان يهوديان إسكندرانيان هما أرستوبولس Aristopollus وأرطَبانوس Artapanus، وكان لهما دور في نشر هذه الأسطورة الإبراهيمية بين قرّاء اليونانية يهوداً كانوا أم غير ذلك. وثمة مؤرخ، أو على الأصح شبه مؤرخ، يمكن أن يُضم إلى هذه المجموعة هو يوبوليموس Eupolemus. وقد تبنّى يوبوليموس موسى فاعتبره أول رجل حكيم عرفه العالم. وتتم حلقات السلسلة على أساس أن موسى علّم الحكمة للفينيقيين وهم كانوا معلمي اليونان. وتعود القصة إلى أن كل حكمة في الدنيا مصدرها العبرانيون. والفرق هو بين بطولة إبراهيم (على أيدي السامري المجهول) أو بطولة موسى (على أيدي يوبوليموس).

ولعلّ أقرب الكتّاب إلى المؤرخ الصحيح هو يانوس القيريني (الليبي)، الذي يُعْزى إليه تلخيص سفر المكابيين الثاني عن عمل أكبر[٥٤].

إلا أن الكتابة التاريخية التي ظهرت في فلسطين وكانت باللغة اليونانية كان ممثلوها ثلاثة هم من أهل النصف الثاني للقرن الأول للميلاد والقرن الثاني للميلاد. وهم يوستوس Justus الطبراني ونقولاوس Nicolaus الدمشقي صديق هيرودس ومؤرخه ويوسيفوس Josephus المقدسي.

وهناك أدب دُوّن باليونانية في الفترة الهلينستية المتأخرة عُرف باسم (أدب الحكمة). ويمثل هذا الجنس من الأدب كوهِلوت (وهو اسم مستعار)، الذي وضع مصنفاته في الفترة الواقعة بين ٣٥٠ و ٢٧٠ ق. م ويشوع بن سيراخ الذي ألّف سفره بين ١٩٠ و١٧٥ق.م وقد نقله حفيده إلى اللغة اليونانية في السنوات الأخيرة من القرن الثاني قبل الميلاد.

ومن الأمور الجديرة بالعناية والتي حدثت في العصر

الهلينستي أن اللغة العبرية تقلّص استعمالها في الشؤون العامة، وكادت أن تقتصر على الأمور المتعلقة بالأدب والشريعة والطقوس الدينية. وقد شاع، في مقابل ذلك، استعمال اللغة الآرامية بين الناس حتى ان يوسيفوس المؤرخ اليهودي كانت الآرامية لغته المنزلية. على أن اليونانية التي كانت أصلاً لغة الإدارة والتجارة والفكر أخذت تشق طريقها مقدمة لأن تصبح لغة التخاطب بين أفراد النخبة. ودائرة النخبة كانت تتسع تدريجاً، وذلك بسبب المدارس التي كانت موجودة في كل مدينة وبلدة في فلسطين و فينيقيا.

إن الاستقرار الذي عرفته فلسطين في أيام البطالمة (في القرن الثالث قبل الميلاد) كان له أثر في التأكيد على أهمية التوراة، بالنسبة لليهود، من حيث انها هي المصدر الوحيد للنواحي الشرعية والطقسية. والتوراة المقصودة هي التي وُضِعت بشكلها النهائي (أو شبه النهائي) أثناء الحكم الفارسي للبلاد، ومن هنا اعتُبر أن أي تبديل في مضمونها هو شرٌ لا يجوز السماح به. ولما كانت تقوية مركز التوراة وطقوسها وتنظيمها تقتضي أن تكون المؤسسة المشرفة على تطبيق نصوصها قوية، كان من الضروري أن يتقوّى مركز الكاهن الأعظم، وخاصة الناحية الوراثية. وبسبب هذا الازدياد في أهمية المنصب أصبح موضع منافسة قوية بين الطامعين في النفوذ بالنسبة للجماعة الدينية في بيت المقدس[٥٥].

والحضارة الهلينية نضجت في القرن الثالث قبل الميلاد، الذي تم فيه التحاك بين الشعوب والحضارات على نحو كبير. ولذلك فالنتيجة الطبيعية هي أن هذه الحضارة لم تكن ذات صيغة واحدة أو طبيعة واحدة (على ما نحاول أن نقرأه عنها ونتقرّاه اليوم بعد ألفين من السنين)، بل لعلّ الخير فيها أنها لم تكن كذلك، وما كان لها أن تكون كذلك. فهي نتاج تجربة مرت بها هذه الشعوب المتباينة الآراء، وصاحبة التقاليد المتنوعة والخبرات المتعددة.

وقد انصرف الباحثون إلى دراسة هذه النواحي والاتجاهات التي عرفتها فلسطين في العصر الهلينستي، أي حتى وصول الرومان إلى البلاد. ويعود سبب هذه العناية الجديدة إلى اكتشاف ‹مخطوطات البحر الميت› الأمر الذي استمر من سنة ١٩٤٧ وحتى سنة ١٩٦١. ودرس هذه المخطوطات لم يتوقف بعد، ونحسب أنه سيستمر فترة طويلة من الزمن[٥٦].

هذه المخطوطات عُثر عليها في قمران وكهوف باركوسيبا ومسّادة وغيرها. وقد أطلق عليها فرمس Vermes اسم «مكتبة قمران»، ورتب موادها في أربع مجموعات هي: القوانين؛ والنصوص الشعرية والابتهالية والحكمية؛ والتعليقات التوراتية؛ والمتنوعات. ومع ذلك فإن الذي كتبه هذا الباحث هو الشيء الذي يمكن أن يفيد منه القارىء المثقف، أما المتخصص فإنه يجد عشرات من المجموعات والدراسات التي تضع النصوص والتفاصيل والشروح والتعليقات أمامه.

ونحن سنتحدث عن مكتبة قمران هذه في إطار التطور الفكري لفلسطين في الفترة التي هي موضوع بحثنا. ولذلك فإننا نشير إلى المجموعات الأربع التي ذكرناها باختصار:

أولاً ـ القوانين: يدخل في عدادها: (أ) **قانون الجماعة**، وهو الذي ينظِّم سلوك الجماعة التي سكنت في المنطقة الشبيهة بالصحراوية الممتدة بين مرتفعات القدس والبحر الميت. وهناك (ب) **قانون المَسِيًا** ‹المنتظَر›، أو قانون التجمع التعبّدي. إلى جانب هذين يوجد (ج) **قانون دمشق** الذي يحدد تصرف الجماعات التي عاشت في منطقة دمشق، والمقصود بذلك أصلاً الجماعات التي عاشت بين بقية السكان ولم تعتزلهم. و (د) **قانون الحرب**، ولا علاقة له بقواعد القتال أو الصلح مثلاً، بل إنه ينظر إلى الحروب التي ستقوم قبل انتهاء العالم، والطريقة التي سينتهي بها هذا العالم. وهذه المدة هي أربعون سنة لكن دون تحديد لموعد ابتداء هذه المدة. وأساس الخصومة في هذا القانون هي خصومة بين الخير والشر. وأخيراً هناك (هـ) **مخطوطة الهيكل** (التي لم تُنشر بعد)، والتي تعود إلى أواخر القرن الثاني أو أوائل الأول قبل الميلاد. وهذه تتناول قضايا الطهارة والاحتفالات الدينية وبناء الهيكل (!).

ثانياً ـ النصوص الشعرية والابتهالية والحكمية: وهي متنوعة بطبيعة الحال. فيها الترانيم والمراثي والمزامير والدعوات والصلوات، وما يرشد الاتباع إلى الطريقة التي سينتصر فيها الخير على الشر. وقد قسمها فرمس إلى سبعة عشر نوعاً.

ثالثاً ـ التعليقات (التفسيرات) التوراتية كما تراها الجماعة التي عاش أفرادها هناك. منها ثلاثة وثلاثون تفسيراً لأسفار مختلفة من أسفار العهد القديم؛ ومنها ترجمة آرامية لأجزاء من سِفر أيوب (المظنون أنه كُتِب بالعربية أصلاً)؛ ومنها تعليقات على الشريعة كما ترد في التوراة، وعددها أربعة وعشرون تعليقاً.

رابعاً ـ المتنوعة: وقد وضع فرمس تحت هذا العنوان جميع ما خرج عن الأقسام الثلاثة السابقة[٥٧].

والذي أجمع عليه الباحثون إجمالاً هو أن الأسينيين هم

الذين وضعوا هذا الأدب. والأسينيون هم فرقة لها اتجاه خاص جاء نتيجة للخلاف الديني والمذهبي والحضاري الذي عرفته فلسطين، ومنطقة القدس بشكل خاص، في العصر الهلينستي. يقول فرمس: «إن نتف الأخبار التي جُمعت من المخطوطات، ومن أعمال التنقيب الأثري، قطعة قطعة قد نظّمها الخبراء خلال العقود الثلاثة الماضية، فأعطتنا صورة تامة للأشخاص والأحداث التي تتحدث عنها». والخطوط الرئيسية في هذه الصورة تدور حول الحياة التقشفية التي كانت الجماعة القمرانية تعيشها رامية من وراء الإقامة في هدوء الصحراء ووحدتها الاهتداء إلى 'سبيل الكمال'. وهذه الجماعة كانت تعيش حياتها الخاصة كفرقة متفردة في إطار المجتمع الفلسطيني الأوسع.

وكانت هذه الفرقة تعتبر نفسها حامية الشريعة 'الأصلية'. وكانت تتشدد في قبول الراغبين في الانضمام إليها. فهناك أولاً سنة انتظار يكون فيها الطالب خاضعاً لمراقبة خارجية من قبل الجماعة. ثم تلي ذلك سنتان يكون فيهما المرء 'مبتدئاً' تحت التجربة. فإذا اجتاز الامتحان، قُبِل في عداد الجماعة على اعتبار أنه أثبت كفايته.

هذه الجماعة المتنسّكة، التي كانت تعتبر نفسها 'الجماعة القدسية' (أو الجماعة الكاملة)، قسّمت نفسها إلى طبقات معروفة كان الكهنة يحتلون فيها المرتبة الأولى. والكهنة كانوا متحدرين من آل صَدُوق (وهو تقليدياً اسم الكاهن الذي عاش في أيام داود في القرن العاشر قبل الميلاد).

كان الرئيس (الحارس أو السيد)، وهو واحد من آل صدوق، هو صاحب المكان الأول في الفرقة. وكان 'مجلس الجماعة' أبرز مؤسسات الفرقة منزلة ونفوذاً. وكان عدد أعضائه اثني عشر عضواً (ثلاثة منهم من الكهنة والباقون رجال علمانيون). وكان هؤلاء جميعاً ذوي معرفة تامة بالشريعة، وكان عليهم أن يحافظوا على البِر والحق والعدل والمحبة والتواضع.

وكانت الجماعة دقيقة في مراعاة الشريعة والسير عليها في تصرفها، كما كانت شديدة في معاقبة من يتجاوز قواعد الشريعة. فقد كان المتجني عليها 'يطرد' من الجماعة، ويُصبح في نظرها نجساً لا تجوز معاشرته. وقد فُصّلت جميع الحالات التي تستحق العقاب درجة درجة[٥٨].

والمشكلة التي واجهها المعنيون بدراسة محتويات مكتبة قمران ومحتوياتها هي: هل كان **الأسينيون** الذين خلّفوا هذا الأدب الديني المتزمت أحياناً والمنفتح أحياناً، خاصة في التعليقات على أسفار التوراة، فرقة من الفرق المعروفة في تاريخ البلاد، ومنطقة القدس بشكل خاص؟

كان هناك ثلاث جماعات أو فرق معروفة قد قامت من قبل: الصدوقيون والفريسيون والغلاة (أو الغياري)، وقد يسمُّون القانَوِيّين أيضاً. (والقانوِيّ هي الكلمة الآرامية التي تعني المغالي أو الغيور). فهل كان الأسينيون واحدة من هذه الفرق؟ أم هل كانت متفرعة عنها؟ ولنذكر بهذه المناسبة أن التفسير الأول للأسينيين اعتبرهم فرقة مسيحية. لكن بعد التأكد من زمن وجودهم بالمقارنة مع الأحداث التاريخية، تبين أنهم جاؤوا قبل المسيحية، وأن وجودهم انتهى سنة ٦٨ للميلاد.

لنتحدث أولاً عن هذه الفرق الرئيسة التي كانت قائمة، ثم ننتقل لتبيان الصلات بينها جميعاً.

(أ) **الصدوقيون**: كان هؤلاء يؤلفون الشريحة الأعلى من الجماعة الدينية اليهودية، وكانوا يرون أنفسهم النخبة المختارة، ويمثلون حزب الأثرياء ومناصري الكاهن الأعظم والأسر النافذة في المنطقة. وقد كانوا نبلاء بالمعنى الصحيح، كما كانوا محافظين ومن ثم كانوا شديدي الحرص على الشريعة، كما كانوا خصوماً لكل تجديد مهما كان اتجاهه، وخصوصاً ما كان يدعيه البعض من أن هذا التجديد هو نتيجة تفسير جديد للتوراة.

وقد كان الصدوقيون أصحاب النفوذ السياسي والديني في الفترة الممتدة من أيام يوحنا هركانوس الأول المكابي (١٣٤ ــ ١٠٤ ق. م) حتى قيام الحرب الأولى ضد الرومان (٦٦ م)، باستثناء فترة قصيرة. وهكذا فقد كانوا عاملين في الحقل السياسي وتزعموا الجماعة الدينية في بيت المقدس وأرباضها. ومع أنهم كانوا فرقة قوية، فإنه لم يكن لهم تنظيم سياسي معين يتناسب مع عملهم السياسي[٥٩].

(ب) **الفرّيسيون**: كان هؤلاء في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد فرقة أو جماعة لا يتجاوز عددها ستة آلاف نسمة. وكلمة 'فريسي' مشتقة من كلمة 'باريش' الآرامية التي تعني الشخص الذي يعتزل الآخرين، مما يدل على أن هذه الفرقة كانت جماعة دينية تحافظ على التقوى، وتحرص على تطبيق القوانين المتعلقة بالطعام والطهارة الطقسية. وقد كانت الصفة الغالبة عليهم العلمانية لا الكهنوتية الرتيبة المتزمتة. وكانت لهم مكانة في بلاط ألكسندرا سلومه Alexandra Salome المكابية (٧٦ ــ ٦٧ ق. م). وكانت مكانتهم، كما كان نفوذهم، في المدن

والبلدان أقوى منها في الريف. بل إنهم كانوا يعتبرون أنفسهم فئة خاصة تترفع عن أهل الريف والفلاحين.

ويرى شورَر Schurer أن الصدوقيين والفريسيين كانوا حزبين سياسيين يميلان إلى الحصول على السلطة والنفوذ، ومن ثم فهما بعيدان عن الأسينيين الذين كانوا أقرب إلى تنظيم رهباني لا يطمع في سلطة أو نفوذ.

(ج) **الغلاة**: أو الغيارى (أو القانويّون) وكانوا أصغر عدداً، ودامت حركتهم مدة أقصر من غيرهم. ولعلهم كانوا من الجماعات التي تظهر عند أزمة معينة أو أحداث خاصة، ولكنها تهدأ فورةً وثورةً عند زوال الحاجة.

والذي أجمع عليه الباحثون هو أن أياً من هذه الفرق لا يمكن أن تكون الأسينيين، أو أن يتفرع هؤلاء عن أي منها[٦٠]. ويبقى السؤال: من هم هؤلاء الأسينيون؟

يبدو من دراسة مخطوطات مكتبة قمران الغنية أن الأسينيين كانوا فرقة دينية بالمعنى الصحيح، أي أنها لم تكن ذات مطامع سياسية تخفيها تحت ستار ما. كانت الفرقة منظمة تنظيماً دقيقاً، وكان رؤساء الأسينيين يُنتخبون انتخاباً. وكانت الحياة في المنطقة التي سكنوها معتزلين العالم تتصف بالشيوعية إلى درجة كبيرة. وقد عف الأسينيون عن الزواج، وقبلوا العزوبية قاعدة لمجتمعهم. ولعلهم لم يتقيدوا تماماً بالطقوس الهيكلية، لكنهم كانوا يغتسلون قبل تناول الطعام، كما كانوا حريصين على المحافظة على يوم السبت. وكانوا يلبسون الثياب البيض. ومن الأمور المهمة في أنظمتهم أنهم كانوا يقاومون الرق بالمرّة. إلا أنه بالمقابل لحياة الاعتزال والرهبنة هذه، فقد كان من الأسينيين من أقام بين الناس في المدن والقرى ولم يتنسك تماماً. هذه الفئات كانت تتزاوج وتنجب وتعيش بين الجماعة ولكن في عزلة روحية[٦١].

ويبقى لدينا سؤال أخير: لماذا خرجت هذه الفئة إلى المنطقة الصحراوية؟ الخروج، على هذا الشكل، هو أصلاً احتجاج على وضع معين. فما هو الوضع الذي حمل الأسينيين على ذلك؟ ومن ثم فقد بقي الوضع على حاله حتى ظل هؤلاء في هذه العزلة!

ثمة بضعة أحداث تاريخية يجب أن تذكر توضيحاً للإجابة عن هذا السؤال. أولها أن يوناثان المكابي (١٥٢ ــ ١٤٣ ق. م) قَبِل الكهانة العظمى من يد ألكسندر بالاس Alexander Balas السلوقي. وهذه الحادثة مهمة من نواح ثلاث: الأولى أن أونيّا الثالث، الكاهن الأعظم السابق، كان قد اغتيل، ثم انه حيل دون ابنه أُونيّا (الرابع) أن يخلفه في منصبه (حسب القاعدة المتبعة يومها). واضطُر هذا إلى الهجرة إلى مصر، حيث بنى هيكلاً بتشجيع من بطليموس فيلومِتُر Ptolemy Philometor (١٨٠ ــ ١٤٥ ق. م). والثانية أن يوناثان لم يكن من بيت صدوق، أي البيت الذي يتولى أبناؤه منصب الكاهن الأعظم. وهذا اغتصاب لم تقبل به الجماعة الدينية في القدس من حيث المبدأ. والناحية الثالثة هي أن ألكسندر بالاس (السلوقي) نفسه كان مغتصباً للعرش لما عَيّن يوناثان كاهناً أعظم.

ومن الأحداث الهامة الخلاف الذي نشب في صفوف المكابيين ــ وهم قادة الثورة ضد السلوقيين والإصلاح الذي أرادوه. وسبب الخلاف أن سمعان المكابي (١٤٣ ــ ١٣٤ ق. م) قبل منصب الكاهن الأعظم وممثل الشعب من تريفون Tryphon أحد السلوقيين المدعين العرش.

فضلاً عن ذلك فإن انتقال المكابيين (الحشمونيين) من مجرد قادة ثورة ضد السلوقيين إلى ملوك وكهنة معاً، حتى بعد ما سمي بالاستقلال، كان يُعتبر أمراً إدّاً، إذ هو تنكّرٌ للمبادىء التي قامت الثورة من أجلها.

وإذن فقد عمّ الشر وانتصرت أنواع من الظلم والتنكر للمبادىء، وابتعد الناس عن طريق الله الحق. وعادت فكرة 'المسِيّا' (المخلِّص المنتظَر) إلى الظهور. وجاء 'المعلم البارّ' الذي وعظ الناس بأن العالم قد اقتربت نهايته، وأن من واجب الناس أن يلجأوا إلى مكان يعتزلون فيه هذه العصبة الشريرة، ويُعِدّون أنفسهم لليوم الأخير، ويعبدون الله عبادة صادقة منتظرين النهاية بقلوب مؤمنة. فانسحب الأسينيون إلى صحراء القدس ــ البحر الميت. وأقاموا هناك بين حوالي سنة ١٥٠ق.م وحوالي ٦٦م. وفي هذه الفترة دونوا هذه المكتبة الضخمة التي تعبر عن حركة فكرية روحية تنسكية غنية[٦٢].

ما هي العلاقة بين هذه الحركة من جهة والنزعات الهلينية التي خبرتها فلسطين في هذه الفترة من العصر الهلينستي؟ كانت حركة التَهَلْيُن قد قويت جذورها في المناطق المقدسية، مع أنه كان ثمة مقاومة لها. ثم عنفت هذه المقاومة بحيث حملت السلاح كما رأينا. فالحركة الأسينية، إذا جازت التسمية، كانت أصلاً نوعاً من المقاومة للهلينية، لم تكن تحب اللجوء إلى العنف. إلاّ أنها لما فشلت في نقل أفكارها إلى الآخرين خرجت محتجة معتزلة. وفي عزلتها دوّنت ما يمكن أن يعتبر المقاومة الداخلية السلمية للهلينية.

الفصل الثاني
من بومبي إلى ديوقلتيان

١ ــ رومة تحتل فلسطين:

كانت رومة قد أخذت تتدخل في شؤون المشرق منذ مطلع القرن الثاني قبل الميلاد؛ لأن ما أصاب الدولة السلوقية من الضعف بسبب الحروب الخارجية (خاصة في المناطق الشرقية النائية) والداخلية، وما اعتور المنطقة السورية ــ الفلسطينية من اضطراب وخراب بسبب حروب المكابيين، ثم انتصار الرومان على أنطيوخس الثالث في معركة مغنيزيا (١٩٠ ق. م) ــ شجع الرومان على التدخل. وقد مر بنا أن المكابيين أقاموا صلات خاصة مع رومة، حتى قبل أن تصل جيوشها إلى سوريا. ومع ما كان لرومة من ثقل ونفوذ في حوض المتوسط الشرقي، فقد ظلّت تدير الأمور هناك من بعيد إلى سنة ٦٥ق. م.

ففي تلك السنة دخلت الجيوش الرومانية كيليكيا في طريقها إلى سوريا وفلسطين، وكانت هذه الجيوش تحت إمرة بومبي. وكان بومبي قد اعتزم تصفية الدولة السلوقية من جهة، وتنظيم غرب آسيا على الطريقة الرومانية من جهة أخرى.

أرسل بومبي وكيله سكاوروس Scaurus إلى سوريا سنة ٦٥ ق.م. وقد التقى الوكيل في دمشق الأخوين المتنافسين على زعامة الجماعة الدينية في بيت المقدس وهما هِركانوس Hyrcanus وأرستوبولّس Aristopollus من الأسرة الحشمونية. فبعد وفاة الكسندرا سلومه (٧٦ ــ ٦٧ ق. م) تعرضت الأسرة الحاكمة للانحطاط وحتى الانحلال. فقد تولى هركانوس منصب الكاهن الأعظم، لكن أخاه أرستوبولّس أخرجه من بيت المقدس وتولى مكانه. فلجأ هركانوس إلى ملك الأنباط. وقد أعانه هذا، كما جاءه العون من أنتيباتر Antipater الأدومي، وبذلك تغلّب على أرستوبولّس، لكن هذا اعتصم بالهيكل. وقد عرض كل من المتنافسين على القائد الروماني مبلغاً من المال مقابل نصرته. وانتهى الأمر بأن أيّد سكاوروس أرستوبولس في منصب الكاهن الأعظم[٦٣].

في السنة التالية دخل بومبي نفسه سوريا وقضى شتاء ٦٤ ــ ٦٣ ق. م.في الشمال، ثم انتقل في الربيع (٦٣ ق. م) إلى دمشق. وهناك استقبل مندوباً عن أرستوبولّس (كان يحمل وعداً بمبلغ كبير) وآخر هو انتيباتر الأدومي وكيلاً عن هركانوس، ثم جاء الأخوان بالذات إلى حضرة بومبي. وقد وصل وفد ثالث كان يمثل فئات من الجماعة الدينية في بيت المقدس. وهذا طالب بإقصاء الأخوين عن السلطة ووضع حد نهائي لأسرة الحشمونيين وسيادتها، بسبب ما جرته هذه الأسرة على البلاد من نكبات.

لكن بومبي أجّل إصدار القرار إلى السنة التالية، بعد أن ينتهي من حملته التي كان قد أعدّها ضد الأنباط. إلا أن أرستوبولّس رفض ذلك بعد عودته وتحصّن في حصن ألكسندريوم Alexandrium (قرن صَرْطَبة) في غور الأردن، إلى الشرق من نابلس[٦٤]. عندها أجّل بومبي حملته ضد البتراء، واتجه إلى بِلاّ Pella (طبقة فحل) ثم إلى بيسان (سكيثوبوليس) ثم إلى كورية (قَراوَه) في وادي الأردن على مقربة من وادي الفارعة الأدنى. ومع أن أرستوبولّس سلّم حصن ألكسندريوم لبومبي، فقد أسرع متجهاً نحو القدس، أملاً في استعادة مكانته. ثم بدا له أن قضيته خاسرة، فسلّم نفسه إلى القائد الروماني، وأرسل هذا وكيله غابينيوس Gabinius إلى المدينة المقدسة لتسلمها، فأبى عليه أتباع أرستوبولّس ذلك. عندها اعتبر بومبي هذا سجيناً لديه، وسار بنفسه إلى بيت المقدس فدخلها بعد حصار وقتال شديدين (٦٣ ق. م)، وقد فُقِد من سكانها الكثير، ومع أن بومبي دخل الهيكل فإنه لم ينهبه[٦٥].

وبدأ بومبي الآن وضع تنظيم جديد للمنطقة (٦٣ ق. م)، وهذا يمكن تلخيصه في الأمور التالية:

أولاً ــ اعتُبرت المنطقة الغربية من الدولة السلوقية، وفيها فلسطين بأجمعها وغرب سوريا، ولاية (سوريا الرومانية) وعُيِّن سكاوروس أول والٍ عليها.

ثانياً ــ روعيت داخل هذه الولاية بضعة أشياء، هي: فصل الأجزاء التي كان الحشمونيون قد أضافوها إلى دولتهم احتلالاً عن منطقة بيت المقدس (اليهودية)؛ وجعلت المدن الساحلية منها مناطق مدنية مستقلة ووضعت تحت إمرة الوالي مباشرة؛ وتركت المدن العشر (ديكابوليس) مستقلة بحيث تحتفظ أيضاً بما كان بينها من تعاون قوي دفاعي واقتصادي؛ وأعيد إلى مدينة السامرة مركزها الخاص كمدينة هلينستية.

ثالثاً ــ وما تبقى من الأرض المحيطة بمدينة السامرة (وكانت تسمى السامرة أيضاً) فقد وضعت تحت إمرة الوالي، باعتبارها منطقة تسكنها جماعة دينية سامرية.

رابعاً ــ ظلت أدوم العربية تابعة للجماعة الدينية في بيت المقدس.

خامساً ــ هذه الجماعة الدينية في بيت المقدس ومنطقتها، ومنطقة الجليل الداخلية كانت خاضعة لسلطة الكاهن الأعظم.

هذه الفسيفسائية الإدارية كانت تتناسب مع إدراك بومبي للأمور وتصوُّرِه للأحوال. فالمدن الهلينستية أُعيدت إليها مكانتها واستقلالها. ومنطقة السامريين جُعلت وحدة لكن لا استقلال لها. والفئات الدينية التي كانت تعتبر بيت المقدس قبلتها الدينية، والتي كانت ترى في الكاهن الأعظم ممثلاً لمصالحها، هي التي وضعها بومبي تحت نفوذه. لكن الكاهن الأعظم نفسه (هركانوس) كان تابعاً للوالي الروماني. أما الأسرة الحشمونية، التي كانت قد لقّبت حكامها بالملوك، فقد صُفِّيت كأسرة حاكمة.

في سنة ٥٧ ق. م. تولّى غابينيوس ولاية سوريا. وعندها أعاد التنظيم الإداري لمنطقة بيت المقدس والجماعة الدينية فيها. وكان بومبي قد جرّد هركانوس من لقب الملكية (وأبقى له لقب الكاهن الأعظم فقط)، فجاء غابينيوس وانتزع منه كل ما كان له من سلطة سياسية على المناطق الفلسطينية التي كانت تابعة له، وقصر نفوذه على النواحي الدينية فقط. وقسّم غابينيوس المناطق التي انتزعها إلى خمسة أقضية مستقل واحدها عن الآخر إدارياً، وهي: (١) قضاء بيت المقدس وتتبعه جبال القدس والخليل وأدوم. (٢) قضاء أريحا وكان يضم السفوح الشرقية لجبال القدس وعقربة (شمالي بيت المقدس) وما إليها. (٣) قضاء جازر الذي كانت تدخل ضمنه السفوح الغربية لمنطقة القدس ــ رام الله. (٤) قضاء صفورِس (صفورية) وكان يشمل الجليل الشرقي. (٥) قضاء أماتوس (عمّاتا) وهو بيريا سابقاً (أكثره إلى الشرق من نهر الأردن)[٦٦].

لما عاد بومبي إلى رومة، تاركاً سكاوروس أول وال روماني لسوريا، أخذ معه، في جملة أسراه، أرستوبولّس وابنتيه وابنه الأصغر أنتيغونس Antigonus، أما الابن الأكبر، ألكسندر، فقد فر من الأسر في الطريق. ولما وصل فلسطين أخذ يعد العدة للثورة. فلما جاء غابينيوس والياً (٥٧ ق. م) كان ألكسندر قد تحصّن في الحصون الثلاثة المهمة في شرق البلاد ــ ألكسندريوم (قرن صرطبة) وهركانيوم (خربة مِرْد) ومَكايْروس (مكاور) وشحنها بالرجال والعتاد.

على أن السنوات التي تلت مجيء غابينيوس والياً على سوريا كانت مليئة بالأحداث الهامة التي كان مسرحها يمتد من رومة نفسها إلى بيت المقدس والاسكندرية عبر بلاد اليونان وآسيا الصغرى. وكما كان المسرح واسعاً فقد كان الممثلون كثيرين: وكان البعض من الممثلين الكبار، منهم بومبي ويوليوس قيصر وأنطونيوس وأكتافيوس، وإلى جانب هؤلاء كان يقوم ممثلون يضطلعون بأدوار مساندة، ومنهم أرستوبولّس وابنه أنتيغونس (السجينان في رومة) وأنتيباتر الأدومي وابناه فصايل Phasael وهيرودس Herod وهركانوس (الكاهن الأعظم) والولاة الرومان في سوريا من غابينيوس إلى كراسّوس Crassus. ولن نتابع هذه الأحداث، ولكننا سنوجز ما يخص فلسطين بشكل خاص[٦٧].

كان ألكسندر (ابن أرستوبولس) أول المتحركين في فلسطين، وكان، كما رأينا، قد قوّى الحصون وشحنها بالمقاتلة. ولما وصل غابينيوس والياً (٥٧ ق. م) أرغم ألكسندر على التسليم في حصن ألكسندريوم (قرن صَرْطَبَة) حيث كان مقره. ولم يلبث أرستوبولس وابنه أنتيغونس أن فرّا من رومة. ومن المرجح أن الخصومات والخلافات السياسية والحزبية، التي كانت سوقها رائجة في رومة، هي التي يسّرت لهما الخروج من السجن. ولعلّ شيئاً من المال ساعد هذه المنافسات. ولما وصلا فلسطين حملا السلاح ضد هركانوس (الكاهن الأعظم) وهو أخو أرستوبولس كما نعرف. لكن غابينيوس ألقى القبض عليهما في حصن مَكايْروس Machaerus (خربة المُكاوِر) الواقعة شرقي البحر الميت، وأعادهما إلى رومة. ولما ذهب غابينيوس إلى مصر، عاد ألكسندر إلى حمل السلاح، إلا أن الوالي، لما رجع من حملته المصرية، انتصر عليه انتصاراً ساحقاً عند جبل طابور (في جنوب الجليل). وعندها عمد غابينيوس إلى تقوية مركز هركانوس، وذلك بإلغاء التقسيم الإداري الذي وضعه هو بنفسه وأعاد كل ما كان داخلاً في تقسيمه إلى سلطة الكاهن الأعظم (٥٤ ق. م).

وجاء كراسوس والياً على سوريا سنة ٥٤ ق. م. وهو عضو في الحلف الثلاثي الذي قام في رومة بين بومبي وقيصر وكراسّوس لاقتسام السلطة في هذه الدولة الواسعة. وكان كراسّوس يهمه أن يحارب الفرثيين ليضمن لنفسه مكاناً مساوياً، ولو نسبياً، لكل من بومبي ويوليوس قيصر. لذلك نهب ولاية سوريا على أتم وجه، وأعد الحملة وقادها في السنة التالية (٥٣ ق. م)، لكنه كُسِر وقُتِل في المعركة التي خاضها مع العدو في كري Carrhae وهي حران.

ولما وقع الخلاف بين بومبي وقيصر (٤٩ ق. م)، وانتقل بومبي ومؤيدوه إلى المشرق، وأراد قيصر أن يعكّر صفو الجو لبومبي أطلق سراح أرستوبولس وابنه الكسندر، اللذين كانا

سجينين في رومة، ليعودا إلى مقارعة خصمه الجديد بومبي في فلسطين. لكن الأب سُمّ في رومة، والابن قُتل في أنطاكية. ومن الراجح أن ذلك كان بإيعاز من بومبي.

ظل أنتيباتر الأدومي وهركانوس، الكاهن الأعظم، إلى جانب بومبي، لكن هذا انهزم في معركة فَرسالوس Pharsalus، سنة ٤٨ ق. م. فقصد مصر. ولما وطئت قدماه أرض النيل اغتيل. فما كان من أنتيباتر وهركانوس إلا الالتفاف حول يوليوس قيصر. وقد قدّم له أنتيباتر خدمات عسكرية وتموينية لما كان في مصر. ولما جاء قيصر إلى سوريا جرب انتيغونس (ابن ارستوبولُس) أن يتقرب إليه لكن قيصر أراد أن يكافىء أنتيباتر على خدماته، وكان من الطبيعي أن يراعي التحالف بين هذا وبين هركانوس. فثبّت هذا في منصب الكاهن الأعظم وراثة وعيَّنه إثناركاً ethnarch، أي حاكماً على جماعته وراثة أيضاً. ومُنحت الجماعة الدينية في بيت المقدس ومنطقتها (اليهودية) حق التصرف القانوني في أمورها الخاصة. وأُعْلِنَ أنّ هركانوس هو «حليف الرومان»، وكذلك خلفاؤه من بعده. وأُعفيت البلاد التي يديرها من تقديم الخدمات العسكرية ومن تأمين المأوى الشتوي للجنود الرومان. وسُمِحَ لبيت المقدس أن تُحَصَّن من جديد. أما أنتيباتِر فقد مُنح حق الرعوية الرومانية، وهذا أتاح له أن يعينَّ في مركز إداري عالٍ، فكان أول حاكم لمنطقة بيت المقدس (اليهودية). وقد وسِّعت سلطة هذه المنطقة فأُعيدت إليها يافا (جوپا أو يوبا) وعدد من القرى في مرج ابن عامر (سهل زرعين ــ يزرعيل). والذي يمكن استنتاجه من هذا جميعه هو أن قيصر أراد أن يزيل أسباب الخلاف بين رومة والشعوب الواقعة تحت سلطانها[٦٨].

فلسطين أيام هيرودس
ــ حدود دولته ٢٠ ــ ٤ ق.م. ــ

ووضع أنتيباتر ابنيه ــ فصايل وهيرودس ــ على المسرح، فأعطى إدارة منطقة بيت المقدس (اليهودية) وبيريا لفصايل، وعهد إلى هيرودس بإدارة الجليل، وسمّى كلاً منهما «ستراتغوس». وقد أثار هذا التصرف حنق الكهنة والجماعة الأرستقراطية في بيت المقدس. فجرّبوا أن يحاكموا هيرودس لأنه قتل لصوصاً كانوا يعيثون فساداً في الجليل دون أن يقدمهم للمحاكمة أمام المجلس (السنهدريم)، فكان في تصرفه افتئات على حقوق هذا المجلس. لكن المجلس، في بيت المقدس، لم يجرؤ على ذلك، لأن هيرودس قاد فرقة عسكرية ضد بيت المقدس. ولولا تدخل أبيه (أنتيباتر) لكان اقتحم المدينة لتأديب المجلس أو معاقبته.

وجاء حدث آخر يزعج الدولة الرومانية. في آذار/مارس سنة ٤٤ ق.م. اغتيل يوليوس قيصر. وجاء أحد المتآمرين عليه، كاسيوس Cassius والياً على سوريا (٤٤ ــ ٤٢ ق. م). فاستغل جميع مصادر الولاية المالية لمصلحته، الأمر الذي بغّضه إلى الجماهير السورية. وقد وقف أنتيباتر إلى جانب كاسيوس، ولذلك ازدادت نقمة الجماعة الدينية في بيت المقدس عليه. وأخيراً سُم أنتيباتر نتيجة مؤامرة أساسها عداء شخصي. إلا أن ابنيه كانا قد ثبّتا مكانتهما، بحيث ان وفاة الأب لم تؤثر على مركزهما. وقد تمكّنا من قتل الشخص الذي دسّ السم لأبيهما.

وعاد أنتيغونس (ابن أرستوبولُس) إلى العمل العسكري، فهاجم الجليل، لكن هيرودس انتصر عليه وأخرجه من المنطقة بأسرها. وهذا وثّق الصلة بين هيرودس وهركانوس (الكاهن الأعظم).

وجاءت سنة ٤٢ ق.م. وحملت الفوز النهائي في معركة فيلبي Philippi لأنطونيوس وأكتافيوس ضد من كان قد تبقى من قتلة يوليوس قيصر، فأوكل أمر إدارة المشرق لأنطونيوس. وعندها تعددت الوفود إلى أنطونيوس من قبل الجماعة الدينية في بيت المقدس أملاً في أن يُقصي فصايل وأخاه هيرودس. لكن المحاولات فشِلت.

وجاء الغزو الفرثي لسوريا (٤٠ ق. م)، وتمكن أنتيغونس من الحصول على تأييد القائد الفرثي بَرزَفَرْناس Barzapharnas ضد ابني أنتيباتر (فصايل وهيرودس). ودُعي الرجلان مع هركانوس إلى مخيم الفرثيين في مدينة أكديبا (أو أكزيبا وهي الزيب الحالية شمالي عكا) كي يعرضا قضيتهما على القائد بالذات. فذهب فصايل مع هركانوس، وتخلَّف هيرودس، إذ انه أدرك أن في الأمر مكيدة. وقد حبس القائد الفرثي الرجلين ونصّب أنتيغونس ملكاً وكاهناً أعظم في القدس، وبعث بهركانوس وفصايل إليه. أما فصايل فقد انتحر قبل أن يصل إلى أنتيغونس؛ وأما هذا فلما وصل إليه عمه هركانوس قطع أذنيه كي يحرمه من تولي الكهانة في المستقبل. وظل أنتيغونس في منصبه سنوات ثلاثاً(٦٩).

أما هيرودس فقد قصد رومة، وهناك كسب ثقة أنطونيوس وأكتافيوس، فعيّنه مجلس الشيوخ ملكاً على منطقة بيت المقدس (اليهودية). وكان عليه أن ينال مملكته بحد السيف فلم يتوان. ذهب إلى سوريا وألقى مراسيه في بطوليمايس (عكا)، وكان والي سوريا قد أخرج الفرثيين من البلاد. وقد قدّم الوالي العون لهيرودس فاحتل يافا (٣٩ ق. م)، وأنقذ أفراد عائلته الذين كانوا قد ألجئوا إلى حصن مسّادة (السُبّة) على الساحل الجبلي للبحر الميت جهة الغرب. وأتم بعد ذلك احتلال أجزاء المملكة التي عُين عليها، ثم بقية فلسطين، باستثناء بيت المقدس (٣٧ق. م). وفي السنة التالية أخذ بيت المقدس من الوالي الروماني الذي احتلها، وقد سلمها إلى هيرودس لقاء مبلغ من المال. وحمل الوالي الروماني أنتيغونس أسيراً إلى أنطاكية، حيث أُعدم بناء على طلب هيرودس(٧٠).

٢ ــ هيرودس وخلفاؤه:

بلغ هيرودس غايته وأصبح ملكاً على فلسطين بأجمعها، فضلاً عن جزء من منطقة عبر الأردن يحاذي الجزء الشمالي من الغور. وقد نجح هيرودس في تحقيق طموحه بسبب التأييد الروماني المستمر لأسرته أولاً وله ثانياً. وقد كان هيرودس شديداً في مراقبة خطواته لضمان هذا التأييد. وكان آخر موقف تصرف فيه هيرودس تصرف صاحب الرأي الحصيف لما غُلب أنطونيوس على أمره (في أكتيوم Actium ٣١ ق. م)، ثم انتحر لما وطئت قدماه أرض مصر، وكان أنطونيوس يرعى هيرودس منذ انتصاره الأول في معركة فيلبي (٤٢ ق. م)، وكان هيرودس نصير أنطونيوس محلياً. أما بعد أكتيوم فقد تغيّر الوضع وأصبح أكتافيوس سيد العالم الروماني. فلم يتوان هيرودس عن زيارة السيد الجديد، وكان هذا في رودس. فلما مثُل بين يديه رفع التاج عن رأسه ووضعه عند قدمي أكتافيوس. فأعاد هذا التاج إليه، أي أنه جعله ملكاً من جديد ووسّع المنطقة التابعة له. وظل هيرودس طول حياته موالياً لأكتافيوس (أغسطوس فيما بعد)(٧١).

حكم هيرودس فلسطين من ٣٧ ق. م إلى ٤ ق. م وقد كانت البلاد بأكملها، باستثناء المدن الهلينستية، تحت حكمه. وقد تم له ذلك بعد وفاة كليوباترة (٣١ ق. م) بشكل خاص. ذلك أن هذه كانت قد أُقطِعت غور الأردن الجنوبي، حيث كانت مزارع البلسم وبساتين النخيل. فضلاً عن ذلك فقد أضاف أكتافيوس الجولان له وجزءاً من حوران، وقد ضُمت هذه إلى بيريا.

كان هيرودس بالنسبة لرومة ‹ملكاً معاهِداً› وبذلك لم يكن تحت سلطة والي سوريا، بل كان يرتبط ‹بالرجل الأول› في رومة، فكان يتلقى الأوامر منه أو من مجلس الشيوخ. وكان عليه واجبان يترتب القيام بهما نحو رومة: الأول تقديم الجنود عندما يُطلب منه ذلك؛ والثاني الدفاع عن حدود الامبراطورية المحيطة بملكه، وفي حال هيرودس كانت هذه مملكة الأنباط.

عرف هيرودس كيف يحافظ على صلات شخصية طيبة مع أكتافيوس (أغسطوس) ومع حاشيته. فتقرب منه ومن أفراد الحاشية بتقديم الهدايا المناسبة، وخاصة المالية، حتى إلى أغسطوس بالذات.

كان هيرودس بنّاء من الدرجة الأولى، بحيث ان تاريخ فلسطين القديم لم يعرف له مثيلاً قط. فبنى في فلسطين أول ميناء بحري كبير مكان حصن ستراتون، وأحاط الميناء بمدينة كبيرة على النمط الهلينستي، وسماها قيصرية، نسبة إلى أغسطوس قيصر (وهي قيسارية الحالية). كما بنى مدينة جديدة حيث كانت تقوم مدينة السامرة وسمّاها سبسطية باسم الامبراطور أيضاً. وقد صرف عشر سنوات في بناء الأولى التي لم يبق منها إلى الآن سوى آثار قليلة. أما سبسطية فقد كشف التنقيب الأثري عن بقايا هامة فيها (من عهد هيرودس والعهود التي تلت ذلك حتى أيام البيزنطيين).

فضلاً عن هاتين المدينتين الكبيرتين حقاً، شاد هيرودس أنتيباترس Antipatris، وهي رأس العين عند منابع نهر العوجا الذي يصب شمالي يافا. هذه بناها ذكرى لأبيه، وبنى فصايلِس Phasaelis، وهي خربة فصايل الواقعة إلى الشمال من أريحا،

وذلك إحياء لذكرى أخيه الأكبر. وبنى قيصرية فيلبي (بانياس) عند منابع الأردن، وقوّى حصني مسّادة (السبّة) على شاطىء البحر الميت الغربي ومكايروس (مكاور) على السفوح الشرقية المشرفة على البحر الميت غربي مادبا. وقد شاد قلعة في أريحا سمّاها سِبْروس Cypros، على اسم أمه، وأنشأ حصناً إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم سماه باسمه هوهيروديوم (فريديس أوخريطون). وهذه الحصون والقلاع التي بناها، وغيرها أصغر منها، إنما كان يقيمها رغبة منه في إيجاد أماكن يتحصّن فيها إذا اقتضى الأمر.

لكن أعمال هيرودس العمرانية لم تقتصر على المدن أوعلى المناطق الواقعة تحت حكمه. فقد أهدى المدن المجاورة لمنطقة حكمه أبنية ضخمة وشوارع معمدة وهياكل ومسارح. ومن المدن التي نالت هذا النوع من الهدايا بيروت وأنطاكية وجبيل وطرابلس ودمشق واللاذقية وصور وصيدا ومدن آسيا الصغرى ومن بينها أثينا نفسها وبعض الجزر اليونانية مثل كيوس.

عُني هيرودس ببلاطِه. فالرجل كان يعرف أن هذه الجماعة المتكتلة في بيت المقدس وما حولها، والمتمسكة بتقاليدها، كانت جماعة متأخرة حضارياً تأخراً كبيراً بالنسبة إلى العالم الجديد. وهوكان يرغب في إدخال العناصر المدنية الحديثة في البلاد. والمدن التي بناها، الكبيرة والصغيرة على السواء، كانت تحتوي في الغالب على جمنازيوم ومسرح وميدان سباق وهي مؤسسات الثقافة الجديدة؛ وكان هيرودس حريصاً على أن تستعمل هذه المنشآت. وكان في بلاطه فئة من أهل المعرفة يتقدمهم نقولا الدمشقي، المؤرخ الأديب الذي كتب شبه يوميات عن هيرودس، وأرّخ للفترة. وكان هناك بطليموس الذي كان مدبر الحكم، وقد يجوز تسميته رئيس وزراء. وكان هيرودس يحيط نفسه بمجلس استشاري يدعوه للمشاورة عندما تدعو الحاجة إلى ذلك.

كانت الأعمال المختلفة، والعمرانية منها بشكل خاص، التي تمت على أيدي هيرودس، وفي مدة ثلث قرن، تقتضي نفقات باهظة. إذ ان المدينتين الكبيرتين اللتين أنشأهما كانتا على جانب كبير من السعة والتنسيق والتجميل، وأنشىء فيهما أبنية عامة وهياكل وما إلى ذلك. هذا فضلاً عن الهدايا المالية التي كان يبعث بها إلى أصحاب الشأن. وكان بلاطه بالذات يحتاج الكثير من النفقات (فقد كان له من الأزواج عشر). وكانت واردات هيرودس تأتي أولاً من أملاكه الخاصة التي عُني بتحسينها وزيادة قدرتها على الإنتاج، وخاصة منطقة غور الأردن في جهات أريحا. ويبدو أنه استطاع أن يحسن تجميع المياه وتنظيم إنفاقها، فحسّن الإنتاج الزراعي حتى في منطقة مثل هيروديوم. وكان يحصل على دخل لا بأس به من استغلال مناجم النحاس في قبرص. وكان يستثمر أمواله في البتراء على شكل قروض للتجار بفائدة مرتفعة ــ بين ٣٠ و ٣٥ ٪ ــ وهذا كان مألوفاً. وإذا تذكرنا أن هيرودس أدومي أصلاً (والأدوميون هم عرب، ولو أن الأسرة الحشمونية أرغمتهم على اعتناق اليهودية) وأن طرق التجارة بين البتراء وغزة كانت تمر بأدوم، عرفنا أن إقراض تجار البتراء (وغيرهم) كان أمراً يعرفه هيرودس بحكم صلة أسرته بالمنطقة وبالتجارة وبالتجار.

ومع ذلك فإن أكثر ما كان يُنفق كان يُجمع ضرائب ومكوساً من الشعب. وكانت هذه مرتفعة وجائرة. ولكن هيرودس لم يسمع اعتراض الشعب واحتجاجهم، لأنه لم يرد أن يسمع ذلك. وإذا حدث وسمع فإنه بدل أن ينصف كان يعاقب ويجور في العقوبة[٧٢].

كان هيرودس مكروهاً، لكنه لم يكن محتقراً. كرهه الناس لظلمه ولفرضه الضرائب الكثيرة وتشدده في جمعها. وكرهه رجال الدين لأنهم كانوا يخشون مما يمكن أن يدخله من الأمور الجديدة المخالفة لعاداتهم وتقاليدهم. ولعلهم خشوا أن تقضي هذه الآراء الجديدة، فيما لو نجحت، على نفوذهم وسلطانهم. كان الجميع يخشون هيرودس بسبب بطشه وقسوته وتحلّله من القواعد الأخلاقية عندما يكون له في الأمر مصلحة، أوعندما يشعر بالخطر. فقد قتل بعضاً من أفراد عائلته، إذ وصل ذلك إلى ابنين له، وإلى زوجة كان المعروف عنه أنه يحبها. أما عن الخصوم الذين وصلت إليهم يداه مباشرة أوبالواسطة ــ قتلاً أوسماً أوخنقاً أوإغراقاً ــ فحدّث ولا حرج، فقد كانوا عشرات.

كان هيرودس، على ما يبدو، عاطفياً قاسياً لم تعرف الإحساسات الرفيقة أو الرقة إلى نفسه سبيلاً. وإذا كان له في أمر مصلحة ما، فإنه يدير الأمور في اتجاهه بقبضة من حديد، ولو جرت دماء غزيرة. وكان، إلى ذلك، ذكياً بصيراً بالأمور مدركاً لما يجب أن يفعل في كل حالة. وكانت قسوته وشدته تنالان أولئك الذين كانوا تحت نفوذه، أما أمام مرؤوسيه فقد كان مسالماً متضعاً. وقد أدرك بثاقب فكره أن الرومان هم الذين يجب أن تُصان صداقتهم، ففعل ذلك باستمرار مستهيناً بالثمن مهما غلا.

وهكذا فقد أتقن هيرودس فن الخداع، كما أدرك أهمية العمل الذكي. وجمع بين هذين ليقوّي سلطته، ويوسع نفوذه، ويضيف أمجاداً إلى أمجاده، وقد نجح. لكن هذا النوع من الحكم يقوم على الفرد وينتهي كل شيء بوفاته. كان حكم هيرودس

حكماً يعتمد إدخال الرعب في قلوب الجميع، ويلجأ إلى العنف في كل قضية. ومن ثمّ فقد تمكن من أن يبقى صاحب القول الفصل في كل أمر. وقد بدا حكمه، في الظاهر، حكماً براقاً، ولعلّ الوقت الذي سيطر فيه على شؤون فلسطين كان من أمتع أزمنتها في العصور القديمة. وقد يسّر للبلاد فترة خلت فيها من الحروب، كما قضى في الجليل خاصة على العصابات اليهودية، التي كانت تعيث في الأرض فساداً.

كان هيرودس أدومي الأصل، والأدوميون عـرب. وقد فُرضت اليهودية على الأدوميين بحد السيف، لكن ذلك لم يغير عنصرهم العربي. واليهود في منطقة القدس كانوا يعتبرونه، بالنسبة لهم غريباً عنهم. ولم يكن اليهود في الجليل أقرب إليه من هؤلاء. ولكن الجميع قبلوا به مرغمين. وقد خلفه في الحكم أفراد من أسرته. لكن الفرق بين هيرودس من جهة، وبين أبنائه وحفيده، من الجهة الأخرى كبير جداً[٧٣].

لما توفي هيرودس ترك لأولاده الثلاثة وصية بما كان تحت حكمه ملكاً. المُلْك لأرخـلاوس Archelaus، مع إدارة القسم الأكبر من فلسطين؛ ولأنتيباس تترارخيّة الجليل وبيريا؛ وتتراخية البثنية والجولان وجزء من حوران لفيليب. لكن هذه الوصية كانت بحاجة إلى موافقة الامبراطور أغسطوس قبل أن تصبح نافذة. ولذلك أمَّ الموعودون (بالوصية) والمدّعون بلاط الامبراطور لينالوا رضاه وموافقته. منح أغسطـوس أرخلاوس ما أوصى به أبوه، لكنه لم يجعله ملكاً بل إثنارخاً ethnarch، وانتزع منه غزة وبعض المدن العشر، وألحق هذه بحكم والي سوريا. وجعل انتيباس تترارخاً (حاكماً) على الجليل وبيريا، وفيليب تترارخاً (حاكماً) على ما أوصى به أبوه له.

وكان بين الـوفود واحـد طالب أغسـطوس بإنهاء حكم آل هيرودس نهائياً[٧٤].

ظل أنتيباس في الحكم على تترارخيته من ٤ ق.م. إلى ٣٩ م. وكانت عاصمته صفوريس (صفورية) أولاً، وقد رفع من شأنها بأن جعلها مدينة polis. لكنه لما تم له بناء مدينة طبرية (حوالي سنة ٢٦م. ويبدو أنه بدأ البناء سنة ٢٠ م) اتخذها عاصمة له. وقد حصّن تل الرامة في جنوب بيريا (عبر الأردن) لحماية ولايته من الأنباط وسمّاها جوليا (أو ليفيا). وكان في تصرفه الشخصي يقتفي آثار أبيه، لذلك كثرت مشكلاته الشخصية والسياسية. ولما طلب من الامبراطور كاليغُلا Caligula (٣٧ — ٤١ م) أن يجعله ملكاً، خلعه عن العرش ونفاه إلى بلاد الغال (فرنسا).

واحتفظ فيليب بالحكم في تترارخيته حتى وفاته سنة ٣٤ م. وقد حسّن مدينة قيصرية فيلبي (بانياس)، التي أصبحت فيما بعد واحدة من أهم مدن المنطقة.

أما الذي أُقصي عن الحكم قبل غيره، وبعد عشر سنوات فقط من توليته حكم تترارخيته فقد كان أرخلاوس، الذي نُفي إلى بلاد الغال، وذلك سنة ٦ م. أما المنطقة التي كانت تحت إمرته فقد جعلت ولاية رومانية بإمرة حاكم عاصمته قيصرية، وله الإشراف على الجنود المجندين محلياً. وكانت الحاميات موزعة في نواح مختلفة من الولاية، منها واحدة في بيت المقدس بالذات. وظل هذا حالها باستثناء فترة قصيرة (٤١ — ٤٤ م) حيث حكمها حفيد هيرودس الكبير. وحري بالذكر أن الحكّام الرومان الذين تولوا شؤون هذه الرقعة لم يحسنوا التصـرف. ومنهم بيلاطس البنطي (٢٦ — ٣٦ م) الذي عاصر السيد المسيح. وقد قُسمت هذه المنطقة إدارياً إلى أحد عشر قضاء منذ أيام هيرودس، ولعلّ التقسيم أُهمل في أيام أرخلاوس، فأُعيد الآن. ولتسهيل العمل الإداري جمعت هذه فيما يمكن أن يسمى ألوية. وظلت التقسيمات هذه معمولاً بها مع تعديلات طفيفة هنا وهناك في أيام الولاية الرومانية. أما الأقضية الأحد عشر فهي: بيت المقدس وبيت صور (خربة الطُّبيقة) وأريحا وبلا (وهذه غير فحل الأردنية وهي بيت‌نتيف) وعمواس واللد وتمّا (خربة تبنة) وجفنة وعقربة ويافا ويبنا (يَمْنيا)[٧٥].

وكان لهيرودس حفيد هو أغريبا الذي نشأ في رومة، وكان قريباً من أهل الحكم وحاشيتهم، وكان كاليغلا خدينه قبل أن يتولى العرش. فلما جلس على عرش الامبراطورية (سنة ٣٧ م) جعل أغريبا والياً على ما كان بيد فيليب وسماه ملكاً. ثم لما خلع كاليغُلا أنتيباس ضم ما كان تحت سلطته إلى أغريبا. ثم جاء كلوديوس إلى العرش (٤١ م) وكان يحب أغريبا أيضاً فجعل ما كان من قبل بيد أرخلاوس الذي كان قد جعل ولاية رومانية، تابعاً كذلك لأغريبا. لكن أغريبا لم يعمر طويلاً، فمات سنة ٤٤م.

وبعد ذلك أصبحت فلسطين بكاملها ولاية رومانية[٧٦].

٣ — فلسطين ولاية رومانية:

لما عُزِلَ أرخلاوس من منصبه سنة ٦م لم يجد أغسطوس من يملأ الفراغ من بيت هيرودس، لذلك ضُمّت المنطقة التي كانت

بإمرة أرخلاوس إلى الإدارة الرومانية المباشرة. وكانت هذه المساحة تشمل الجزء الأكبر من فلسطين، فأصبحت البلاد جمعاء ولاية رومانية، وهو الوضع الذي استمر حتى سنة ٦٦م. (تُستثنى من ذلك فترة قصيرة كان فيها أغريبا، حفيد هيرودس وصديق الامبراطور كاليغُلا، ملكاً على البلاد ٣٧ ــ ٤٤م).

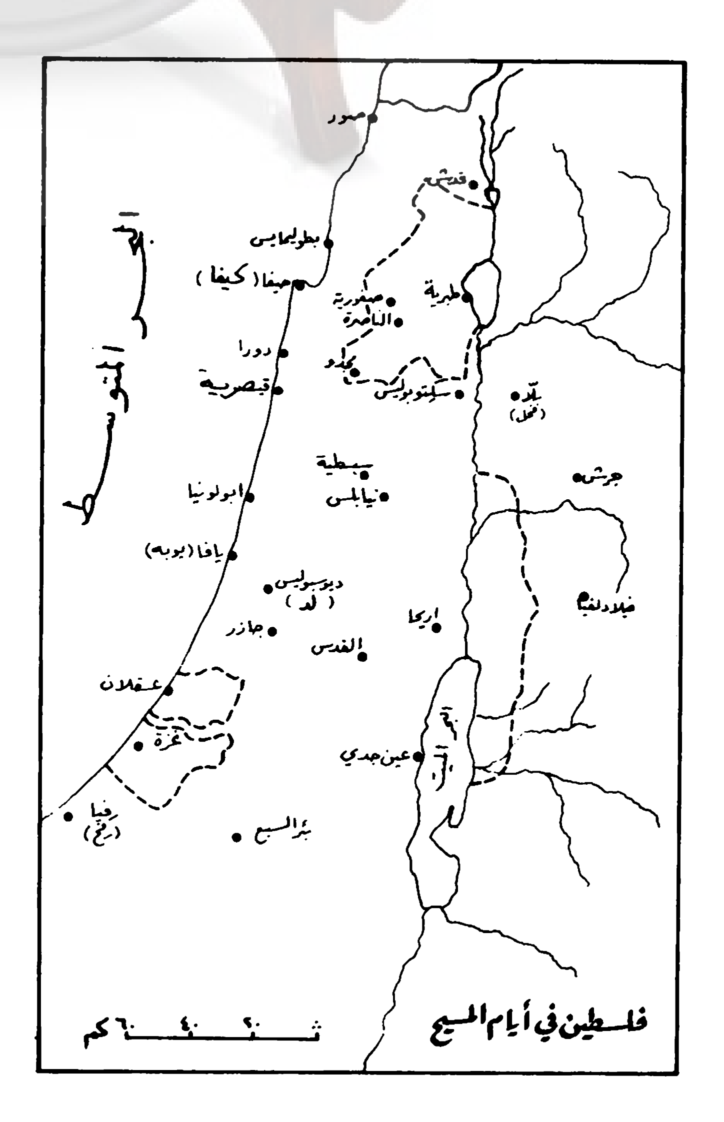
وقد أطلقت الحكومة الرومانية ألقاباً مختلفة على أولئك الذين أرسلتهم لإدارة الولاية الجديدة (وكيل legatus، حاكم prefect، ووال procurator). ومع أنه كان لكل من هذه الألقاب معناه القانوني ودلالته على طبقة الموظفين الذين يختار منها أصلاً، فإن ذلك لم يكن له أية أهمية بالنسبة لفلسطين في ذلك العهد. إذ ان المهم، على رأي شورر، هو السلطات التي كان هذا «الحاكم» يتمتع بها. فقد كان يشرف على شؤون الولاية العسكرية ويتولّى السلطة القضائية العليا ويدير الشؤون المالية.

وثمة أمران يجب أن يُذكرا عن حاكم فلسطين قبل البحث في التفاصيل المتعلقة بإدارته. أولهما أنه لم يكن تابعاً لوالي سوريا، الذي كان أرفع مكانة في سلّم الحكم. إلا أن الوالي كان يستطيع أن يتدخل عند الحاجة، وخاصة إذا كانت الحاجة عسكرية، دون الاستئذان من رومة. أما الثاني فهو أن عاصمة هذه الولاية كانت قيصريّة. هناك كان الحاكم يقيم ومن هناك كان يدير الولاية. أما بيت المقدس فكان يتفقد أمورها بين الفينة والفينة، إلا أنه كان يتوجب عليه أن يقضي أيام الأعياد والمواسم الدينية هناك للحفاظ على النظام[٧٧].

كان الجنود في الامبراطورية الرومانية على نوعين: جنود الفرق legions (وهم النظاميون) والرديف (الاحتياطي). وكانت الفرق هي العصب القوي للعسكرية الرومانية، وكان الانضمام إليها مقصوراً على المواطنين الرومان، وأيّ رجلٍ قُبِل في فرقة legio في الجيش الروماني كان يُمنح المواطنة الرومانية (فيما بعد مكافأة له على خدماته لرومة). وكانت الفرقة تتكون من نحو ستين «وحدة مئة» centurion، فيكون عدد جنود الفرقة الواحدة بين ٥,٠٠٠ و ٦,٠٠٠ جندي. وكان عدد من الفرق (يتفاوت مع الوقت) يقيم في سوريا، لكن فلسطين بالذات لم يكن لها فرقة تقيم فيها. أما جندها فقد كان من الرديف، وهم جماعة يجنَّدون محلياً، من أهل البلد، وكان هؤلاء ينتظمون في «أورَط» (واحدتها أُورطة cohort)، وكانت الأورطة تتألف من مشاة يتراوح عددهم بين الخمسمئة والألف رجل وجماعة من الفرسان يختلف عددهم بين أورطة وأخرى. وكان عدد كبير من هذا الجيش المحلي يقيم في مخيمات تحيط بقيصرية، إلا أن حاميات صغيرة، متفاوتة في العدد، كانت موزعة على مراكز أخرى، مثل أريحا ومَكايْروس (مكاور) وعسقلان وفي مداخل مرج ابن عامر.

وقد كان الحاكم يلجأ إلى تنظيم «ميليشيات» عند الحاجة، وتكون هذه عادة مؤقتة، فتحل عند انتهاء الحاجة إليها وإلى خدماتها.

كان للحاكم السلطة العليا في الشؤون القضائية. وكانت هذه السلطة توضح تماماً في براءة التعيين التي يصدرها الامبراطور عند انتدابه وكيلاً عنه لهذا المنصب. ومع أن الحاكم كان القاضي الوحيد، فإنه غالباً ما كان يلجأ إلى أصحاب الخبرة من أبناء البلد. إلا أنه كان من المألوف أن يشرك الحاكم الموظفين من الرومان الذين جاؤوا معه، خصوصاً أن كثيرين من هؤلاء كانوا يرسلون مع الحاكم كي يدرَّبوا إدارياً تهيئة لانتدابهم لوظائف أكبر في المستقبل. وكان للحاكم أن يصدر وينفذ جميع أنواع الأحكام ومن ذلك الحكم بالإعدام.



فلسطين في أيام المسيح

إلى جانب الإشراف على السلطتين العسكرية والقضائية كان الحاكم يشرف على الشؤون المالية: جمعاً للضرائب التي كانت باهظة وإنفاقاً على المشاريع العامة ودفع الرواتب لكل من يستحقها. وقد كانت الضرائب والمكوس منوعة ومجحفة بالناس. وكانت المكوس تجمع عن طريق التلزيم، وقد يلجأ إلى هذا الأسلوب في جمع الضرائب أيضاً[٧٨].

في سنة ٦٦م. اندلعت في فلسطين حركة عصيان عنيفة ضد الحكم الروماني. على أن بذور هذه الحركة كانت تنمو منذ مدة. وكان للحكام الرومان، على ما يبدو، يد في إثارة هذه الحركة، بسبب جهلهم أو تجاهلهم. وكانت هناك الضرائب المرتفعة. على أن العنصر الفعال في هذه الحركة كان جماعة، صغيرة نسبياً، لكنها كانت نشيطة، لم تكن مستعدة للقبول بأي شيء فيه "الحضارة الجديدة"، أي الحضارة الهلينستية التي استمرت تعمل في الإطار الروماني. فكان الصدام الذي استمر من سنة ٦٦ إلى سنة ٧٤م.

بدأت الثورة في أيام نيرون (٥٤ ــ ٦٨م)، وكان أول قائد روماني عُهد إليه بالقضاء على العصيان فسبسيان Vespasian. لكن هذا اختير امبراطوراً (٦٩ ــ ٧٩م) فانتدب ابنه تيطس Titus قائداً مكانه. وقد أنهى تيطس الأمر، وهدم الهيكل (سنة ٧٠م) الذي كان هيرودس قد بناه مكان المعبد الأقدم أو في مكان قريب منه. وتولى تيطس العرش الروماني (٧٩ ــ ٨١م) بعد أبيه. وبعد القضاء على الثورة ظلت الفرقة العاشرة Legio X Fretensis (من الجيش الروماني) في بيت المقدس، وكانت قد أُرسلت أصلاً للقيام بمهمات عسكرية أثناء العصيان.

كان أحد الضباط اليهود الذين عُهِدَ إليهم بقيادة حركة العصيان في الجليل فلافيوس يوسيفوس Flavius Yusephus الذي نجح في بادىء الأمر. لكنه رأى، فيما بعد، أن يستسلم ويوفر إزهاق الأرواح، وقد تم له أن سلّم نفسه إلى فسبسيان لما كان هذا قائداً للجيش في فلسطين. وليس يهمنا الدور العسكري أو السياسي الذي قام به يوسيفوس، ولكن المهم هو أن هذا الرجل انصرف إلى وضع كتب (باللغة اليونانية) عرض فيها لتاريخ الحرب هذه، ولتاريخ اليهود، ولترجمة ذاتية له. وهذه المؤلفات ذات قيمة خاصة في التأريخ لهذه الفترة التي عاصر يوسيفوس أحداثها وأسهم فيها عملياً[٧٩].

هُدِّمت بيت المقدس نتيجة للحرب العنيفة، وأصبحت لا تعدو كونها معسكراً للفرقة العاشرة التي وضعت هناك. ورفعت درجة حاكم ولاية فلسطين إلى درجة المشيخة، أي أن الحاكم الآن كان يجب أن يكون ممن خدموا في مجلس الشيوخ. وهي منزلة رفيعة اجتماعياً وسياسياً، ومعنى هذا أن التزاحم على هذا المنصب في رومة قد أخذ يتزايد. وظلت قيصرية هي العاصمة.

وفي أيام الامبراطور فسبسيان أُنشئت مدينة عمواس Nicopolis ومنحت لقب المدينة polis. ونشط العمل في نيابوليس التي كان البناء فيها قد بدأ قبل ذلك مكان شكيم القديمة. وأصبحت نيابوليس Neapolis فيما بعد واحدة من كبريات المدن الرومانية في فلسطين، واشتهرت بالألعاب وحفلاتها التي كانت تقام فيها. ولْنُشِر، بهذه المناسبة، إلى أن القرن الثاني الميلادي شاهد إنشاء المدن التالية: إيليا كابيتولينا، وهي بيت المقدس الجديدة، وصفورية (الجديدة) وسميت ديوسيزرية Diocaesarea وهذه كانت قد مُنحت منزلة مدينة من قبل، واللد وسميت ديوسبوليس Diospolis وجعلت مدينة، وبيت جبرين التي أصبح اسمها إليوثيروبوليس Eleutheropolis.

ومما أُدخل في صلب الإدارة الفلسطينية في الأيام الأولى للولاية الرومانية توسيع أراضي المدن وتقوية الإدارة البلدية. وقد طُوِّر هذا النظام فيما بعد فأصبحت البلاد في غالبها «أراضي المدن» بحيث كادت الإدارة أن تتحول إلى «اتحاد مدن». فالمدن التالية كانت قد أصبحت مستقلة استقلالاً ذاتياً منذ أيام فسبسيان وهي: يبنا (يمنيا) وأسدود (أزوتوس) وأنتيباترس (رأس العين) وأرسوف (أبولونيا) Apollonia وجبع (على مقربة من الكرمل) ويافا (فلافيا يوبي) Flavia Joppe وطبرية. ووسعت أراضي كل من صفورية وطبرية (لعل هذا تم في أيام هدريان). أما قضاء بيت المقدس فقد قُسم إلى إحدى عشرة وحدة إدارية، وهذه، مثل الجليل الأعلى ظلت تحت سلطة الحاكم المباشرة[٨٠].

على أن محاولة إنشاء مدينة هيلينية محل بيت المقدس القديمة أدّت إلى قيام عصيان كبير (١٣٢ ــ ١٣٥م) في فلسطين. ذلك أنه بعد تدمير الهيكل على يد تيطس سنة ٧٠م انتهى الأمر إلى حل السنهَدريم، وهو المجلس اليهودي الديني الأعلى، والتوقف عن العبادة في بيت المقدس بسبب تدمير الهيكل. وانتهى سلطان الكهنة والصدوقيين وتقدم للقيادة الفريسيون ومعهم رجال من العلماء المتدينين. واتخذ هؤلاء يبنا (يمنيا) مركزاً لأعمالهم الدينية، حيث قام ما يشبه السنهدريم المقدسي (السابق)، وأصبحت يبنا مركزاً للدراسات التوراتية على اختلاف أنواعها. وفيها تم جمع عناصر الشريعة اليهودية وتصنيفها التي تسمى «المشنا»[٨١].

ومن أباطرة القرن الثاني للميلاد تراجان، وقد كان له علاقة وثيقة بالمشرق، ومن ثم بفلسطين. حكم تراجان بين سنتي ٩٨ و١١٧م، وفي سنة ١٠٦ احتل البتراء وقضى على دولة الأنباط سياسياً. وهذه السياسة التي بدأها تراجان هي سياسة الضم. ونجد مثلين آخرين للقرن التالي في أديسا (الرها) سنة ٢٤٤م وتدمر (بلميرا) سنة ٢٧٢م. والنظرة التي رأى فيها تراجان عمله يمكن تفسيرها بأنه لم يعد ثمة مجال، في رأيه، لمراكز تجارية مستقلة قريبة من حدود الامبراطورية. هذه المراكز يجب أن تصبح جزءاً من الامبراطورية فتصب تجارتها في المجرى الرئيس للتجارة الرومانية والاقتصاد الروماني.

وتحقيقاً لهذه الخطة بنى تراجان طريقاً يصل العقبة ببُصرى Bostra. سميت الطريق فيانوفا Via Nova، أي الطريق الجديدة. وجعل من منطقة الأنباط التي احتلها وجزء من جنوبي الأردن ولاية جديدة سماها «الولاية العربية» وكانت بُصرى عاصمتها، كما جعلت هذه مقراً للفرقة الثالثة سيرينايكا Legio III Cyrenaica.

إلا أن البتراء لم تفقد قيمتها التجارية، وظلّت مرتبطة مع الجنوب والشمال (المدن العشر ــ ديكابوليس ــ ودمشق) والشمال الغربي (غزة) وعبر سيناء مع مصر. والواقع أن الأسواق التي كانت تُعْرَض فيها السلع التي يحملها الأنباط اتسع مجالها عبر دمشق إلى أرض الرافدين. وقد أفادت الخزينة الرومانية من المكوس والرسوم الجمركية التي أصبحت تقبضها بعد الضم[٨٢].

كان هدريان بنّاء فناناً، وكان معجباً بالمشرق، لذلك أراد أن يقيم مدينة جديدة مكان بيت المقدس القديمة، التي كانت لا تزيد عن كونها معسكراً ومخزناً للجنود. فاختط لذلك على أساس أن تكون المدينة الجديدة مستعمرة رومانية باسم إيليا كابيتولينا، وفيها هيكل روماني وجميع المؤسسات الرومانية العمرانية والثقافية (١٣٠م). هذه المحاولة أدت إلى عصيان ثان بقيادة سمعان باركوخبا Bar-Kokhba أو باركوسيبا Bar-Kosiba. وقد دامت هذه الحركة، التي يصر بعض المؤرخين على تسميتها ثورة، من ١٣٢ إلى ١٣٥م، وكانت نتيجتها تدمير عشرات القرى وقتل الألاف من الناس. وكانت المعركة الأخيرة التي قضى فيها الرومان على الفئة اليهودية نهائياً هي معركة بيتر (بتّير الحديثة) الواقعة على نحو عشرة كيلومترات إلى الجنوب الغربي من القدس.

وبعد انتهاء الأعمال العسكرية بنى هدريان مدينته الرومانية على نطاق واسع وفن جميل وأخرج منها من كان فيها من اليهود، وحظر عليهم دخولها أو الإقامة فيها. ومن يومها عُرفت باسم إيليا كابيتولينا.

وقد وضع هدريان فرقة عسكرية أخرى في فلسطين هي الفرقة السادسة فراتا Legio VI Farrata التي جعلت مجدّو (تل المتسلم) مركزاً لها. وسميت تل المتسلم من ذلك الوقت لجيو Legio وهي اللجون الحديثة، وأُعطيت مرج ابن عامر ملكاً تابعاً لها.

يعتبر الأباطرة الذين تولّوا عرش رومة بين ٩٦ و١٨٠م «الأباطرة الخمسة الصالحين» وهم نرفا وتراجان وهدريان، وقد أشرنا إلى هذين الأخيرين من قبل، ويليهم أنطونيوس بيوس Antonius Pius (١٣٨ ــ ١٦١م) ومرقس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦١ ــ ١٨٠م) الامبراطور الفيلسوف. وبهذه السلسلة من الأباطرة نصل إلى نهاية فترة منتظمة في تاريخ الرومان هي المعروفة بالسلم الروماني (من أغسطوس إلى أوريليوس). وبعدها تأتي فترة كثيرة الاضطراب والفوضى[٨٣].

٤ ــ المسيحية ــ نشأتها وانتشارها الأول:

كانت الفترة التي عبرت بفلسطين من أيام أغسطوس إلى احتلال تيطس لبيت المقدس تنبض بجميع العناصر المتحركة، سلباً وإيجاباً. كانت السلبية تتمثل في موقف اليهود العدائي نحو الهلينية حضارة وفكراً وفلسفة، ونحو الدولة الرومانية التي لا تألو جهداً في المحافظة عليهم ومنحهم الامتيازات، إلا أنها كانت تطلب منهم أن يقبلوا بالآلهة ــ الأباطرة الرومان. ولأن اليهود كانوا قد رسّخوا عقائدهم الدينية وربطوها بأمور كثيرة أصبح ضيق الأفق الصفة الملازمة لتصرفهم. ذلك أن الجماعة الدينية اليهودية المقدسية فضلاً عن إيمانها بالتوحيد والتجرد الإلهي، قد اتخذت لها قواعد دينية غريبة عن القوم، فكانت تجعلها، كجماعة مضطرة إلى اعتزال الآخرين اجتماعياً كي يتم لها خلاصها. لكن أهم حتى من قواعد الطعام والطهارة هناك قضايا كانت تُشْعِر الآخرين بأن اليهود كانوا شيئاً يختلف عنهم تماماً. وهذه يمكن تلخيصها فيما يلي: (١) إن الله اختار شعباً خاصاً به هو الشعب اليهودي. وهو وحده الشعب الذي وجُهت إليه الرسالة، وهو يقبلها وينشرها داخلياً بين أفراد هذا الشعب وأبنائه فقط، بحيث ان الأمر كله كان حكراً. وإذا كانت الأسرة الحشمونية قد فرضت التهوّد على أهل الجليل وأدوم، فقد كانت وراء هذه الحركة دوافع سياسية لا دينية، لأن اليهودية لا تقبل دخول غير اليهود فيها. ومع أن الأدوميين أصبحوا يهوداً (سياسياً) فقد ظل

اليهود يعتبرون قادتهم أجانب. (٢) يعتقد اليهود أن مملكة ــ أو ملكوت السماوات ــ ستقوم على الأرض، وأنها آتية لا ريب في ذلك، وأن مجيئها أصبح وشيكاً. وهذه المملكة الإلهية المنتظرة هي يهودية بطبيعة الحال. (٣) وهذه المملكة سيتحقق وجودها على يد مخلّص منقذ (مَسِيًّا) Messia. وفي هذه المملكة يعود إلى الشعب اليهودي عصره الذهبي. (٤) أصبح للهيكل مكانة خاصة (أكبر بكثير من ذي قبل) في الحياة الدينية اليهودية، فطقوس العبادة، على تنوعها، لا يجوز أن تُغَيَّر قط؛ فضلاً عن ذلك فإن العبادة الصحيحة يجب أن تتم في الهيكل.

ليس في هذه الآراء والمعتقدات الدينية شيء جديد يعود إلى الفترة التي أشرنا إليها. فكون اليهود شعب الله المختار أمر كان اليهود يعتقدون به من قبل على أساس دعواهم أن عهداً قطعه الله لهم. لكن الجديد هو نقل هذا العهد المزعوم تدريجاً إلى الوراء في الزمن حتى أصبح يعود إلى عهد الخليقة بعد أن كان أولاً من عهد إبراهيم ثم من عهد نوح. أما الأمور الأخرى، أمور العبادة، فقد فُصّلت في العقود التي ذكرناها، ثم استمر هذا التفصيل والتفسير والشرح والترسيخ فيما يلي ذلك.

سوريا في عهد الرومان

وكان الفريقان الرئيسيان في المجتمع الديني اليهودي الفريسيّين والصدوقيين. كان الفريسيون يرون أن القيام بالطقوس الدينية بحرفيّتها وبدقة يعطي المؤمن ما يشبه الرصيد للمستقبل. أما الصدوقيون فقد كانوا أكثر اهتماماً بالنفوذ السياسي والسلطة، وكانوا يحظون بتأييد ٬أصحاب المدى٬[٨٤].

في هذا الجو جاء المسيح. جاء برسالته التي تتلخص بأن ملكوت الله هو هبة الله للبشر أجمعين، وأنه يتم بإرادة الله. والحصول عليه يتم بالتوبة ــ بالولادة الثانية ــ والتنازل عن متاع الدنيا. والوصول إلى هذا الملكوت يصبح أمراً روحياً داخلياً في نفس كل مؤمن، ولا يكون الانضمامَ إلى مملكة على هذه الأرض. وحملت دعوة المسيح تحريراً للإنسان من القيود والأربطة التي لفّتها الجماعة الدينية المقدسية حوله، فقيدت المجتمع فرادى وجماعات.

ودعا المسيح، واتضح هذا على أيدي تلاميذه وشرّاح دعوته فيما بعد، إلى عبادة إله واحد لكنه بأقانيم ثلاثة: الأب والابن والروح القدس[٨٥].

والمصادر الرئيسة لحياة المسيح وتعاليمه وانتشار هذا الدين في أول أمره هي أسفار ٬العهد الجديد٬ من الكتاب المقدس. وهذه تشمل الأناجيل الأربعة: متّى ومرقس ولوقا ويوحنا؛ وتشمل ٬أعمال الرسل٬، وهو سفر فيه شروح وتفاسير للتعاليم الرئيسية وأخبار تنقل رسل المسيح الأوائل في أنحاء عالم البحر المتوسط يومها؛ ويشمل مجموعة ٬الرسائل٬ التي كتبها الرسل إلى الجماعات المسيحية المنتشرة في بعض مدن العالم الروماني. والباحثون متفقون على أن الأناجيل الثلاثة الأولى كُتبت بين سنتي ٦٠ و ٩٥م، وأن إنجيل يوحنا كتب حوالي سنة ١٠٠م. أما أعمال الرسل فقد دُوِّنت في القرن الأول على الغالب. والرسائل المختلفة كتبها الرسل أثناء تنقلهم في سبيل نشر المسيحية.

ولا شك في أن الرسل عملوا كثيراً في سبيل توضيح التعاليم المسيحية وتفسيرها ونشرها، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من الصعوبات، ولكن الأمر الذي يجب أن لا يغرب عن البال هو أن المسيح نفسه هو الذي وضع أسس الدين المسيحي لا في تعاليمه فحسب، بل في تصرفه أيضاً.

ولد المسيح في بيت لحم وذلك سنة ٤ ق. م. وسبب هذا الذي يبدو خطأ يعود إلى الذي وضع أسس التاريخ من ميلاد المسيح، وهو ديونيسيوس اكسيغوسُس Dionysius Exigusus من أهل القرن السادس الميلادي (حوالي ٥٠٠ إلى ٥٦٠). وقد كان عالماً رياضياً كبيراً ولاهوتياً مرموقاً. لكن ديونيسيوس لما حسب

تاريخ ولادة المسيح ربطها بتاريخ إنشاء مدينة رومة التقليدي وهو ٧٥٣ ق. م، إلا أنه أخطأ في حسابه بنحو أربع سنوات، ومن هنا جاء هذا الفرق.

والمصادر التي بين أيدينا لا تفي بالحاجة فيما يتعلّق بأيام المسيح الأولى، لكن الصورة بالنسبة للأوقات الأخيرة له على الأرض واضحة.

وقد جهد كثيرون من الكتاب والمؤرخين في سبيل التدليل على العناصر اليهودية في المسيحية. وليس من سبيل لإنكار الصلة بين الدينين. فقد قبلت المسيحية بعض الآراء اليهودية شكلاً، ولكن المهم، في النهاية، هو أن المسيحية كانت ثورة روحية على تقيّد المجتمع اليهودي. فالمسيحية اهتمت بالطهارة القلبية والإيمان بالروح أكثر من الاهتمام بالطقوس. وقد أشار المسيح إلى ذلك غير مرة في تعاليمه. والمسيحية اعتبرت الناس جميعاً سواء، بينما اقتصرت اليهودية على «شعب مختار من الله». واهتمت اليهودية بالهيكل، بينما دعا المسيح إلى تنقية القلب وتطهيره بحيث يصبح مكاناً لائقاً لأنْ يُعبَد الله فيه في كل وقت ومكان[٨٦].

وقد ظهر للمسيحية اتجاهان بعد انتشارها الأول المحدود: فقد كانت هناك ما يسميه المؤرخون المسيحية اليهودية والمسيحية الهلينية. فقد كان المسيحيون، خاصة في بيت المقدس، يعتبرون فرقة يهودية، وكانوا يقبلون بعضاً من طقوس اليهود ويؤمنون بأن المسيح هو المخلّص (المسيّا) المنتظر. وكانوا يتوقعون المجيء الثاني للمسيح. ولأن اليهود لم يقبلوا السيد المسيح على أنه 'المسيّا' المنتظر، فقد كانوا يعتبرون هؤلاء المسيحيين خوارج على الدين اليهودي، لذلك اعتدوا عليهم واضطهدوهم، لكن ذلك لم يفتّ في عضدهم. وهذه الجماعة المسيحية التي نظمت نفسها نسبياً في بيت المقدس هي التي خرج منها الكثيرون من الرسل والمبشرين الأوائل.

أما المسيحية الهلينية فقد بدأت في القدس أيضاً، لكن سرعان ما ظهرت خصائصها في أنطاكية (وفي هذه المدينة سُمي المسيحيون بهذا الاسم لأول مرة). وأبرز ما في هذه الخصائص أن هؤلاء المسيحيين لم يروا أنفسهم 'طائفة يهودية' أو 'فئة يهودية'. هذه المسيحية هي التي اعتبرت نفسها ديانة جامعة عامة. وقد تخلّت عن الطقوس اليهودية. ويُعتبر بولس أكبر المفسرين لها.

لكن الذي يجب أن يُذكر هو أن النوعين ـ المقدسي والانطاكي ـ كانا متفقين حول الأصول وهي: قبول المسيح الذي قام من بين الأموات بعد صلبه، والاعتراف بالروح القدس، وممارسة العمّاد وقبول العشاء السرّي المقدَّس (الذي تمثله الشركة)، وهي تناول الخبز والخمر باعتبارهما ممثلين لجسد المسيح ودمه، وذلك أثناء القداس الإلهي[٨٧].

والفترة الأولى لانتشار المسيحية يمكن أن تُقسم إلى ثلاثة أدوار. الدور الأول هو الذي تلا أيام المسيح مباشرة، والذي يُسمى عصر الرسل (٣٠ ـ ٩٥م). والثاني يمتد نحو قرن من نهاية القرن الأول إلى أواخر القرن الثاني. وينتهي الثالث باعتناق قسطنطين Constantine المسيحية سنة ٣١٢م.

في الدور الأول كانت بيت المقدس المركز الأول للجماعة المسيحية، هذا مع العلم بأن الأماكن التي بشّر فيها المسيح أكثر أيامه وعمل فيها تلاميذه كانت في الجليل. وقد مر بنا أن هذه الجماعة لقيت الأمرّين على أيدي اليهود. وفي سنة ٣٧م وقع على الجماعة اضطهاد واستُشهد فيه إسطفان. وقد أدى ذلك إلى خروج جماعة من المسيحيين المقادسة إلى بلاّ (فحل) ومنها نشروا المسيحية في أواسط الأردن. وفي الوقت ذاته كانت جماعة انطاكية تتقدم في تنظيم أمورها ونشر المسيحية في الجوار وفي غير الجوار شرقاً وشمالاً. ولسنا نَنوي هنا التحدث عن الرسل وأعمالهم، فهذا في الواقع خارج موضوعنا. ولكننا نكتفي بالقول بأنه حوالي سنة ١٠٠م كانت المسيحية قد انتشرت بين جماعات صغيرة كثيرة متفرقة في أنحاء الامبراطورية الرومانية. فكانت هذه الجماعات في صور وصيدا وانطاكية وأديسا (الرها) وقبرص، فضلاً عن فلسطين.

وفي الدور الثاني كان الانتشار خارج فلسطين أسرع. أما فلسطين فقد كانت أبطأ في قبول المسيحية، ولعلّ السبب يعود إلى مقاومة اليهود لها. وقد عرفت دمشق المسيحية في هذه الفترة. أما مصر، فبحسب التقاليد، دخلتها المسيحية على يد مُرقس. وقد تقوّت الكنيسة المسيحية هناك في القرن الثاني للميلاد. ولعلّ مصر كانت منطلق المسيحية إلى شمال أفريقيا.

وإذا نحن أخذنا المناطق التي انتشرت فيها المسيحية وجدنا صفات لهذه الظاهرة التاريخية تتفق فيها جميعاً. وأولها أن المسيحية انتشرت بادىء الأمر في المدن لا في الريف. فكأنها كانت، أو لعلها بسبب ذلك أصبحت، ذات صلة وثيقة بالحضارة الهلينية، على الأقل فيما يتعلق بانتشارها في الغرب. وثانيها أن المسيحية في المشرق اتخذت اللغة السريانية لغة التخاطب والكتابة، فيما كانت اليونانية لغة الكنيسة في نطاق الحضارة

الهلينية. أما في شمال أفريقيا وإيطاليا وإسبانيا وبلاد الغال فقد كانت اللاتينية لغتها. وثالث هذه الصفات هو أن نشر المسيحية كان عمل أفراد، لا عمل جماعات. فالمبشِّرون بالمسيحية كانوا يقومون بالعمل شخصياً دون الضرورة في أن يرجعوا إلى مؤسسة ترعاهم أو تنظمهم. وأخيراً هو أن الجماعات المسيحية نظمت نفسها في كنائس محلية لكل منها رئيس ومجلس يدبر أمرها. وكل ذلك عمل محلي لا تنظيم عاماً له[٨٨].

كان الاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون، وخاصة في بيت المقدس وبضع نواح في فلسطين يقوده اليهود. وليس لدينا أي وثيقة تدلنا على موقف الدولة الرومانية من هذه الجماعة وتعاليمها في أول الأمر. ولعلَّ القائمين بالأمر في فلسطين من حكام وإداريين ظلوا يعتبرون هؤلاء المسيحيين فريقاً يهودياً حتى هدم تيطس الهيكل في بيت المقدس. عندها اتضح أن هناك فرقاً بين المسيحيين واليهود، لأن الأولين لم يتأذوا من الذي حدث. وكل ما يمكن أن يُضاف إلى ذلك، بالنسبة للمسيحيين في جهات أخرى، هو أن هؤلاء المسيحيين كانوا يعقدون اجتماعاتهم في أماكن نائية عن المجتمع، وهذا أثار حولهم بعض الشبهات، وأهمها التآمر على سلامة الدولة. فطالب البعض بمحاكمتهم. ومما كان يثير بعض الفئات ضد المسيحيين أنهم كانوا ينظرون إلى الآلهة الأخرى نظرة صغار وإلى عبّادها نظرة احتقار. فكانت الجماعات الأخرى تهاجمهم وتوقع الأذى بهم.

وقد بلغ الأمر ناحيته الرسمية لما امتنع المسيحيون عن عبادة الامبراطور وتقديم القرابين له. هذا العمل اعتبرهم خارجين على الدولة، وإذن فقد حُقّ عليهم العقاب.

وقد تمثَّل موقف الخصومة ضد المسيحية في أمور ثلاثة. أولها قيام بعض السكان ضد المسيحيين غيرة منهم على آلهتهم، وكانوا يكبّدون المسيحيين خسائر فادحة. وثانيها هو دحض دعاوى المسيحيين في كتب ألفت خصيصاً لذلك. والثالث هو الاضطهاد الرسمي الذي كان يتم بأمر من الامبراطور. وفي الدور الثاني من انتشار المسيحية (٩٥ ــ ١٨٠م) عرف ستة من الأباطرة باضطهاد المسيحيين. وكان الاضطهاد يتم محلياً في غالب الأحيان، أي أنه لم يشمل المسيحيين جميعهم ولا في كل مكان يوجدون فيه.

على أن الاضطهاد الذي تعرض المسيحيون له جاء في القرن الثالث، وكان آخر اضطهاد هو الذي أمر به ديوقلتيان Diocletian سنة ٣٠٢م[٨٩].

٥ ــ الحياة الاقتصادية:

يجدر بنا، قبل أن نتحدث عن تطور الحياة الاقتصادية في فلسطين بين مجيء بومبي ونهاية عصر السلم الروماني، أن ننبّه إلى بضع ملحوظات لعلها تعيننا في توضيح المعالم الرئيسة.

(١) مع كل ما مر بفلسطين أيام البطالمة والسلوقيين من اضطرابات وثورات، فقد أصبح اقتصاد البلاد جزءاً من الاقتصاد الهلينستي الواسع المدى، وكان يتأرجح بنسبة ما يتأرجح اقتصاد العالم الهلينستي مجتمعاً ومنفرداً ــ أي امبراطورية أو دولاً.

(٢) لما جاء الرومان، وحلّوا محل السلوقيين في ديار الشام (والبطالمة في مصر)، تبدّل الوضع إلى درجة كبيرة. فقد أصبحت جميع الطرق البرية التي تربط الشرق النائي بالبحر المتوسط تحت سيطرة رومة ضمن حدود امبراطوريتها.

(٣) بين مجيء بومبي وتنظيمه للبلاد (٦٣ ق. م) وتولي هيرودس (٣٧ ق. م) تعثر الاقتصاد الفلسطيني محلياً بسبب التقلبات التي أُصيبت بها فلسطين نتيجة ما أصاب رومة من مشكلات وتحالفات وحروب أهلية وخلافات. لكن هيرودس (٣٧ ــ ٤ ق. م) ضبط الأمور، وأمّن الطرق فانتعشت التجارة الداخلية، وانعكس هذا على الوضع الاقتصادي العام. إلاّ أنّ الأمور لم تستقر تماماً بعده، ولذلك تضعضعت الموارد الاقتصادية والإنتاج الزراعي[٩٠].

(٤) ليست تربة فلسطين، باستثناء مرج ابن عامر وبعض الأودية الداخلية وأجزاء من السهل الساحلي الأوسط، بغنية، وان كمية المطر الذي يسقط في البلاد محدودة وقليلة في بعض الأماكن. فالعمل الزراعي شاق، ومردوده قليل على وجه العموم. ومع ذلك تظل الزراعة العماد الأول لحياة السكان.

(٥) إن جزءاً كبيراً من أراضي فلسطين، ومن الأراضي الخصبة بالذات، كان ملكاً لأصحاب السلطان، بقطع النظر عن الطريقة التي حصلوا عليه بها. فمنذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد كانت مناطق واسعة في الجليل قد أصبحت خاصة بالمَلِك، بطليمياً كان أم سلوقياً. وفي أواخر القرن الثاني قبل الميلاد كان هركانوس الحشموني (١٣٤ ــ ١٠٤ ق. م) يملك الأراضي الواسعة في مرج ابن عامر ومنطقة اللد. وقد صادر هيرودس مساحات واسعة من الأرضين من خصومه السياسيين. وأكثر هذه الأراضي الأميرية يومها أصبحت فيما بعد ملكاً للدولة.

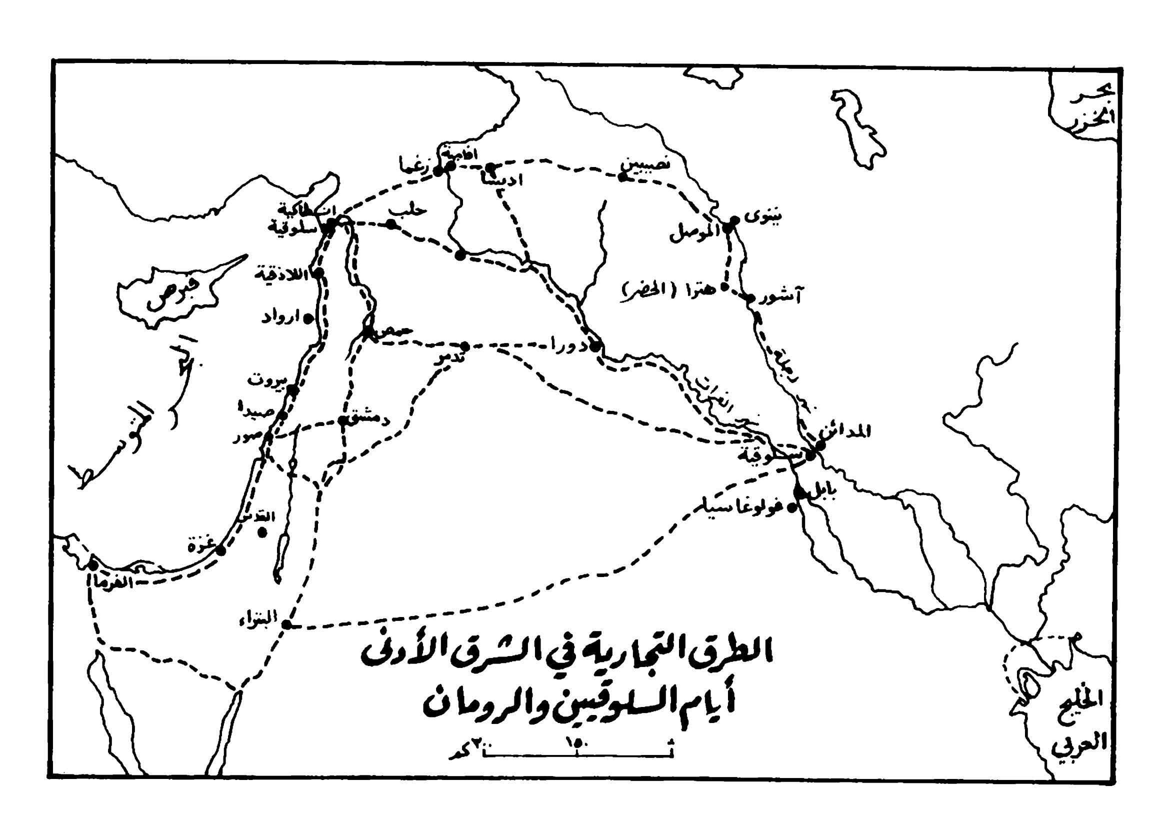
(٦) كانت الخصومة بين الريف والمدينة عنيفة في تلك الأثناء. وكان الفلاحون يلقون الكثير من العنت على أيدي سكان المدن المموِّلين، فكان هؤلاء يستولون على أراضي الفلاحين الصغار بأساليب احتيالية[٩١].

(٧) يبدو أنه في الفترة الرومانية الأولى كانت في فلسطين مستوطنات صغيرة عُرفت باسم (إر) ER، وهي تشبه ما يسمى بالفلا الرومانية. فقد كانت هذه مزارع كبيرة يملكها كبار الملاكين ويقيمون فيها. وقد انتشرت هذه بين اللد ورأس العين (أنتيباترس)، ويوجد أثر منها جنوبي بيت لحم في هيروديوم (فريديس)[٩٢].

أما من حيث النشاط الاقتصادي فلا شك أن التوقف الأول يجب أن يكون عند الزراعة، فهي، في أغلب الأزمنة التاريخية، المورد الرئيسي لحاجات السكان. وقد قُدرت مساحة فلسطين (مع بيريا من شرقي الأردن) بنحو مليون هكتار (أي نحو ١٠,٠٠٠ كم مربع). وقد قدَّر ريفنبرغ Reifenberg الأجزاء التي كانت تُستغل في العصور القديمة بما يعادل ٦٥ ــ ٧٠٪ من المساحة. وبسبب ارتباط كثير من المنتوجات الزراعية بالقرابين التي كانت تقدم في المواسم والأعياد، فإننا نجد معلومات لا بأس بها تتعلق بالنتاج الزراعي. فخير أصناف الطحين (للفطير) كان يأتي من مشماش (شمالي بيت المقدس)، ومن الجليل الأدنى (من بيت شمس). وكان الشعير المبكر الجيد يأتي من صرفند ومن نابلس (شكيم). كما كانت السامرة تنتج أنواعاً جيدة من الخمور من بيت ريما وقرية بني حسن (الحاليتين). وكذلك كانت بيت لَوان (الواقعة شمالي خربة المَفْجَر قرب أريحا) تنتج خمراً جيداً. وكان زيت الزيتون يُحمل من طُقُع (خربة شمّا) في الجليل. ولم يكن يعدل العجول التي تُحمل من السهل الساحلي الأوسط عجول أخرى. وكذلك كان الأمر مع خراف الخليل. والسهل الساحلي عموماً كان ينتج الحبوب والخمور[٩٣].

وكان للمناطق التي يغلب على سكانها أن يكونوا (أصلاً) من اليونان والمقدونيين والفينيقيين والرومان (فيما بعد) اهتمامات زراعية خاصة قد ترتبط بالأسواق الخارجية. فعسقلان كانت تشتهر بالبصل والحنّاء والحبوب وبعض أنواع البقول. وقيصرية تعنى بالخمور والماشية، وعكا بالقمح، واللد بالخمور والتين. ومنطقة رأس العين كانت معروفة بالخمور والقطاني والقرع الكبير (الأصفر). وكانت عمواس تشتهر بالخمور، وسبسطية (السامرة) بالخمور والفواكه، وبيسان (سكيثوبوليس) بالحبوب والزيتون[٩٤].

ويرى أبلباوم Applebaum أن بعض النباتات أُدخلت إلى منطقة بيت المقدس في العصر الهلينستي، وذلك عن طريق اليونان الذين كانوا يعملون في الأملاك الأميرية. وتذكر «المشنا» من هذه النباتات (وتعتبرها مصرية) الخردل والعدس واللوبيا والكوسى.



وفي أيام الرومان المبكرة حُمل الأُترجّ والمشمش والدراق من إيطاليا (وكانت هذه قد نُقلت أصلاً من المشرق إلى إيطاليا على أيدي التجار المشارقة)[٩٥].

وكان من المألوف أن يزرع الفلاح إلى جانب الغلال الكبيرة أو الأصلية عدداً من النباتات الإضافية مثل الأرُز (الذي كان معروفاً في وادي النيل وفي أرض الرافدين)، والخضار اليومية مثل الملفوف والشمندر (البنجر) واللفت والبصل والخيار. وكانت الإفادة من هذه النباتات التي قدمنا أمثلة عليها تتوقف على طبيعة الأرض وتوفر المياه والسماد وما إلى ذلك. وهناك نباتات كانت تُزرع حتى في أماكن لا تتوفر فيها إلا جلال من الأرض مثل الخردل والكمون والثوم. وكانت القطاني المصدر الأساسي للتغذية لعدد كبير من السكان، إذ كانت بعض أصنافها، مثل العدس والترمس والبازلا وأنواع من الفاصوليا، تقوم مقام اللحوم في حياة الكثيرين من الناس. وكان من بين المزروعات المستعملة في الصناعة الرناس (الفوة أو النيلة البرية) والنيلج، اللذان كانا يستعملان في صباغة القماش المصنوع من القنّب والكتّان والقطن. ويبدو أن الكتّان كان يُنتج في الجليل بكميات لا بأس بها؛ أما القنّب والقطن فقد كان إنتاجهما أقل من ذلك[٩٦].

وقد عُرفت بعض الغلّات الزراعية الفلسطينية خارج البلاد بالذات، مثل التين والتمر، اللذين قُدِّما على موائد الامبراطور أغسطوس. وكان أجود أنواع التمر يأتي من غور الأردن الجنوبي (منطقة أريحا) وبعض شواطىء البحر الميت. ومثل ذلك يُقال في البلسم وكانت مزارع التمر والبلسم أملاكاً أميرية[٩٧].

كانت العناية بتربية الحيوانات، أي الأبقار والخراف والماعز، موضع تشجيع رسمي وشعبي، وذلك لارتباطها بالتقدمات والقرابين. وكان الحليب يُستعمل في صناعة الأجبان. وكانت فلسطين مشهورة بالحمير الفارهة والطيور، وخاصة الحمام، والنحل (لجني العسل). وكان الحمار الفاره يباع بنحو مئة دينار، والثور الجيد بمثل ذلك، وكذلك البقرة الحلوب. وقد يصل ثمن الثور أو البقرة مئتي دينار. وقد بيع حَمَلٌ واحد في بيت المقدس بألف دراخما صوريّة[٩٨].

وكان تملّك الأرض يخضع لتشريعات متنوعة، كما أن الأملاك الأميرية قد تكون نتيجة المصادرة لا أكثر ولا أقل. ففضلاً عن الأملاك الأميرية الواسعة كان هناك أملاك خاصة ضخمة. فيوسيفوس المؤرخ، وبطليموس مستشار هيرودس، وكُومبوزوس، وفيليب ابن ياسيموس، وكوستبار الأدومي، (من الحاشية)، كانوا يملكون أطياناً واسعة في قرية عروس (حريس) وفي جهات الجليل والسهل الساحلي. وكانت ثمة أراض واسعة يملكها الهيكل، وقد صودرت بعد تدميره على يد تيطس ثم هدريان. فإذا تذكرنا هذا كله لا نجد شيئاً من الغرابة في أن تكون حصص صغار الملاكين صغيرة فعلاً. فقد عُرف أن الكبيرة جداً منها كانت نحو سبعة هكتارات ثم تهبط إلى نحو خمسة هكتارات، على ما نعرف عن أرض من هذا الحجم كان يملكها قريبان للمسيح. وهناك اتفاقات تتعلق باستثمار الأرض تشير إلى أن مساحة القطعة من الأرض التي يدور الاتفاق حولها قد لا تتجاوز ربع هكتار. لذلك لم يكن غريباً أن تشيع البطالة خارج المواسم الزراعية[٩٩].

قد يكون من المناسب أن نلقي بالنا إلى السكان الذين كانوا يقيمون في فلسطين في الفترة التي نحن معنيون بها الساعة. إن المصادر اليهودية تهتم بأحوال الجماعة الدينية في بيت المقدس بحيث يبدو أن البلاد لم يكن يقطنها سوى هذه الفئة، مع أن الواقع غير هذا تماماً. ففلسطين كانت دوماً موطن شعوب كثيرة ومتباينة. ولم يكن العصر الهلينستي أو العصور الرومانية لتختلف عن القاعدة. ففي العصر الهلينستي قَطَنَ الأدوميون العرب في الجنوب. ومع أن اليهودية فرضت عليهم، فهذا لم يمنع بقاءهم عرباً يومها وبعد ذلك. وكانت جماعات عربية تستوطن البلاد منذ مدة طويلة وخاصة في الأجزاء الشرقية والشمالية الشرقية (وهم من الأيطوريين العرب). والمعروف أن الأجزاء الشرقية من فلسطين كان يدخل إليها وباستمرار فائض سكاني عربي من الأردن. وقد كان ثمة عرب يقيمون حتى على مقربة من قيصرية الساحل في فلسطين. وكان هناك بقية من الفلسطينيين الذين كانوا يغشون مناطق واسعة من السهل الساحلي الجنوبي. ومدن الساحل مثلاً وبعض مدن أُخرى، مثل مريسة، كانت فيها جاليات فينيقية. هذا إلى المقدونيين واليونان والرومان ــ جميع هؤلاء جاؤوا البلاد جيوشاً ومستعمرين وتجاراً ومستوطنين وأقاموا في النهاية في البلاد وتوطنوا. وأكبر دليل على أثر الجماعات اليونانية مثلاً هو حضارتهم التي نُشِرت في ربوع البلاد، ولغتهم التي انتشرت بين السكان.

ليس من اليسير الحصول على أرقام تدل على عدد السكان. والأرقام التي وصلتنا، على نحو ما ورد عند يوسيفوس عن خسائر الحربين اللتين قامتا بين بعض اليهود والرومان، واللتين يصر المؤرخون اليهود على تسميتهما بالثورتين (٦٦ ــ ٧٤ و١٣٢ ــ ١٣٥م) وعن الزوار في أيام المواسم في بيت المقدس تتصف بالمبالغة، يقول يوسيفوس ان خسارة الحرب كانت

١,١٠٠,٠٠٠ نفس، ويذكر أن زوار بيت المقدس في أيام الفصح كان يصل عددهم إلى ثلاثة ملايين زائر[١٠٠].

وقد قدّر بلوخ Beloch عدد سكان بلاد الشام في العصر الروماني الأول (أي في القرنين الأول والثاني) برقم يتراوح بين خمسة وستة ملايين نسمة. وفي نقش عن إحصاء أُجْرِيَ في افامية سنة ٧/٦ م أن عدد المواطنين مواطنة رومانية تامة في المدينة كان ١١٧,٠٠٠ نسمة. فإذا أُضيف إلى هؤلاء السكان غير المواطنين والرقيق وجدنا أن تقدير السكان بنحو ٤٠٠,٠٠٠ نسمة قد لا يكون رقماً مبالغاً فيه. وقد قدّر بعض الباحثين المحدثين عدد سكان بيت المقدس قبل حرب ٦٦ ـ ٧٤ بنحو مئة ألف نسمة[١٠١].

كان في فلسطين عدد من الرقيق للعمل في الخدمة المنزلية. وكثيراً ما كانت الزوجة تأخذ معها رقيقاً من بيت والدها إلى بيت الزوجية كجزء من الدوطة التي تحملها الزوجة إلى الزوج. وكانت بعض المصانع والمزارع تستخدم الرقيق في أعمالها. أما أسواق الرقيق فكانت تقوم في عكا وغزة وعسقلان وبطنة والخليل. وهذه كانت تعمر بالسلعة بعد الحروب والثورات. فقد باع الاسكندر الكثيرين من سكان صور وغزة رقيقاً بسبب مقاومة المدينتين له. وقد قُدِّر عدد اليهود الذين بيعوا في أسواق الرقيق أيام تيطس وهدريان بنحو سبعة وتسعين ألفاً، وكثيراً ما كان المرء يبيع نفسه تخلصاً من دين عليه. وقد تراوح ثمن العبد أو الأمة بين مئة دينار ومئتي دينار روماني. وبيعت فتاة في سن الرابعة عشرة في عسقلان بما قيمته ١٨ سولدي[١٠٢].

يمكن القول إجمالاً انه بين حوالي سنة ١٤٠ ق. م وحوالي سنة ١٥٠ م، أُتيح لفلسطين فترات قصار كانت تسيطر فيها على مداخل طرق القوافل إلى الشرق (تدمر) والجنوب (البتراء ودومة الجندل وهي الجوف اليوم). وكانت موانئها نقط اتصال بالمتوسط شمالاً وغرباً. وتجارة الترانزيت هذه ربحت منها فلسطين (أو أولو الأمر فيها على الأصح) كثيراً، وذلك بسبب سياسة احتكار التجارة الخارجية في أغلب الحالات. وأهم ما كان يمر بأطراف فلسطين في الجنوب من سلع هذه التجارة البخور والطيوب والعطور والأفاويه والتوابل والحجارة الثمينة وبعض المصنوعات المعدنية. وهي، في أغلبها، سلع استهلاكية. وكان الحرير قد بدأ يصل إلى المشرق، ولكن كان ذلك بكميات محدودة[١٠٣].

لكن فلسطين بالذات كانت تحتاج إلى سلع ضرورية، فضلاً عما كان أغنياؤها يقتنون مما ذكرنا. فقد كان الإنتاج الزراعي في فلسطين يتعرض لقحط أو جفاف. وكان الناس قد درجوا منذ قرون طويلة على ترك الأرض بوراً لإراحتها كل سابع سنة. وأصبح لهذا، مع مرور الزمن، صفة دينية، بحيث أصبح الناس يتقيدون به. وهذه السنة كانت ضغثاً على الناس، إذ يضطرون إلى استيراد المواد الغذائية، كالحبوب من مصر أو من قبرص، والخضر والفواكه وحتى الزيتون من أنحاء سوريا، والأرز من مصر أو من أرض الرافدين. وكان استيراد هذا كله يكلّف أموالاً طائلة[١٠٤].

أما ما كانت البلاد تستورده من المواد الغذائية بانتظام فيشمل السمك المملح والمجفف من مصر وإسبانيا، والخراف من الأردن، وخاصة في المواسم الدينية. فقد نقل أبلباوم عن تاجر أدومي اسمه بابا بن بوتي أنه جاء بثلاثة آلاف خروف في أحد المواسم. وكان الملح يُحمل من مصر ومن سدوم (زغر) جنوبي البحر الميت. وفضلاً عن المواد الغذائية، كانت فلسطين تستورد الفخار الإيطالي، والسلال والحبال والبردي من مصر، والزجاج والقنّب والأقمشة الخشنة من المناطق السورية. وكانت الهياكل تستهلك كمية لا يستهان بها من البخور وعود الند[١٠٥].

ولم يكن ما تصنعه فلسطين يكفي للتصدير، فالأقمشة الكتانية التي كانت تُصنع في قيصرية وفي بيسان، لم تكد تكفي للاستهلاك المحلي. لكن الإنتاج الزراعي كان يعوِّض في الميزان التجاري. فزيت الزيتون والخمور والتمور وزيت الورد والبصل (العسقلاني) والحنّاء والبلسم كانت أشياء مرغوبة في الجوار وحتى في الأماكن البعيدة، وخاصة البلسم والتمور والخمور. وكانت بعض المواد الخام تُرسل من فلسطين إلى الخارج، وأهمها القار من البحر الميت، والرمل الناعم من منطقة عكا، وكان يستعمل في صنع الزجاج. وكانت تُصدر كميات صغيرة من الأقمشة الخشنة والرقيقة[١٠٦].

وكانت ثمة «رابطات» تُعنى بالطرق البرية وتنظم التنقل في هذه الفترة من التاريخ الروماني. فأكثر المدن الداخلية الكبرى كان فيها نوع من هذه المؤسسات. فجرش وتدمر والبتراء كانت رابطاتها تُعنى بالمحافظة على الأمن في المناطق المحيطة بها. وتدمر تقدم لنا مثلاً جيداً لذلك. إذ كان عندها ما يصح أن يُسمى الحرس الصحراوي. فضلاً عن ذلك فإن التجار المسافرين إذا أدركهم التعب أو الظلام لجأوا إلى خان أو معسكر أُقيم خصيصاً لذلك. وكان من المتيسر للتجار أن يحصلوا في الطريق، وفي مراكز معينة، على حيوانات بدل حيواناتهم التي قد تنفق في الرحلة. ولم يقتصر وجود هذه الرابطات على مدن القوافل بل كانت توجد

في الموانىء أيضاً. وقد كان لرابطات صور وبيروت فروع في إيطاليا. وكان لغزة مثل هذا التنظيم البحري(١٠٧).

وها نحن نضع أمام القارىء نماذج للمدد التي كانت تلزم التاجر للسفر أو التنقل بين مكان وآخر.

من بيروت إلى برندزي Brindisi (ذهاباً وإياباً): ٢٠٠ يوم.
من بوتيولي إلى صور: أقل من ١٣٧ يوماً (للرحلة الواحدة).
من أريحا إلى البتراء: ٣ ــ ٤ أيام (للرحلة الواحدة).
من القدس إلى إديسا (الرها): ٣٥ يوماً (للرحلة الواحدة).
من القدس إلى الاسكندرية: ١٥ ــ ١٦ يوماً (للرحلة الواحدة إما بطريق غزة أو بطريق سيناء)(١٠٨).

ظلت قيصرية عاصمة ولاية فلسطين، ولكن بيت المقدس كانت أهم مدينة في فلسطين وأكبرها. وبعد سنة ١٣٥م منع اليهود من سكناها. وقد أصبحت، بفضل ما أدخله هدريان إليها، والأبنية التي أقامها فيها، مدينة رومانية كبيرة. ومن هنا فقد تجمعت فيها فئات كبيرة متنوعة من أصحاب الأعمال ومن العمال. فعمال النسيج والغزل والحياكة والنحاس والأحذية والصناعات الجلدية الأخرى كانوا يشغلون حيزاً كبيراً في حياة المدينة الاقتصادية. وكذلك كان شأن الجبّانين والخبّازين وغير هؤلاء ممن يهيئون المواد الغذائية للبيع، خضاراً كانت أم فواكه. والمدينة كانت مسكناً لعدد من الأغنياء والزعماء والوجهاء؛ فضلاً عن ذلك فقد كان فيها، قبل سنة ١٣٥م، ٧,٠٠٠ شخص من رجال الدين!(١٠٩).

أما موارد الخزينة في الولاية فكانت تعتمد على عدد من الاحتكارات الرسمية، شأنها في ذلك شأن غيرها من الولايات الرومانية. وهذه السياسة هي، في واقع الأمر، استمرار للسياسة التي أدخلها اليونان إلى المنطقة في العصر الهلينستي، وقد أُدخلت عليها تعديلات كانت، على الراجح، في مصلحة الحكومة. ومن الأشياء التي كانت تخضع للاحتكار أصلاً البلسم، إنتاجاً وتصديراً. فقد أصبحت مزارعه ملكاً للدولة. وكان صيد السمك من الاحتكارات الهامة. فقد كانت الدولة تضمّن حقوق صيد السمك إلى اتحادات صيادي السمك، البحري والنهري على السواء. فكانت هذه الاتحادات تقوم في طبرية وعكا ويافا. كذلك كان صيد الأصداف ذات الحيوان المرجاني مما تضمّنه الدولة لاتحادات خاصة تُعنى بصيدها. وقد اعتبر هدريان غابات لبنان حكراً للدولة، ويبدو أن الغابات التي كانت في فلسطين، كانت خاضعة لمثل هذا التنظيم أيضاً(١١٠).

وكانت أنواع مختلفة من الضرائب والمكوس والرسوم الجمركية تساعد خزينة الدولة بطبيعة الحال. فمن الضرائب المباشرة التي كانت تُجمع عن طريق موظفي الحكومة الجزية وضريبة الأرض. فصاحب كرم العنب كان يدفع ما قيمته ثلاثون ديناراً في السنة فضلاً عن نسبة مئوية، غير محددة مسبقاً، يبعث بها إلى الأهراء الرومانية. ولعلّ هذه كانت تُستعمل لمصلحة الجيوش. أما المكوس والرسوم الجمركية فكانت تُضمّن أو تُلزّم. وهذه الرسوم كانت تُدفع على الحدود بين ولاية فلسطين والولاية السورية، وبين قضاء وقضاء في فلسطين نفسها، وعندما تدخل السلع المدينة، قد يدفع عنها ضريبة بيع في السوق، كما كان يحدث في بيع الرقيق والأقمشة والزيوت والجلود والبردي والبخور. والإشارات إلى ‹بيوت› الجمرك في المدن الفلسطينية كثيرة. وأشهر البيوت المعروفة كانت في يافا وغزة وقيصرية وأريحا وكفر ناحوم. فضلاً عن هذا ففرض الضرائب الإضافية لمناسبات خاصة لم يكن أمراً غير مألوف(١١١).

كان النظام المتّبع هو أن يُقيم الجند الرديف (أو الاحتياط) فقط في فلسطين. لكن بعد سنة ٧٤ م وضِعت الفرقة العاشرة في بيت المقدس بشكل دائم. وهذا أنعش الحياة الاقتصادية بعض الشيء. فقد كان على الجماعة المقيمة في بيت المقدس والمنطقة المجاورة أن تؤمّن حاجات الجنود. ويبدو كأن الفلاحين في جوار بيت المقدس كانوا يعملون من أجل الجنود وذلك بقيادة ضباط الفرقة العاشرة. وبهذه المناسبة فإن بيت المقدس لم تكن وحدها التي نُكبت في الحربين بين بعض اليهود والرومان. إن كلاً من يافا وسبسطية (السامرة) وأنتيباترس (رأس العين) واللد وعدداً كبيراً من القرى والمزارع نُهب ودُمِّر وأُتلفت أراضيه(١١٢).

ولنعد قليلاً إلى شؤون النقد في هذه الفترة. ففي القرن الرابع كان في الامبراطورية خمس عشرة دار ضرب عاملة؛ أما في القرن الخامس فقد انخفض العدد إلى ست ــ منها أربع دور لسك النقود الفضية وداران لسك النقود الذهبية. وعاد العدد فارتفع إلى اثنتي عشرة داراً في القرن السادس. أما في أيام هرقل فقد أقفلت أكثر دور الضرب. واقتصر سك النقود على القسطنطينية. وكانت دور الضرب تحت إشراف قومس comes، وهو موظف رفيع المنصب كان رئيس أكبر الدوائر المالية الامبراطورية الثلاث. وكان من أعماله أن يشرف على المناجم في الامبراطورية وذلك بسبب الارتباط بين سك النقود وبين ما يأتي من المناجم من المعدن اللازم لذلك.

ولعلّ أهم ما طرأ على النقود المسكوكة يتعلق بالنقد الذهبي. إذ سُكّت قطعة نقد ذهبي سُمِّيت سوليدوس

solidus. وهذه كانت قيمتها ٢٥ ديناراً. وسكت قطعتان من النقد الذهبي أيضاً الواحدة تريميسيس tremisses وتساوي ثلث سوليدوس والثانية سيميسيس semisses وتساوي نصف سوليدوس. وقد شاعت القطعة النقدية الأولى، أما القطعة الثانية فلم تلق في السوق الإقبال ذاته.

ومما يجب أن يذكر هو أنه نتيجة للتعامل والتداول أصبح الدينار الامبراطوري أكبر قيمة من الدينار السوري. فكان هذا يساوي قيمة ثلاثة أرباع ذاك. فضلاً عن ذلك فإن الدينار الامبراطوري كان يقسم إلى ١٦ «أساً»، فيما كان الدينار السوري يقسم إلى ٢٤ «أساً»، وقد قسم الأس أصلاً إلى قسمين سُمي كل منها سيميس semis، كما أن الأس كان يساوي أربعة كوادران quadrans. لكن الأحوال المحلية في فلسطين وسوريا حملت السلطة المحلية (التي كان مسموحاً لها بسك النقود) على سك نقد أصغر من الكوادران وهو اللبتون lepton. وكان كل اثنين من هذا يساويان كوادراناً واحداً[١١٣].

والأرقام التالية تعطينا أمثلة للأسعار التي عرفتها فلسطين لبعض الخدمات والحاجيات. وجميعها مقيدة بالنقد السوري أو الامبراطوري:

ـ موازنة أسرة متوسطة في السنة	
للطعام	٥¼ ـ ١٠,٢٥ دنانير سورية.
نقداً للحاجيات الأخرى	٨¼ دنانير سورية.
للثياب	٥٠ ديناراً سورياً.

فلسطين وتطورها المدني أيام الرومان

إيجار البيت	١٠ ـ ٤٠ ديناراً سورياً.
مصاريف أخرى حوالي	٥٠ ديناراً سورياً.
المجموع	١٣٤¼ ـ ١٨٨ $\frac{11}{12}$ ديناراً سورياً (بين ١٠٠ و ١٤٠ ديناراً امبراطورياً).
ثمن وحدة مكيال	
طحين القمح (سي sea)	٣ ـ ٤ دنانير سورية
ثمن وحدة وعاء الزيت (أمفورا amphora)	¼ أس امبراطوري
ثمن حمارين (كانت حمير الركوب تستعمل كما كانت تستعمل الخيول)	١٠٠ ـ ٢٠٠ دينار سوري
ثمن بقرة	٤ دنانير سورية
ثمن خروف	٤ ـ ٨ دنانير سورية
ثمن ١٠ حبات تين	١ أس سوري
ثمن جاكيت (سترة)	١٢ ديناراً سورياً
ثمن قميص	١٢ ـ ٢٥ ديناراً سورياً
ثوب لامرأة فقيرة	٥٠ ديناراً سورياً
بدلة رجالية هندية	٨٠٠ دينار سوري
أجرة حفار القبور	دينار سوري واحد في اليوم
أجرة فحص البقرة للتأكد من صلاحيتها شرعاً	٦ أسات سورية

وهذه الأمثلة جميعها مأخوذة من أسعار القرن الثاني للميلاد[١١٤].

٦ ـ من مُرقس أوريليوس إلى ديوقلتيان:

كانت الدولة الرومانية حتى أواخر القرن الثاني قوية منتظمة في أمورها العامة، لكنها هوت في القرن الثالث، فسادت الفوضى جهاتها. وكانت بعض الدلائل على ما حدث قد بدأت بالظهور قبل ذلك. فقد ازدادت الدساكر (أي الأطيان المتسعة) انتشاراً، وتأخرت وسائل الإنتاج الزراعي، ونقصت كميات الغلال في بلاد اليونان وفي إيطاليا، وركدت الصناعة وأُهملت فيها الدقة والتجميل، أي الفن. وفي أوائل القرن الثالث أخذ العمال العاطلون عن العمل، وقد زاد عددهم، يتجمعون في المدن الكثيرة. والذي يمكن أن يُلاحظ هو أن كل شيء أخذ ينهار ـ في المجال الفكري والإداري والعسكري والاقتصادي دفعة واحدة. فمجلس الشيوخ بدا وكأنه تخلى عن دوره، والجيش فَقَد تقاليده وصارت فِرَقُه تقطن المناطق الحدودية وتتاجر وتعمل في الأرض، ثم لم يلبث أن اكتشف الجنود أنهم يستطيعون أن يصنعوا الأباطرة، فتقدموا إلى ذلك بمنتهى النشاط. وأصاب الموظفين المرض نفسه فأصبحوا يمثلون «طبقة» من العاملين في سبيل الثروة، بقطع النظر عن الخدمة العامة المنتظرة منهم. وقد لقي الناس الشرَّ الكبير من القحط الذي أصاب الامبراطورية فأفقر

الكثيرين. ولما تـولى كومـودُس Commodus العرش (١٨٠ ــ ١٩٣) وكان عاتياً مهملاً شؤون الامبراطورية، عهـد بأمور الدولة إلى الحرس البريتوري الذي لم يلبث أن تخلص منه، وعندها أخذت الامبراطورية بالهبوط السريع.

وكان القرن الثالث قرن فوضى واضطراب مزمنين، وكانت الامبراطورية تتعرض لهجمات عنيفة من الخارج والداخل: من الخارج على أيدي القبائل الجرمانية والسلافية المختلفة في الغرب، وعلى أيدي الدولة الساسانية التي خَلَفت الدولة الفرثيـة سنة ٢٢٦م في الشرق. أما من الداخل فقد هزتها ثورة ملكة تدمر. والجيش الذي كان عليه أن يدافع عن الامبراطورية كان يُشغل بين الحين والحين في تولية امبراطور أو خلع امبراطور أو، فيما بعد، المناداة على التاج بالمزاد العلني(١١٥).

حكمت الأسرة السفيرية الامبراطورية من سنة ١٩٣ إلى سنة ٢٣٥. وكان مؤسس هـذه الأسرة سبتيميـوس سفيروس Septimius Severus الفينيقي ــ الأفـريقي الأصل، قـد خـدم ضابطاً في إحدى الفرق الرومانية في سوريا، وكانت هذه معسكرة في أواسط البلاد. يومها أصهر هذا الضابط إلى كاهن الشمس الأعلى في حمص. فلما تولى العرش كانت هذه القرابة مهمة لأن الأسرة كانت ذات نفوذ وثراء كبيرين. وقد صرف سبتيميوس بعض الوقت في إزالة المنافسين من طريقه إلى أن تم له اعتلاء العرش غير منازع (١٩٣ ــ ٢١١). ومن الذين اعتلوا العرش من هذه الأسرة ابنه كركلا Caracallus الذي كان امبراطوراً من سنة ٢١١ إلى سنة ٢١٧. ولما قُتل كركلا وهو في طريقه إلى إديسا، خلفه بعد مدة إلغابالوس. ومع أن مغتصباً تولى السلطة سنة وبعض السنة فإن الجنود المقيمين على مقربة من حمص، وكان الكثيرون منهم سوريـين، فضّلوا الكاهن الشـاب إلغابـالوس Elgabalus (ومعناها إله ــ جبل) المغتصب. وزاد من إعجابهم به ما أنفقته جدته يوليا ميزا Julia Maesa الثرية من مال للترويج لقضيته. ولما تولّى العرش (٢١٨ ــ ٢٢٢) عُني بالترويج لعبادة الشمس في رومة نفسها، وبتشجيع من أمه. ولما قُتل إلغابالوس، خلفه سفيروس ألكسندر Severus Alexander سنة ٢٢٢، وكان صبياً في الرابعة عشرة من عمره، وزُعِمَ أنه ابن كركلا وحكم حتى سنة ٢٣٥. كان تحت نفوذ جدته يوليا ميزا أولاً ثم تحت سيطرة أمه يوليا ماميا Julia Mammaea. وكان له مستشاران من رجال القانون الكبار وهما أُلبيان Ulpian وبابنيان Papinian، وقد كانا أستاذين في مدرسة الحقوق في بيروت. وفضلاً عن هؤلاء الحكام الذين كانوا نصف عرب سوريين، فقد اعتلى العرش الامبراطوري فيليب العربـي Philip المولود في قرية الشهباء بجبل العرب، وهي التي جعل منها مدينة في أيامه وسمّاها فيليبوبوليس Philippopolis. وحكم فيليب من ٢٤٤ إلى ٢٤٩(١١٦).

ويعـود إلى سبتيميـوس سفيـروس الفضـل في إدخـال إصلاحات على نظام الجندية من حيث عدد الفرق (إلى ٣٣ فرقة)، ورفع عدد الفرسان في كل فرقة وتخير الضباط. وأراد أن يـرغّب الناس في الانضمـام إلى الجيش، فيسّر للجنـود مجال التدريب المسبق، وبدّل بعض التشريعات المتعلقة بالجندية. فقد كان المألوف قبلاً هو أن يترك الروماني زوجته في بلده أو يطلقها إذا انضم إلى الجيش. فقضى سفيروس بأن ترافق الزوجة زوجها؛ وأُقيمت أماكن لسكنى الجنود المتزوجين. وكان القانون الروماني لا يعترف بالعلاقة التي قد تنشأ بين جندي روماني وامرأة غير رومانية ممن يقمن على مقربة من الجيش. وكان الأولاد الذين تنجبهم هذه العلاقة يُعتبرون «غير شرعيين». فغيَّر سفيروس هذا كله واعتبر الزواج شرعياً والأولاد شرعيين. وكان الرجل الذي لا يتمتع بالمواطنة الرومانية إذا انضم إلى الجيش وخدم عشرين سنة يصبح رومانياً. لكن سفيروس جعل مجرد دخول الجندية كافياً لأن يُعطي الرجل الحق في الرعوية الرومانية. وقد شجعت هذه الكثيـرين على الانضمـام إلى الجيش، وأدَّت أيضاً إلى قيـام تكتلات زراعية اجتماعية على حدود الامبراطورية وفي الأراضي التي تُقام فيها المعسكرات. ولعلَّ الروح المهنية الجندية جاءها ما يخفف من أثرها ونشاطها. على أن الذي يجب أن يُذكر للأسرة السفيـريـة أنها تمكنت، مجتمعة ومتفقة، وبمسـاعـدة البـلاط وبشخصية يوليـا ماميًـا، من وقف التدهـور في الامبراطـورية موقتاً(١١٧).

كان الأباطـرة، من أغسطوس (٢٧ ق. م ــ ١٤م) إلى فيليب العربـي (٢٤٤ ــ ٢٤٩)، يعملون باستمرار على بناء المدن من جهة، ومنح الرعوية لمدن قديمة من جهة. وقد ذكرنا من قبل المدن الرئيسة التي بُنيت في فلسطين في أيام الرومان، وتلك التي رعاها الأباطرة من المدن الهلينستية. وقد وضع كركلا حدّاً للفروق بين الأحرار المقيمين في الامبراطورية بأن منح هؤلاء جميعاً الرعوية الرومانية، وصدر الأمر بذلك سنة ٢١٢(١١٨).

إن النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي شهد ثورة داخلية ضد رومة على يد أميري تدمر أُذينة وقرينته زنوبيا بعده. وقد أُتيح لأورليان أن يضع حدّاً لهذه المحاولة سنة ٢٧٢، ولكن ذلك على حساب تدمر(١١٩).

وقد أُتيح في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع لرومة رجلان حاولا إنقاذ الكثير، وأصلحا أموراً كثيرة، وهما ديوقلتيان وقسطنطين Constantine. تولّى الأول الحكم سنة ٢٨٤ واعتزله سنة ٣٠٥، أما الثاني فقد تولّى عرش الامبراطورية من سنة ٣٠٦ إلى سنة ٣٣٧. ولما تولّى ديوقلتيان العرش أنشأ نظام الحكم الرباعي بالنسبة للامبراطورية الرومانية. وعلى أساس هذا النظام كان يحكم الدولة أغسطسان وقيصران، والأولان هما الحاكمان الرئيسان والقيصران مساعدان، لكن على أساس أن يخلف القيصرُ الأغسطسَ، وبذلك تستمر عجلة الإدارة في سيرها المنتظم. لكن الأمر لم يسر على ذلك. فبعد أن اعتزل ديوقلتيان وشريكه الأغسطس الآخر الحكم، رجع هذا الأخير، ودارت معارك انتهت بأن نادى الجند بقسطنطين امبراطوراً. لكن الأمر لم يتم له إلا على مرحلتين، الأولى سنة ٣١٣، إذ كان له شريك في الحكم، والثانية جاءت سنة ٣٢٤، إذ حكم منفرداً إلى سنة ٣٣٧. وقد قام ديوقلتيان وقسطنطين بإصلاحات مهمة واتخذا إجراءات خاصة في سبيل وقف التدهور في الامبراطورية، وقد نجحا إلى درجة كبيرة[١٢٠].

والإصلاحات الأساسية، التي انعكس بعضها على فلسطين هي، باختصار، ما يأتي:

(١) عني ديوقلتيان بالجيش عدداً وعدة وتنظيماً. فزاد عدد الفرق إلى ستين فرقة، وزاد عدد أفراد الجيش من نحو ٣٠٠,٠٠٠ رجل إلى نصف مليون رجل، مع الاهتمام بزيادة عدد الفرسان. وأُنشئت فرق احتياطية يمكنها التحرك السريع إلى أماكن الخطر أو الثورة. وأقام دوراً لصناعة آلة الحرب والقتال.

(٢) فصل ديوقلتيان فصلاً تاماً بين المنصب العسكري والمنصب الإداري المدني في الولايات. وما لم يتم على يد ديوقلتيان أتمه قسطنطين، إذ انتزع من ضباط الحرس البريتوري سلطاتهم الإدارية[١٢١].

(٣) قسّم ديوقلتيان الولايات الكبيرة إلى وحدات إدارية أصغر، ومن هذه كان البعض في بلاد الشام.

(٤) قوّى قسطنطين المجلس الامبراطوري بحيث أصبح له دور رئيس يقوم به ويصرّف أعمالاً قضائية وإدارية هامة تُحال إليه[١٢٢].

كان النقد الروماني قد غُشّ كثيراً، وانعدم الذهب والفضة فلم تُسَكّ نقود ذهبية أو فضية. فأعاد ديوقلتيان إلى النقد الذهبي والفضي مكانته، لكن نقوده النحاسية لم تُقبل في السوق. أما الذهب فقد حصل عليه ديوقلتيان من أرمينيا التي أُعيدت إلى الامبراطورية، ومن إذابة الآنية الذهبية الموجودة في الهياكل الوثنية، وقد تم هذا على يد قسطنطين.

لكن ذلك لم يوقف التضخم المالي ولا ارتفاع الأسعار، لذلك نشر ديوقلتيان أمراً (سنة ٣٠١) حدّد فيه الحد الأعلى لثمن كل سلعة وأُجرة كل عمل في أنحاء الامبراطورية[١٢٣]. ونحن نورد هنا نموذجاً لأسعار بعض السلع وأجور بعض المهن، وقد حولنا السعر إلى الدولار تيسيراً لتوضيح الصورة:

السلعة	المقياس أو المكيال	السعر بالدولار
الخمور	لتر	٠,٤٥
الزيوت	لتر	٠,١٨
لحم البقر	كيلو	٠,٢٢
الفراخ	زوج	٠,٩٠
السمك الجيد	كيلو	٠,٥٢
البيض	مئة	٠,٧٥
البصل الكبير	كل عشر بصلات	٠,٠٤
جلد الثور	(المصنع)	٣,٢٥
أجرة قص الشعر	—	٠,٠٤
حمام خصوصي	—	٠,٠٤
أجرة العامل	باليوم	٠,٢٠
أجرة بنّاء أو نجار	باليوم	٠,٣٨
أجرة دهّان	باليوم	٠,٥٧
أجرة مزخرف	باليوم	١,١٢
أجرة المعلم للتلميذ الواحد	للشهر:	
للقراءة		٠,٣٨
للحساب		٠,٥٧
للاتينية أو اليونانية أو الهندسة		١,٥٠
الرسوم لتقديم القضية		١,٨٨
عند الحصول على الحكم (هذه الرسوم للمحامي)		١٥,—

كان من نتيجة الإصلاح الذي قام به ديوقلتيان وخلفاؤه، بالنسبة لفلسطين، أن قُسمت البلاد تقسيماً إدارياً جديداً، ضمن التنظيم الواسع لبلاد الشام. فدورا، التي كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تابعة لفينيقيا ضُمّت إلى فلسطين. وقد كانت أراضي دورا تمتد شمالاً حتى قارنا قرب عتليت. وقد ورد ذكر ذلك عند حاج بوردو الذي زار البلاد سنة ٣٣٣م.

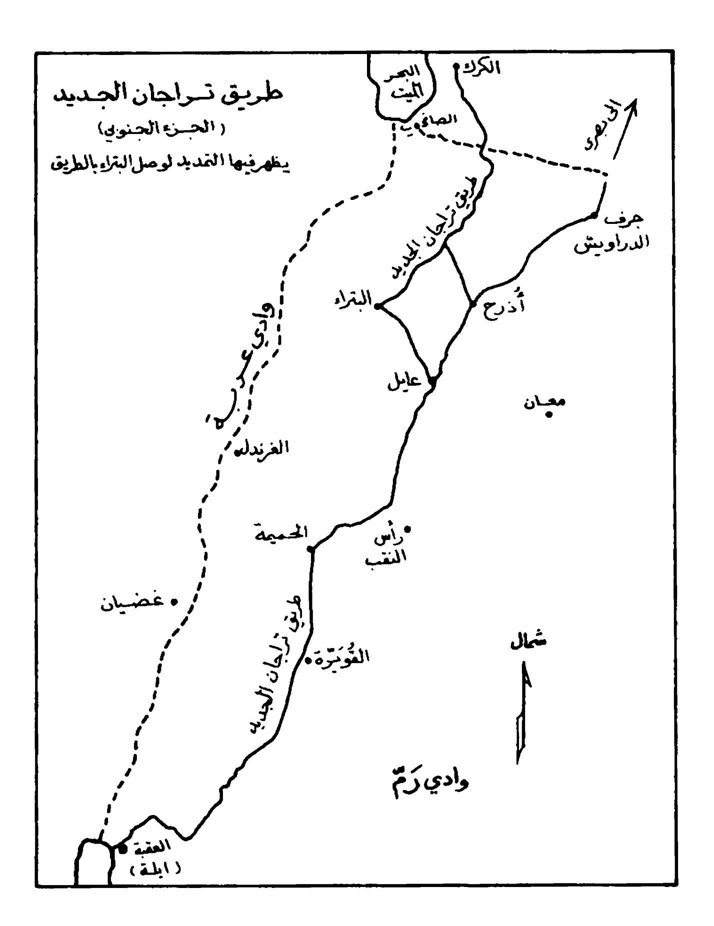
وقسّم ديوقلتيان الولاية العربية التي أنشأها تراجان لما احتل

البتراء إلى قسمين: ظل الجزء الشمالي منها، والذي ينتهي عند نهر الموجب (أرنون)، يسمى الولاية العربية، وظلت بُصرى عاصمته. أما القسم الجنوبي فقد ضُمّ إلى النقب واعتُبر جزءاً من ولاية فلسطين الثالثة الصحراوية، التي أصبحت تشمل النقب في الغرب وجنوب الأردن في الشرق وتمتد جنوباً بحيث تشمل بلاد الأنباط. ولعلَّ بعض أجزاء الحجاز الشمالية ــ حول مدائن صالح ــ كانت تابعة لها أيضاً(١٢٤).

وبين سنتي ٢٩٥ و٣٥٨م اتخذت الولايات الفلسطينية الثلاث شكلها الذي ظلت محتفظة به، باستثناء تعديلات طفيفة، إلى نهاية الحكم البيزنطي. والولايات الثلاث هي:

(١) فلسطين الأولى: وكانت هذه تشمل السهل الساحلي من نقطة تقع جنوبي جبل الكرمل إلى نقطة تقع جنوبي رفح، كما كانت جبال القدس والخليل ونابلس والجزء الأوسط من شرقي الأردن داخلة فيها.

(٢) فلسطين الثانية: وهذه كانت تضم مرتفعات الجليل ومنابع الأردن (الفلسطينية) وشمال غور الأردن والجولان.



(٣) فلسطين الثالثة: كانت تشمل جنوب فلسطين (النقب) وما ضُمّ إليها من الولاية العربية القديمة. وبقدر ما كانت حدود الولاية العربية مبهمة من قبل، فقد كانت الحدود الجديدة كذلك(١٢٥).

وقد علّق بورستوك Bowerstock على هذا التقسيم، أي فيما يتعلق بالولاية العربية، بقوله ان هذا يدل على إدراك ديوقلتيان الدقيق للشؤون الجغرافية للمنطقة. فإن بُصرى وجرش وفيلادلفيا (عمان) وأذرع مرتبطة بدمشق تجارياً في جهة الشمال وبمدخل وادي سرحان (عند الأزرق اليوم) إلى أواسط الجزيرة وبطريق البتراء جنوباً، وذلك في أيام السيطرة التي كانت للأنباط على التجارة. ولما احتل تراجان البتراء وما إليها احتفظ بالطريق الجنوبي الشمالي إدارياً وعسكرياً، وبنى الطريق المناسب. أما في أيام ديوقلتيان فقد تبدل الوضع. طريق تدمر كان قد توقف، ولو مؤقتاً، بعد تدميرها على يد أورليان. والمدن العشر قلّت أهميتها التجارية. ولذلك كان من الطبيعي أن يعود شريان التجارة الآتي من جهة البتراء، ولو أنه ضعف عما كان عليه، إلى السير في طريقه الطبيعي إلى غزة ومصر عبر النقب وسيناء على التوالي. ومن هنا ضم ديوقلتيان المنطقتين الشرقية والغربية الواقعتين جنوبي البحر الميت إدارياً كي تكون الأعمال التجارية والإدارية تحت إشراف واحد(١٢٦).

كانت نفقات الامبراطورية الرومانية كبيرة، وقد ناءت الامبراطورية وسكانها بهذا العبء الثقيل. ولكن ديوقلتيان وغيره كان لا بد لهم من الحصول على الأموال لسد حاجات الدفاع والإدارة. لذلك قام ديوقلتيان بإصلاحات ــ على الأقل هكذا أرادها هو وهكذا فهمها ــ ضرائبية. منها دفع بعض أنواع الضرائب عيناً، ولعلَّ ذلك يعود، كما نقول نحن اليوم، إلى نقص في السيولة لانعدام النقد من السوق. وفُرضت الضرائب على أساس مساحة الأرضين ومقدرتها الإنتاجية وما يُشغل منها، بقطع النظر عن إنتاجها السنوي. وصُنِّفت الأراضي درجات على هذه الأسس، ووُضِع لكل صنف منها ما يجب أن يدفع نقداً أو عيناً، كما نُصّ على ذلك. وكان القواد البريتوريون هم الذين يعيّنون المراكز التي تُحمل إليها الضرائب العينية. ولم يكن ثمة أية ضمانة بأن لا يتلاعب هؤلاء وغيرهم من الموظفين بالكيل والميزان. ولما جاء قسطنطين زاد الضرائب في الامبراطورية بأجمعها. هذا مع محاولة لإصلاح النقد قام بها الاثنان ــ ديوقلتيان وقسطنطين.

كان من الطبيعي أن تنعكس الأزمة السياسية ــ الاقتصادية التي عصفت بالامبراطورية على الولايات. وكان من الطبيعي أن

تكون آثارها في الولايات المختلفة متباينة. فالامبراطورية الرومانية التي امتدت من إنكلترا إلى الفرات ومن إسبانيا إلى البحر الأحمر، والتي أصبح محور الخطر الأساسي فيها في القرن الثالث للميلاد خط الدانوب ــ الفرات، أن تتأثر بقاعها المختلفة بأشكال متنوعة(١٢٧).

وإذا نحن انتقلنا إلى فلسطين محاولين أن نتبيّن آثار هذه الأزمة الخانقة فيها، ترتب علينا أن نحسب أن الخصومة بين المدينة والريف، التي أشرنا إليها، أصبحت أعنف يومها، وأن الجيش أصبح أكبر شعوراً بأهميته حتى في فلسطين، لأن هذه الولاية كانت ولاية حدودية كجزء من بلاد الشام، ولأن الساسانيين كانوا دولة فتية نشيطة. ولعل بعض المعارك التي خاضها أورليان قبل هجومه على تدمر (سنة ٢٧٢ م) كانت في فلسطين بالذات.

والأشياء التي مسّت فلسطين مباشرة، ولعلها مسّت غيرها من الولايات أيضاً، هي: التجنيد والسّخرة والضرائب الجديدة. فكل من وصل إلى العرش كان بحاجة لا إلى من يصفق له فحسب، بل إلى من يحمل سيفاً أمامه. وكذلك كان خصومه الطامعون بزحزحته وتولي الأمور مكانه. وإذن فلم يكن بد للابس الأرجوان، أو لمن أُلبس الأرجوان، من أن يجنِّد جماعات تقوم بعملها. وهذا التجنيد بأعداد كبيرة كان معناه نقصاً في الأيدي العاملة، ومن ثم نقصاً في الإنتاج الزراعي في الدرجة الأولى وفي غيره في الدرجة الثانية. ذلك بأن المجندين كانوا بطبيعة الحال من الفلاحين والعمال. وهنا يجب أن ننتبه إلى قضية هامة وهي أن اليهود كانوا معفين من الجندية، أو على الأقل كانوا يستطيعون دفع ،بدل، مالي مقابل الإعفاء من الجندية. ومعنى هذا هو أن التجنيد وقع على عاتق الفئات السكانية الأخرى وهي الأكبر عدداً وتعود إلى العناصر العربية والفلسطينية في البلاد. وهذه هي التي تأثر اقتصادها بشكل خاص. وبازدياد عدد الجنود أصبح هؤلاء بحاجة لا إلى كمية من النقد أكبر من ذي قبل، ولكن إلى خدمات أخذت تتزايد مع الأيام. وزادت كمية ما يحتاج إليه الجند من مواد غذائية، ومواد خام من جميع الأنواع، ووسائل نقل. وإذا كانت الدولة توصلت إلى حل مشكلة الرواتب ولو جزئياً فدفعت للجند ما توجب عليها، فإن ما تبقى كان يترتب على السكان المدنيين أن يدفعوه أو يقدموه على الأصح. وإذا صادف أن تمنعوا أو حاولوا ذلك، فإن القوة العسكرية موجودة لإقناعهم أو إرغامهم. وكانت الضرائب المتزايدة تقع أصلاً على عاتق سكان المدن، أما أهل الريف ــ الفلاحون ــ فقد تحملوا مشكلة تقديم الحاجات العينية والقيام بالسخرة(١٢٨).

والعمل الإجباري أو السخرة؛ وهذه هي التي كانت تسمى أنكرية (أو أنجرية) كانت أنواعها كثيرة. والكلمة، بهذه المناسبة، مأخوذة من اللغة الفارسية، وكان معناها الأصلي، وهو الذي قبل في الامبراطورية الرومانية، أن يُفرض على السكان تقديم وسائل النقل (الرواحل أو الدواب) اللازمة لنقل البريد الامبراطوري. لكن مع تطور الأزمة ازدادت المتطلبات المفروضة، وازدادت الواجبات تبعاً لذلك. ولعلّ أكثر المتضررين منها كان أولئك الذين يعملون في مجالات المواد الغذائية والخمور وصنع الثياب. والسخرة، أو العمل الإجباري المجاني، لم ينج منه أحد، ولا حتى أعضاء المجلس البلدي(١٢٩).

ومما كان يترتب على السكان أن يقدموه للجيش هو تأمين المأوى. وقد كان القانون الروماني يجيز للجنود أن تُقدَّم لهم البيوت الخاصة لإقامتهم، إذا لم يكن في المدينة خان أو فندق. ولكن مع ازدياد عدد الجنود لم يكن من المتيسر تأمين مأوى عام لهم، وكان معنى هذا أن إيواءهم أصبح عبئاً ثقيلاً. ولكن يبدو أن الناس قبلوا الأمر على أنه شر لا بد منه(١٣٠).

أما فيما يتعلق بالضرائب، فالأمر غاية في ثقله كعبء على جميع الناس. فقد كان الرومان من قبل يفرضون في فلسطين الضرائب التالية: (١) ضريبة الأرض، (٢) الجزية، (٣) الأنفورتة وهي ما يدفعه مستغلو أملاك الدولة، (٤) الضريبة الجمركية. ويبدو أن ضريبة الأرض حُدّدت مرة واحدة وقت الاحتلال الروماني، ومع انخفاض قيمة النقد أصبحت كمية لا تستحق العناية. والأنفورتة كانت ضريبة، أو عائدات حكومية يتكفل بها عدد ضئيل ممن يتاح لهم استغلال أملاك الدولة، ولذلك فحتى حقهم في التذمر لم يكن مقبولاً. والضريبة الجمركية كانت تقع على كاهل الجميع، والتذمر كان في الواقع يدور حول الطريقة التي كانت تُجمع بها. إذ ان هذه كانت تُلزّم لأولئك الذين كانوا يُضمّنون الضرائب. وهؤلاء الملتزمون كانوا يتقاضون أضعاف ما هو مطلوب، كي يحققوا لأنفسهم أرباحاً. فهم كانوا يدفعون للدولة المبلغ المتفق عليه، أو جزءاً كبيراً منه، مقدماً، ثم يقومون بالتحصيل. أما الجزية فكانت ضريبة تتبدّل حسب الحاجة، وتبدُّلها كان في زيادتها والتشدد في جمعها، ولعلها كانت في فلسطين أعلى منها في أماكن أخرى. لكنها ضريبة كانت تُفرض في جميع أنحاء الامبراطورية(١٣١).

كان ثمة ضريبة تسمى أنونا annona. هذه كانت تطلب أحياناً من السكان بشكل أمر يصدر لهم بأن يقدموا بعض المواد الغذائية للجنود في طريقهم عبر الولاية. لكن في القرن الثالث كثر

تنقل الجنود، بحيث صار طلب الأنونا أمراً يكاد يكون يومياً. ثم هي ضريبة لم يكن الناس يستعدون لها، لأنهم لم يكونوا يعرفون متى يمكن أن تُطلَب. وقد جعلها ديوقلتيان ضريبة منتظمة ومحددة. ومن حيث طبيعتها كان معناها أصلاً تقديم الحبوب والأبقار (أو الأغنام) اللازمة للجيش، ثم لما حدّدها الامبراطور أصبحت معروفة، لكن ذلك لم يجعلها خفيفة أو مرغوباً فيها. وقد كان الجزء الأكبر منها يقع على عاتق الفلاحين ــ فهم الذين يزرعون الحبوب ويربّون الأبقار والأنعام[١٣٢].

ولم تكن الضرائب كثيرة فحسب، ولكن أساليب جمعها كانت قاسية جداً. فالموظف أو الملتزم كان باستطاعته أن يصادر الأملاك، وهي بالنسبة للفلاحين كانت في غالب الحالات مكان سكناه ومواشيه، لأن الفلاح، كما رأينا، قلما كان يملك الأرض. والأمر الذي يجب أن نذكره دائماً هو أن «التزام» الضرائب كان يفيد منه الأغنياء في الدرجة الأولى. إذ من يمكنه أن يدفع ما يطلب من بلد أو جزء من القضاء للدولة ثم يقوم بجمعه إلا الأغنياء؟ ومعنى هذا هو أنه في الوقت الذي كان مفروضاً فيه أن يقوم الأغنياء بدفع قسم كبير من الضرائب، كانوا هم أنفسهم يتجنبون الدفع، ويتشددون في التحصيل. وهذا نوع من الظلم الضرائبي الذي شاع في ذلك الوقت. (وقد ظل الالتزام الضرائبي في بقاع كثيرة من المشرق إلى قبل زمن قصير). ولعلّ شر ما بُلي به الناس في الامبراطورية الرومانية هو فرض الضرائب «جماعية» على سكان مدينة أو بلدة من جهة، ومن جهة أخرى فرض الخدمة الإجبارية في مجالس المدن البلدية على سكان المدينة كي يتحملوا بعض النفقات التي كانت الدولة يجب أن تقوم بها ــ أو كانت في الواقع تقوم بها قبلاً ــ للمحافظة على أبنية المدينة العامة وإقامة الحفلات الرسمية والدينية وإحياء الألعاب وما إلى ذلك. وهذه كانت ضريبة «مُبطّنة»[١٣٣].

اضطربت التجارة السورية، الداخلية والخارجية، إلى درجة ما في العقود الوسطى من القرن الثالث بسبب الحروب والثورات. وقد كان للقضاء على تدمر أثر خاص في تنظيم جديد للطرق التجارية. كان القضاء على البتراء سبباً في انتعاش تجارة تدمر بالنسبة إلى شمال بلاد الشام خاصة، وجاء القضاء على تدمر، الذي كان بحد ذاته أعنف من الاستيلاء على البتراء على يد تراجان، يحفز الناس على البحث عن مراكز جديدة. ولعلّ هذا أحد الأسباب الرئيسية في «عودة» النشاط إلى طريق صحراوي عربي يمتد من دومة الجندل (الجوف اليوم) إلى الشمال نحو دمشق عبر وادي السرحان والأردن، وإلى طريق عربي غربي يوصل السلع إلى منطقة غزة. والسلع التي كانت تُحمل عبر هذين الطريقين هي السلع ذاتها التي كانت تُحمل قبلاً، وظلت تُحمل بعد ذلك، مما ينتجه الشرق البعيد والتي كانت تصل إلى موانىء الجزيرة العربية. على أنه يجب أن نذكر أن الامبراطورية الرومانية أصبحت في القرن الثالث، وظلت على ذلك فيما بعد، أفقر مما كانت عليه قبلاً. لذلك كانت الأسواق أقل استهلاكاً للبضائع المذكورة.

ومما يلاحظه الباحث في تاريخ الرومان وامبراطوريتهم هو أن اتساع الأسواق يظل أمراً يدعو إلى العمل إذا استتب الأمن. لذلك لما هدأت الأمور وانتشر الأمن عاد الكثير من النشاط إلى البلاد، وفلسطين منها. وأبرز ما تم على أيدي الرومان في المجال الحيوي هو بناء عدد كبير من الأقنية والترع أو على الأقل إصلاح ما كان قد تداعى منها، وتوزيع المياه في مجاري الأنهار السفلى على الأراضي المجاورة لريها، مثل منطقة بحيرة طبرية، ومنطقة صفورية (في الجليل) وأريحا وقيصرية وجازر (أبو شوشة) وبيت المقدس (للسكان بشكل خاص). وعادت العناية بالصناعات، بسبب الحاجة التي تطلّبها وجود الجنود، ولأن الأسواق الخارجية عادت تطلبها. فنشطت صناعة الأقمشة في قيصرية ونابلس ودورا (الطنطورة). وظل زيت الزيتون والخمور والأثمار المجففة من الأشياء المرغوب فيها مما تنتجه فلسطين. وبهذه المناسبة يترتب علينا أن نشير إلى أن عدداً كبيراً من التجار الشاميين استقروا في إيطاليا وصقلية وجنوب فرنسا، حيث عملوا وكلاء للبيوت التجارية الكبيرة في الشرق. وكانت ثمة جاليات شامية تقيم في أوستيا Ostia ونابلي ومسيليا (مرسيليا). وفي القرنين الخامس والسادس كانت الأعمال التجارية في كثير من مدن الغال بأيدي الشاميين المنتشرين هناك. ولو أُتيح لنا أن نحصل على لوائح لأسماء الأفراد والأسر التي قامت بهذه الأعمال لكنا عثرنا بينها على أسماء الغزي واليافي والعسقلاني إلى جانب البيروتي والصيداوي والصوري والأنطاكي والدمشقي[١٣٤].

٧ ــ المسيحية في فلسطين إلى أيام قسطنطين:

يمكننا أن نلخص ما مر بالمسيحيين في الفترة الأولى من حياتهم، وفي بيت المقدس خاصة، في الأمور التالية:

أولاً ــ إن اليهود الذين قبلوا المسيحية أصرّوا على أن «الخلاص» الذي دعا إليه المسيح لا يمكن أن يتم إلا في إطار «الشريعة» والحفاظ على قواعدها؛ والمظهران الرئيسان لذلك هما الختان والتقيد بأنظمة التطهر.

ثانياً ــ أما الذين لم يكونوا يهوداً أصلاً، أو كانوا يهوداً ممن قَبِلَ الأفكار الهلينية (وهؤلاء كانوا في غالبهم من خارج القدس) فلم يروا التقيّد بهذين الأمرين أو غيرهما، وقبلوا فكرة ‹الخلاص على ما دعا إليها المسيح، وكما نشرها رسله على أساس تعاليمه ــ أي الخلاص الروحي.

ثالثاً ــ إن المؤمنين ‹الجدد› قبلوا فكرة مجيء المخلِّص المنتظر (المسيّا)، وقبلوا المسيح على هذا الأساس، لكنهم اختلفوا فيما بينهم حول الدور الذي كان مفروضاً أن يتم على يديه. فالذين كانوا يهوداً أصلاً كانوا يأملون من المخلِّص (المسيا) أن يعيد لهم دولة (بدل تلك التي ضاعت بعد احتلال بومبي لفلسطين سنة ٦٣ ق. م. ثم بعد زوال حكم هيرودس سنة ٤ ق. م). إن عقيدتهم اليهودية التي طوّروها لأنفسهم مع الزمن عن طريق إعادة كتابة أجزاء من أسفار العهد القديم وعلى يد ‹الأنبياء› المتأخرين تقول بأن الخير للبشر لا يمكن أن يأتي إلا عن يد ‹الشعب المختار›. أما ما تبقى من المؤمنين، الذين لم تكن تتحكم فيهم خلفية ‹عقديّة› مثل تلك، فكانوا يرون أن مجيء المسيح هو دليل، وقد يكون إنذاراً، على أن المجيء الثاني في المستقبل هو الذي ينتهي معه العالم. ومعنى هذا أن هذه الجماعة لم تكن ترى أن إعادة دولة يهودية هو ‹الخلاص› أو حتى علامة عليه.

رابعاً ــ كانت قد قامت حول الذين آمنوا بالمسيح في بيت المقدس ما يصح أن يسمى ‹كنيسة القدس› كمؤسسة تنظيمية (أساسها الأفراد والجماعات لا المبنى أو المكان). لكن كان لا بد من أن تمر الجماعة بتجارب كي تتضح الاتجاهات بين الأفراد والفئات، وكي تتخلص من هؤلاء الذين كانوا يسمون (على الأقل فيما بعد) المسيحيين اليهود! وكانت التجربة الأولى تقديم إسطفان، أحد كبارهم، للمحاكمة أمام المحفل (السنهدريم) بتهمة تهجمه على الشريعة، فحكم عليه بالموت رجماً (٣٤ أو ٣٧ م) ونُفِّذ الحكم. عندها خرج أولئك الذين وجدوا في الأمر تحاملاً وغبناً من بيت المقدس، وانصرف القادرون منهم على التبشير إلى القيام بالعمل في أواسط فلسطين وفينيقيا وأنطاكية. وفي هذه الأخيرة أُعطي للمسيحيين هذا الاسم لأول مرة (٤٠ م).

خامساً ــ وجاءت التجربة الثانية. كان يعقوب، المعروف بأخي المسيح، رأس الكنيسة ــ الجماعة في بيت المقدس، بعد أن خرج أعضاء ‹اللجنة السباعية› التي اختيرت (على الراجح قبل ٣٤ م) لتُعنى بشؤون المؤمنين المختلفة. وجُددت التهمة ضد يعقوب بأنه تجنّى على الشريعة. وحوكم أمام الوالي الروماني وحُكم عليه بالموت (كان هذا قبل سنة ٧٠ م). يومها هاجرت جماعة أخرى، يبدو أنها كانت في غالبيتها يهودية أصلاً، وانتقلت إلى فحل (بلا) Pella في شرقي الأردن.

سادساً ــ جاءت الحادثة الأخيرة في أعقاب انتصار الامبراطور هدريان Hadrian على العصيان اليهودي (١٣٢ ــ ١٣٥ م)، الذي قاده باركوخبا (أو باركوسيبا). أتم الامبراطور مخططه القاضي بتبديل بيت المقدس إلى إيليا كابيتولينا وكان التبديل تاماً فأصبح الهيكل الروماني هو الأصل، والآلهة اليونانية ــ الرومانية هي التي تُعبد، والمدينة صارت مدينة يونانية ــ رومانية، ومُنع اليهود من الدخول إليها بالمرة. وعندها صار في بيت المقدس ‹أسقفية› للمسيحيين، لكن على نطاق بسيط.

ومع أن مدناً أُخرى قامت فيها كنائس كمؤسسات تنظيمية على غرار ما تم في بيت المقدس، فإن المسيحيين ظلوا يستخدمون البيوت العادية أماكن للعبادة بعد أن يكرّسوها. أما الكنيسة ‹المبنى› فقد تأخر ظهورها. فالاضطهاد الديني الروماني ضد المسيحيين كان فصلاً يجب أن يتم أولاً[١٣٥].

تطور الطرق الرومانية في فلسطين

كان العالم الروماني قد عرف أنواعاً مختلفة من الأديان والعبادات الوثنية شرقية وغربية. فقد عبدت شعوب الامبراطورية آلهة متنوعة، يونانية، ومصرية (ايزيس)، وآسيوية (عبادة الأم الكبرى مترا). وكانت اليهودية معروفة في نواح كثيرة من الامبراطورية، لكنها كانت ديانة قد تقوقعت على نفسها فلم تقبل حتى الراغبين في الانضمام إليها، وحسب أتباعها أن الآخرين ليسوا صالحين لذلك، عرقياً أو إيماناً أو غير ذلك. (ثمة أحوال نادرة فرضت فيها اليهودية نفسها على شعوب مجاورة بقوة السيف ـ مثل الأدوميين وأهل الجليل في فلسطين ـ ولكن هذا نادر لا يقاس عليه).

وفي عصر الامبراطورية الأول بالذات (أي من أيام أغسطوس إلى أواخر القرن الثاني) كان ثمة عبادتان رُوِّج لهما رسمياً وشعبياً أملاً في أن يؤدي ذلك ـ حسب الترتيب الزمني لهما ـ إلى لُحمة بين شعوب الامبراطورية تجعل من هذه الرقعة الواسعة والجماعة الكبيرة وحدة مترابطة، تقوم على أساس أكثر من مجرد التبعية الإدارية والتسلط الفوقي. ففي أيام أغسطوس وخلفائه الأقربين اتُّخذت عبادة «رومة والامبراطور» ديانة رسمية رمزاً للترابط المنتظر. وقد صُرف جهد كبير، وشيدت الهياكل الفخمة الأنيقة، ونُظمت طبقة من الكهنة، كانت مهيَّأة للقيام بواجبها. لكن ذلك لم يحقق الغاية. فقد بدا في ذلك كله شيء من التصنّع بالنسبة لشعوب لها آلهتها ذات البعدين الزمني والاجتماعي الكبيرين.

أما العبادة الثانية التي تولاها أهل الحكم فهي عبادة الإله الشمس التي عمل على نشرها الامبراطور إلغابالوس (٢١٨ ـ ٢٢٢ م) كاهن الشمس الحمصي الأصل، بعد أن اتخذها عبادة رسمية للامبراطورية وحرّم سواها. ومع أن هذه العبادة أُلغيت رسمياً بعد وفاة صاحبها، فقد أعادها الامبراطور أورليان (٢٧٠ ـ ٢٧٥)، لكنه لم يعتبر نفسه أنه هو إله الشمس على نحو ما ذهب إليه إلغابالوس[١٣٦].

في هذه الأجواء الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والروحية، والتي لم تكن دوماً هادئة، بل كثيراً ما كانت صاخبة، وكانت فلسطين من النقاط الحارة حتى سنة ١٣٥م على الأقل، كانت المسيحية تشق طريقها وتنتشر. كان ذلك مستمراً رغم ما لقيته من اضطهاد رسمي شديد نسبياً على أيدي الأباطرة سبتيميوس سفيروس (١٩٣ ـ ٢١١) ومكسيمينُس Maximinus (٢٣٥ ـ ٢٣٨) وديسيوس Decius (٢٤٩ ـ ٢٥١) وفلريان Valerianus (٢٥٣ ـ ٢٦٠) وديوقلتيان (٢٨٤ ـ ٣٠٥). ولن ندخل في تفاصيل هذه الاضطهادات، ولكن يبدو أن عمل ديسيوس، مع أنه لم يدم سوى سنة واحدة، كان من أشدها بالنسبة للمشرق، فاستشهد في أيامه أساقفة القدس وأنطاكية ومصر وشمال أفريقيا وآسيا الصغرى أجمعون.

والاضطهاد المعروف بالكبير هو الذي جاء في أيام ديوقلتيان، وكان ذلك في أواخر أيام حكمه (٣٠٣ م). وقد ورد في الأمر الذي أصدره أن تُهدم بِيَعُ المسيحيين، وتُمزق كتبهم المقدسة، ويُخرج الموظفون منهم من خدمة الدولة ويسترقُّوا. والذين يصرون على البقاء على إيمانهم المسيحي كان يوقع بهم عذاب أليم، ولم يعدم الرومان الوسائل والأساليب التي تجعل مثل هذا العذاب عظيماً.

ومع ذلك فإن المسيحية سارت، بحيث انه قُدر أن خُمس سكان الامبراطورية كانوا قد اعتنقوا المسيحية في أواسط القرن الرابع الميلادي[١٣٧]. وخلال ما تبقى من القرن الرابع والقرن الخامس اعتنق أكثر سكان الامبراطورية المسيحية.

ولعلّه من المناسب أن نشير هنا إلى أن الخصومة بين المسيحية ومعارضيها ـ وقد كانوا من أصحاب السلطة والنفوذ في الغالب ـ لم تقتصر على اضطهاد رسمي، مخفف أو شديد، ومقاومة هذا الاضطهاد، بالاستشهاد غالباً، بل إن الأمر انتقل إلى المجال الفكري. فقد حمل جماعة من أهل الفكر والمشتغلين بالفلسفة الوثنيين لواء المعارضة والاتهام للمسيحية، ودارت انتقاداتهم وحملاتهم حول الأمور التالية: (١) إن المسيحيين هم خصوم للمدنية، وإن المسيحية أداة لتدمير الحضارة اليونانية الرومانية. (٢) اعتناق المسيحية يضعف الأخلاق الفاضلة التي كان يقوم عليها المجتمع الروماني. (٣) المسيحية خالية من الفكر الفلسفي، فهي لا تقبل مناقشات عقلية وإنما تخضع لما تسميه الوحي الإلهي. (٤) ولعل من أطرف ما اتهمت به المسيحية هو أنها حديثة العهد، ومن ثم فلا مكانة لها بين الأديان والمعتقدات العريقة. وقد يطول بنا الأمر إذا أخذنا أنفسنا بالحديث عن خصوم المسيحية الكثيرين. لذلك فإننا نكتفي بذكر اثنين: كلسوس Celsus من أهل القرن الثاني، ولعله أعنف مهاجمي الكنيسة المبكرة. وكان، في كتاباته، يمثل الاعتراض الوثني والاعتراض اليهودي على المسيحية. ومما اتهم به المسيحيين أنهم كانوا ينشئون جماعات سرية ضد الدولة. والثاني هو فرفوريوس Porphyry (٢٣٣ ـ ٣٠٥ م) من أهل القرن الثالث. وفرفوريوس حوراني الأصل، صوري النشأة، من رجال الأفلاطونية الحديثة Neo-Platonism. وكانت خصومته للمسيحية

عنيفة لأنه كان يهاجمها فلسفياً، وجاء ذلك قبل أن يحذق الكتّاب المسيحيون قضايا الفلسفة وأساليب المنطق وطرق الجدل. عندها أخذوا يناقشون خصومهم بالوسائل نفسها.

ولما وجدت المسيحية نفسها، بعد أن تخلّصت من اليهودية، أدركت شخصيتها وذاتيتها الخاصة، وعرفت أنها أوقفت موقف الاتهام عنصرياً وفلسفياً وعقائدياً. عندها أخذت نفسها بإعداد الأجوبة عن الاتهامات وتوضيح حقيقتها لأتباعها أولاً ولخصومها ثانياً. ومن ثمّ أخذت تتخلص من التعابير والكلمات والحدود التي استعملتها أولاً، وهي يهودية، أو على الأقل تفسر هذه جميعها تفسيراً مسيحياً. وإذ انتشرت 'الكلمة' في العالم اليوناني ــ الروماني، واستعمل الكتّاب لغتين جديدتين لتفسير المسيحية، فقد ظهرت، كما ذكرنا قبلاً، مسيحية يونانية التعبير في المشرق وأخرى لاتينية التعبير في المغرب، وثالثة سريانية التعبير بدأت، على الراجح، مع تَتْيان Tatian السوري الأصل، السرياني اللغة فضلاً عن إتقانه لليونانية. وتتيان من أهل القرن الثاني الميلادي على الراجح(١٣٨).

والمنافحون عن المسيحية، وهم الذين أُطلق عليهم لقب الكتّاب الاعتذاريين، والذين ظهروا في القرنين الثاني والثالث عددهم كبير. لكننا لن نهتم إلا بأولئك الذين كان لهم اتصال مباشر أو شبه مباشر بفلسطين.

وقبل التحدث عن هؤلاء الكتاب يجدر بنا أن نضع أمام القارىء جدولاً تقريبياً بأسماء أولئك الذين ينتمون إلى فلسطين وسوريا ومصر. فالأمر الذي لا يجوز أن ينسى هو أن الاسكندرية كانت المدينة الأولى في المشرق التي قامت فيها مدرسة مسيحية بالمعنى الدقيق للكلمة، وأن عدداً من المدارس التي أنشئت في فلسطين وسوريا جاء معلموها الأوائل من خريجي مدرسة الاسكندرية، ثم لم تلبث قيصرية وغيرها من المدن أن كوّنت مدارسها ودربت معلميها وخرّجت أساقفتها والمنافحين عن ديانتهم وعقيدتهم.

وهؤلاء الكتّاب، وسنقتصر على الأهم منهم، يدخل في عدادهم: الفلسطينيون أرسطو الفِحلي Aristo of Pella وجوستين الشهيد النابلسي Justin Martyr ويوليوس أفريقانوس الايلي (المقدسي) Julius Africanus. وعندنا اثنان من سوريا تَتْيان Tatian وهيغيسبُّس Hegesippus. وثمة اثنان اسكندريان هما اقلمندس Clement وأوريغان Origen. وهذا الأخير مرتبطة حياته بفلسطين.

وقد لجأ هؤلاء الكتّاب إلى الوسائل المختلفة لنقل آرائهم لا لخصومهم فحسب، بل وللمؤمنين أيضاً، فكتبوا مواعظ ورسائل وحوارات وردوداً. فكل كاتب كان يختار الأسلوب الأنسب. وأسلوب الحوار الذي كان شائعاً، كان يقوم على أساس تصور خصم للمسيحية ــ يهودياً أو وثنياً ــ ومُناقشته فيما يعرضه من آراء. والواقع أن الكاتب هو الذي يعرض ما يراه نظرات لخصمه ثم يناقشها. وكان هذا الأسلوب، على ما يظهر، مغرياً بالنسبة للقراء.

ومن أقدم ما بين أيدينا من هذه الكتابات 'مواعظ بطرس'؛ وهذه كتبت في مطلع القرن الثاني للميلاد. ومع أن هذه المواعظ لا تعرف أباً، فإن الباحثين يحسبون أنها مصرية الصناعة والصياغة.

ومن الذين كتبوا يوضحون المسيحية وينافحون عنها أرسطو الفحلي. ويذكر القارىء أن المسيحيين الذين أزعجهم إعدام يعقوب هاجروا إلى فحل. وكانت هذه المدينة، كما نعرف، واحدة من «المدن العشر». وقد وضع أرسطو آراءه على شكل 'حوار' بين مسيحي مؤمن ومعترض، فكان أحد الأوائل الذين استعملوا هذا الأسلوب الذي شاع فيما بعد على أيدي مثل هؤلاء الكتّاب.

ومن كبار الكتّاب المسيحيين الفلسطينيين جوستين الشهيد من أهل القرن الثاني (تقريباً ١٠٥ ــ ١٦٥ م). وجوستين، الذي لم يكن يهودياً، خرج من مسقط رأسه نابلس الفلسطينية ساعياً وراء التعلم. فزار أنطاكية وأثينا وغيرهما، وتحلّق حول معلمي الفلسفة ــ من الرواقية إلى الفيثاغورية إلى المشائية (أرسطو) إلى الأفلاطونية الحديثة، فلم يجد فيها ضالته. وحدث أن لقيه مسيحي متعلم فأرشده سواء السبيل. وكان جوستين قد ثَقِفَ شؤون الفلسفة، ثم ثَقَّف نفسه مسيحياً، واستقر في رومة وأخذ على عاتقه تعليم المسيحية والفكر الفلسفي فيها. ولما رفض أن يقدم رسوم العبادة للامبراطور حُكم عليه بالموت، واستشهد بين سنتي ١٦٣ و١٦٧. ومن هنا لقبه الشهيد.

عاش جوستين حياته العلمية في أواسط القرن الثاني، وهي فترة ازدهرت فيها المذاهب وبعض البدع. لذلك اهتم الرجل بالدفاع عن المسيحية على جبهات ثلاث ــ ضد اليهود وضد الوثنيين وضد أصحاب البدع. وكان في جميع أعماله مبرزاً، وهو الذي اعتبر أصحاب المذاهب والبدع خطراً على المسيحية يجب التصدي له. وقد كان جماع ما كتبه جوستين كبيراً. ولعله كان أغزر الكتّاب المسيحيين إنتاجاً حتى زمنه. فضلاً عن أنه كان

عارفاً بالأمور التي يتحدث عنها أو يناقشها معرفة دقيقة. وكتاباته توضح هذا، إذ انه تعرض إلى كل قضية تتعلق بالمسيحية من معنى صفات الله إلى أمور العبادة وما يترتب عليها من معان. وإلى جوستين يعود فضل الريادة في مسألة أُخرى، وهي مسألة انتشار المسيحية في العالم اليوناني ــ الروماني وتملكها زمامه الفكري فيما بعد. ويعتبر جوستين بين واضعي الحجارة الأساسية في هذه المسيرة الطويلة والصعبة. والواقع هو أن جوستين يُعتبر صاحب مدرسة كان له فيها تلاميذ كبار، ولو كنا نؤرخ للفكر المسيحي عامة لكان يتوجب علينا أن نتابع هؤلاء الذين ساروا على خطاه. لكننا مضطرون إلى ترك هؤلاء (أمثال ديوغنيتُس Diognetus ومركيون Marcion) والعودة إلى فلسطين(١٣٩).

على أننا نود قبل ذلك أن نقول شيئاً عن تّتيان المعروف أنه سوري المولد دون تحديد الجزء الذي تم فيه ذلك من سوريا. بعد أن تثقف محلياً اتجه غرباً فزار مدناً يونانية كثيرة، وأقام في أثينا فترة يدرس الفلسفة، ثم ذهب إلى رومة. وكان ذلك في العقد السادس أو السابع من القرن الثاني. وفي رومة التقى جوستين واعتنق المسيحية، ولكنه لم يُلقَ عليه القبض مع المعلم؛ ثم عاد إلى سوريا. وحوالي سنة ١٧٠ نشر كتابه الموجَّه إلى اليونان وكان هجوماً عنيفاً على كل شيء يوناني وثني. ويرى بعض الدارسين أن هذه الحملة كانت رد فعل عنيفاً على إعدام معلمه جوستين في أيام امبراطور كان هو نفسه يُعنى بشؤون الفلسفة عناية فائقة (مرقس أوريليوس ١٦١ ــ ١٨٠ م).

ونود أن نشير إلى عمل كبير قام به تتيان وهو المسمى باليونانية دياتِسرون Diatessaron والذي كان دمجاً تاماً للأناجيل الأربعة، بحيث أخرج منها رواية تامة. والمرجح أنه وضع ذلك باللغة اليونانية، وقد ضاع القسم الأكبر منها، ولم يُعثر حتى الآن إلا على قطعة قصيرة في الصالحية (دورا أوروبس — Dura Europos) على الفرات. لكن تّتيان نقل هذا الأثر إلى السريانية، وأخذ الناس يستعملونه حالاً، وظلّوا على ذلك إلى أوائل القرن الخامس. ومن هنا يعتبر بعض الباحثين تّتيان مؤسس المسيحية السريانية.

وهناك شرقي آخر من أهل القرن الثاني الميلادي يقول عنه الباحثون انه سوري على التعميم لا على التخصيص، وهو هيغيسِبُس الذي ولد مسيحياً، وذهب إلى الغرب ليستكمل دراسته، وأقام في كل من كورنث Corinth ورومة، لكنه عاد إلى الشرق لإتمام كتابه المذكرات Memoirs في خمسة أجزاء. والكتاب ليس تاريخاً وإنما هو كتاب جدل حول المسيحية ودفاع عنها أمام خصومها من الداخل (المذاهب والبدع) والخارج (الفلسفة اليونانية والتعاليم اليهودية).

في السنة ١٩٥ م قاد الامبراطور سبتيميوس سفيروس حملة ضد منطقة إديسا (الرها)، على الفرات الأعلى، وقد كان في عدد ضباطه شخص اسمه يوليوس افريقانوس. ولد يوليوس في إيليا كابيتولينا (بيت المقدس). وفي أثناء الحملة وصل إلى اديسا وقضى سنوات في صحبة ملكها أبقر الثاني Abgar II وأمرائها ونبلائها. بعد ذلك عاد إلى فلسطين واستقر في عمواس. وقد رئس وفداً ذهب إلى رومة أيام الامبراطور الكسندر سفيروس (٢٢٢ ــ ٢٣٥) حيث طلب الوفد من الامبراطور أن يعيد بناء مدينتهم. وقد استجاب الامبراطور لطلبهم فأعاد بناء المدينة وزينها وسميت بعدها نيكوبوليس Nicopolis. ومن أعماله أثناء إقامته القصيرة في رومة أنه خطط مكتبة جميلة للامبراطور. وذهب بعد ذلك إلى الاسكندرية، لكنه قضى بقية حياته في عمواس (الجديدة) منصرفاً إلى الدرس والتأليف، وقد وضع كتاباً سماه الأخبار عرض في أجزائه الخمسة لتاريخ العالم من بدء الخليقة، وكانت غايته منه التأكيد على أن الأيام الستة التي تم فيها خلق البشرية هي ستة آلاف سنة. والمهم هو أن كتابه هذا أصبح أساساً للتأريخ المسيحي، وظل كذلك مدة طويلة. وكان يوليوس مغرماً بكتابة الرسائل، منها رسالة هامة بعث بها إلى أوريغان سنة ٢٤٠. وأهمية يوليوس أنه كان ضابطاً معنياً بالأمور الكنسية والفكر المسيحي، وقد كان ينظر إلى الأمور بعقل متفتح سواء في ذلك أمور الكنيسة والأدب الوثني(١٤٠).

وكانت للاسكندرية تقاليد علمية قديمة ترجع إلى أيام البطالمة. وهذا كان دوماً يجذب الطلاب من أنحاء العالم ليجلسوا عند أقدام المعلمين فيها ــ سواء أكان الموضوع طباً أم علوماً أم فلسفة أم بلاغة أم أدباً. وقد ظلت مدة قرنين من الزمان على الأقل في دورها الأول الوثني ناجحة إلى درجة كبيرة. ثم جاءها الدور الثاني إذ أصبحت تُدرس فيها فضلاً عن الفلسفة القديمة موضوعات المسيحية. ولعلّ الاسكندرية هي التي قامت فيها أقدم مدرسة مسيحية وصلتنا أخبارها. وقد مر عليها دور كانت فيه مكاناً لدراسة الشؤون الدينية اليهودية، ومن علمائها في تلك الفترة فيلون Philo (٢٠ ق. م ــ ٥٠ م). وقد كان من الطبيعي، والحالة هذه، أن تقوم فيها المنافرات الرئيسة بين فلاسفة المسيحية ونظرائهم من فلاسفة الوثنية.

ومع أن دراسة مدرسة الاسكندرية وتاريخها قضية مهمة في مثل المجال الذي نكتب عنه، فإن أثرها في فلسطين في أوائل

العهد بها مرتبط بواحد من كبار أساتذتها وهو أوريغان (١٨٥ – ٢٥٣ م).

على أننا لا بد لنا من الإشارة إلى معلمه اقلمندس الاسكندري Clement (١٥٠ – ٢١٥ م) حفظاً لتسلسل الإرث الفكري. كان اقلمندس أثينياً؛ وقد ولد، على المرجح، سنة ١٥٠، ونُشّيء في مدينته وثنياً. وقد برع في الآداب والفكر والفلسفة اليونانية. وفي سن الثلاثين رحل إلى الاسكندرية، ولم يمض عليه سوى عشر سنوات حتى كان رأس المدرسة المسيحية (سنة ١٩٠ م) التي كانت حديثة العهد. وقد اضطُر، بسبب اضطهاد سبتيميوس سفيروس (١٩٣ – ٢١١ م) إلى ترك مصر، فمر بفلسطين حيث علّم بعض الوقت في قيصرية، لكنه اتجه أخيراً نحو قبادوكية Cappadocia حيث كان أحد طلابه قد تولى شؤون الاسقفية فيها، وقضى السنوات الأخيرة من حياته هناك.

كان اقلمندس واضح الأسلوب ناصع البيان ذكي الفؤاد يتمتع في أعماله الكتابية بنفحة شعرية كانت تمكّنه من تجويد ما يخطه يراعه. وبحكم تعمقه في الأدب الكلاسيكي والفكر اليوناني وإحاطته الدقيقة والشاملة بالتعاليم المسيحية، استطاع أن يضع بين أيدي تلاميذه وقرائه آراء جديدة واضحة بينة. ولعل خير ما يقال عنه هو أنه نظر في القضايا والمشكلات الفكرية المجردة والفلسفية الحياتية، وبحث في الأسئلة التي طرحها رجال الفكر اليوناني ثم فتش عن الأجوبة لجميع هذه القضايا فوجد أن القدامى أجابوا عنها من قبل عن طريق الأسطورة. لكن هذه الوسائل لم يعد لها وجود. الوثنية كانت لا تزال قائمة وكانت تقاوم المسيحية، لكن حيوية الأولى امتصها ما كان في أساليبها من تناقض وفي طرق بحثها من تضارب. لذلك يجب أن يلجأ 'الفكر' إلى مصدر جديد وأسلوب جديد للإجابة عن أسئلة القدامى وقضاياهم. والمصدر الجديد هو المسيحية التي هي تتويج لأفضل ما عرفته المدنيّة الهلينستية[١٤١].

كان اقلمندس واضع أسس الدفاع الفكري عن المسيحية، لكن الذي خطط لذلك ونظمه بحيث أصبح منهجاً علمياً كان أوريغان. وهو مصري المولد (١٨٥ م) من أب يوناني وأم مصرية، وكان الاثنان مسيحيين. وقد أُتيح لأوريغان الصبي والشاب اليافع خزانة كتب عامرة في البيت، ولعل البيت كان المكان الذي تقام فيه حلقات صغيرة للمناقشة. وقد ظهرت على الصبي مواهبه غير العادية ونُضجٌ مبكرٌ في أحكامه ونهمٌ كبيرٌ في طلب المعرفة، بحيث انه أخذ في السابعة عشرة من عمره يدرّس في المدرسة المسيحية في الاسكندرية. وحدث أن استشهد أبوه حينئذٍ، وصودرت أملاك الأسرة والمكتبة العامرة، واضطر الشاب إلى العمل كي يعيل أمه وستة أخوة وأخوات. وكان إلى جانب تدريسه العقيدة المسيحية يعلّم الفلسفة والأدب الوثنيين. على أن هذا كله لم يمنعه من إتمام دراسته. وأخيراً تولى رئاسة المدرسة حيث قضى تسع سنوات. ويبدو أن نجاحه أحنق منافسيه وخصومه، وكان الاضطهاد قد تجدّد في مصر، فاضطُر إلى مغادرة البلاد ولقي في قيصرية (الساحل) في فلسطين ترحيباً كبيراً، حيث نقل عمله التعليمي المسيحي إلى هناك. وبذلك أنشأ في قيصرية هذه المدرسة التي استمرت بعده مدة طويلة. وكان أثناء إقامته في قيصرية يقوم برحلات إلى أماكن مختلفة، ولعله كان يدعى لإلقاء المحاضرات. وقد سُجن وعُذّب، وأخيراً توفي في صور سنة ٢٥٣؛ وقد كان رجلاً مريضاً مكسور القلب!

كان أوريغان طُلَعَةً بشكل غريب، وكان له على العمل جلد وقوة. والمهم أن الرجل كان مبتكراً في آرائه ونظراته، وبحكم معرفته الواسعة والعميقة للتيارات الفكرية والروحية، القديمة والمعاصرة، كان باستطاعته أن يوضح الأمور وأن يضيف الكثير إلى ما يتناوله. وقد انصرف انصرافاً كبيراً إلى دراسة مقارنة لأسفار العهد القديم، بحيث ان الرجل يعتبر أول 'باحث توراتي' في التاريخ.

كتب أوريغان كثيراً، وكل كتاب سدّ ثغرة في تاريخ المسيحية. لكن من أطرف كتبه رده على كلسوس Celsus. وهو أحد الخصوم الكبار للمسيحية، وكان قد كتب في سنة ١٨٠ م (أي قبل أن يولد أوريغان) كتاباً شنّع فيه على المسيحيين والمسيحية. قال إن انتشار المسيحية زعزع أسس الامبراطورية، ووصف المسيحيين بأنهم محتالون يعملون في الخفاء للتخريب وأنهم يغشَوْن بيوت الأغنياء كي ينشروا تعاليمهم الخبيثة بين النساء والأولاد. وقد ردّ عليه أوريغان في رسالة – كتاب، داحضاً كلامه مشيراً إلى أن الديانة التي تعلّم الأخلاق العالية وتحمل أتباعها على تحمّل العذاب والسجن والشهادة في النهاية لا يمكن إلا أن تكون صحيحة. كان كلسوس قد دعا المسيحيين إلى التخلي عن 'خزعبلاتهم' والعودة إلى حظيرة المواطنة الصالحة؛ فرد عليه أوريغان بأن تمنّى أن يهدي الله أباطرة رومة فينضموا إلى اتّباع التعاليم الجديدة.

كتب زرنوف Zernov:

«إن الجماعة المسيحية في الشرق نضجت عقلياً وفكرياً بقيادة أوريغان الحيّة. وقد هيأها – مسبقاً – للدور الذي كان ينتظرها لما اعترفت الامبراطورية بالكنيسة»[١٤٢].

تمثل مدرسة الاسكندرية، في جوها غير المسيحي، تطوراً

خاصاً. ففي القرن الثاني الميلادي تحولت الفلسفة اليونانية فيها من فلسفة عقل نظري في العصر الهلينستي إلى فلسفة عقل عملي في أواخر ذلك العصر ثم إلى فلسفة دينية يفكّر أتباعها تفكيراً دينياً. ومع أن المسيحية كانت معروفة في مصر، ومع قيام المدرسة المسيحية، في الاسكندرية، فالفلاسفة هؤلاء لم يربطوا تفكيرهم بالمسيحية، بل كانوا يحاولون الإجابة عن سؤالين هما: (١) كيف تعرف النفس ذاتها معرفة تمهد لخلاصها؟ (٢) كيف تعرف النفسُ الإله معرفة يتم بها خلاصها؟ والواقع أن هذين السؤالين طُرِحا من قبل، لكن الزاوية التي جُرِّبت للإجابة عنها هذه المرة كانت تختلف عما سبق.

ونحن لا نريد أن نتوقف عند هذه القضية لكننا نود أن ننتقل إلى تطور آخر في مدرسة الاسكندرية الوثنية جاء في القرن الثالث الميلادي على يد بلوتينس، أو أفلوطين المصري المتوفى سنة ٢٧٠ م. وهذه النزعة الفلسفية الجديدة سُميت بـالأفلاطـونية الحديثة Neo-Platonism. وهي، باختصار، فلسفة أفلاطون بثوب ديني جديد، أو هـو القول بأنها فلسفة أفلاطون كُسيت ثوباً دينياً. وكان أتباعها من أشد خصوم المسيحية. وقد خَلف أفلوطين في تزعم الأفلاطونية الجديدة فرفوريوس الصوري (٢٣٢ ــ ٣٠٥ تقريباً). وهذا المفكر مولود في فلسطين لكنه قضى وقتاً من شبابه في صور ومن هنا جاءته الصفة. إلا أنه اتصل بأفلوطين في رومة حيث تتلمذ عليه، بعد أن كان توقف بعض الوقت في أثينا متتلمذاً على عالم البلاغة المشهور لونغينوس Longinus. وقد كان لهذه الفلسفة بعض الأتباع في فلسطين[١٤٣].

إن موقف الدولة الرومانية من المسيحيين تبدّل أيام حكم قسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٣٧ م)، الذي يبدو أنه كانت له ميول مسيحية من قبل لكنه كان يخفيها، إذ اعتنق المسيحية نهائياً سنة ٣١٢، وأصدر في السنة التالية «براءة ميلان» التي أصبحت المسيحية بموجبها ديناً رسمياً من أديان الدولة، ووضِعت بذلك على قدم المساواة مع العبادات الرسمية، وسمح لأتباعها بممارسة شعائرهم وطقوسهم علانية وبحرية. هذه هي الخطوة الأولى.

إلا أن قسطنطين أخذ يقوي مكانة المسيحية ويحرر أتباعها من قيود كانت قد فُرضت عليهم قبلاً. وكان عليه أن يسير بحذر، لأن شريكه في الحكم ليسنيوس Licinius كان لا يزال على وثنيته، وكان يعارض بعض تصرفات قسطنطين تجاه المسيحيين. لذلك فقد كانت تشريعات قسطنطين التي أصدرها يـومها يمكن أن توصف بأنها محاولة لتحرير المسيحيين اجتماعياً: منها أنه منح الأساقفة سلطة قضائية إذا رغب الخصمان في أن يتقاضيا أمام الأسقف (بدل القاضي المدني)، وسمح للمسيحيين أن يوصوا بأموالهم للكنيسة. ولعلّ أهم مـا شرّعـه قسطـنطين هو إعفـاء المسيحيـين من وجوب تقـديم القرابين في الأعياد الـرسميـة (الوثنية). ولما توفي شريكه في الحكم (٣٢٤ م) أصبح يتصرف بحرية (٣٢٤ ــ ٣٣٧). وعندها عُني بنشر المسيحية بين الوثنيين وإعادة الوحدة إلى صفوف المسيحيين، إذ ان هذه قد تصدعت بسبب الخلافات المذهبية التي كثرت. فعقد المجمع المسكوني الأول (٣٢٥ ــ ٣٢٧) في نيقيـة Nicaea لبحث مجمـل هـذه القضايا.

وبنى قسطنطين عاصمته الجديدة حيث كانت تقوم بيزنطة وسمّاها القسطنطينية.

وقسطنطين يرتبط اسمه بفلسطين لا من حيث حكمه واعتناقه المسيحية فحسب، بل من حيث الأبنية الدينية الهامة التي بُنيت في أيامه. فهو لم تتح له الفرصة لزيارة فلسطين بعد توليه العرش، لكنه كان زار بيت المقدس وغيرها من قبل، ولما أراد أن يبني كنيسة مكان الجلجلة، حيث عثرت أمه هيلانة في زيارتها لبيت المقدس على ما اعتقدت أنه خشبة الصليب الذي عُلِّق عليه المسيح، قضت أمه بعض الوقت تشرف على هذا العمل. ولم يوفر قسطنطين مالا أو حرفيين أو خبراء في سبيل بناء كنيسة لائقة. على أن الامبراطور وأمه لم يكتفيا ببناء كنيسة القيامة، بل توليا بناء كنيسة المهد في بيت لحم وكنيسة البشارة في الناصرة، هذا فضلاً عن كنائس أخرى أصغر حجماً، وجميعها تذكّر الزائر بفصل من حياة المسيح[١٤٤].

الفصل الثالث
فلسطين من قسطنطين إلى هرقل

١ ــ فلسطين من ٣٥٠ إلى ٥٢٧م:

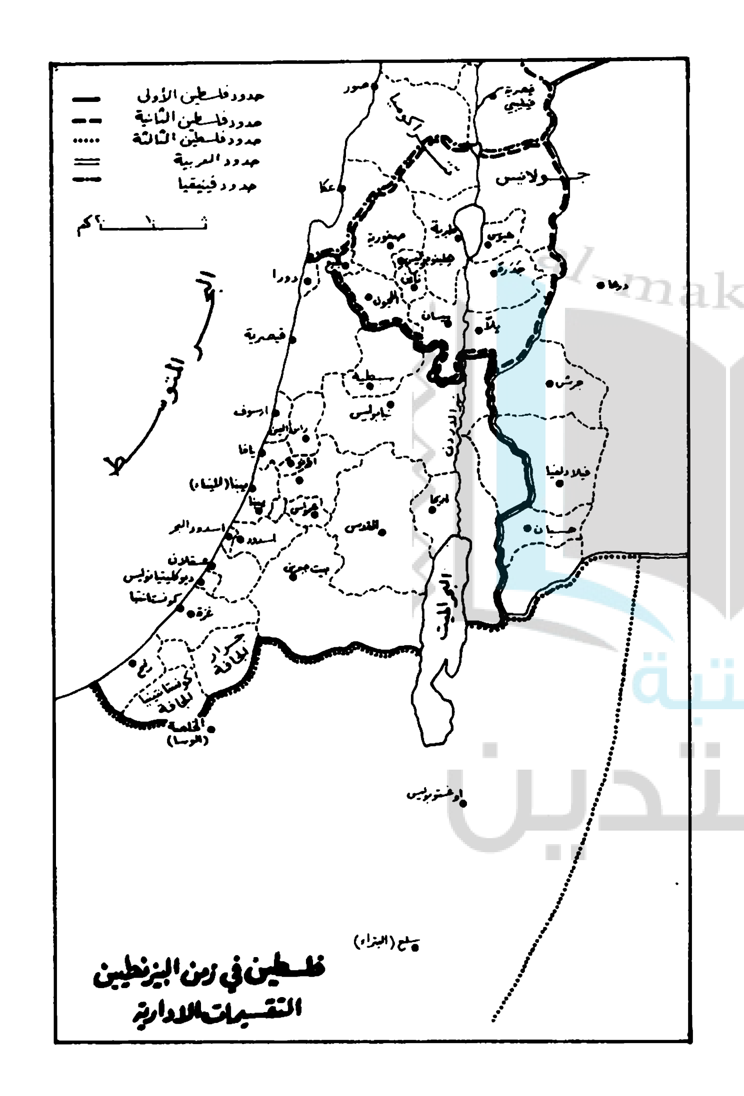
إن الامبراطورية الرومانية لم تُقسم رسمياً إلى شرقية وغربية إلا سنة ٣٩٥، لما أورث ثيودوسيوس (٣٧٩ ــ ٣٩٥) أحد ابنيهِ أركاديوس الجزء الشرقي منها وأوصى أن يكون حاكماً مستقلاً فتولى الأمر (٣٩٥ ــ ٤٠٨) وأورث الابن الثاني هنوريوس الجزء الغربي فحكمه مستقلاً كذلك (٣٩٥ ــ ٤٢٣). ومع ذلك فقد

ظل الامبراطوران يعتبران نفسيهما أنهما يحكمان كلًّا سياسياً متماسكاً حكماً مشتركاً، فمن الناحية القانونية ظل الحكم emporium حكماً واحداً، لكن الواقع كان يختلف. وسقوط رومة (٤٧٦) الذي به انتهت الامبراطورية الغربية، لم يؤثر على الشرقية التي عاشت نحو ألف سنة بعد ذلك. أما نحن، في هذا الفصل، فإنّما نعنى بالدولة البيزنطية من حيث علاقتها بفلسطين إلى الفتح العربي (٦٣٦م).

وتاريخ بلاد الشام تطغو عليه منذ العقود الأولى للقرن الثالث الميلادي الحروب المستمرة بين الدولة الساسانية الفارسية (قامت سنة ٢٢٦) والدولة الرومانية. وقد تمر فترات يسود فيها السلام بين الدولتين ــ نتيجة صلح أو معاهدة ــ لكن الحرب كانت تعود جذعة. وقد كان الدافع الأساسي للقتال هو محاولة كل فريق السيطرة على الطرق التجارية الكبرى التي تصل أواسط آسيا (والصين خلفها) والهند (بطريق الخليج العربي) بالبحر المتوسط عبر أرض الرافدين وبلاد الشام. ولما كانت الدولة الفارسية هي التي تتركز قواتها وإدارتها في وسط الطريقين، فإن الرومان كانوا يسعون إلى كسر الطوق. وإذ لم تكن بين منطقتي النفوذ الرومانية والساسانية حدود طبيعية، فإن الحدود المكشوفة كانت دوماً تدعو الفريقين إلى امتشاق الحسام، إما مهاجِمةً لكسب المغنم (والسيطرة على الطرق) أو رداً لمهاجم (والدفاع عن الطرق). على أن أياً من هذه الغزوات لم تصل فلسطين (قبل القرن السابع) لذلك فهي لا تعنينا مباشرة.

وهناك أشياء يصح تذكُرها، إذ قد تعيننا في تفهم الأمور عامة. من ذلك أن الدولة البيزنطية حافظت، منذ قيامها في القرن الرابع الميلادي، على ما ورثته من مؤسسات ونظم وترتيبات إدارية جاءت نتيجة للتجربة الهلينية الرومانية متراكمة ومجتمعة، وبالنسبة لما خبرته هذه المؤسسات والمنظمات في محيطها المشرقي الجديد. ومن أبرز نتائج هذه التجربة كان قيام الحكم المركزي المطلق في الدولة البيزنطية الذي يعتمد على سلّم بيروقراطي تكاد تنعدم فيه المرونة الإدارية. ومن أكبر سيئات مثل هذا النظام أنه إذا دخله الفساد يصعب إصلاحه، على ما حدث في أيام جُستنيان Justinian (٥٢٧ ــ ٥٦٥). فضلاً عن ذلك أصبح الامبراطور البيزنطي، بعد قسطنطين، هو الرأس المدني للكنيسة. وهو لم ينتزع ذلك من أحد، ولم يخلق جديداً. فالامبراطور كان بحكم منصبه منذ أيام أغسطوس، الكاهن الأعظم لدين الدولة أو لأديانها، كلّ على حدة. ولما أصبحت المسيحية واحداً من أديان الدولة أيام قسطنطين، أصبح الامبراطور كاهنها الأعظم، أي الرئيس المدني لها، أي للكنيسة. وكان من نتيجة ذلك أن ازدادت سلطة الامبراطور قوة واتسع نفوذه وأصبحت الإدارة الملكية فيها نوعٌ من الثيوقراطية. وكان البلاط البيزنطي يرتدي طابع الأبهة والعظمة والأناقة والدقة. وجميع هذه الأمور كانت تتطلب نفقات باهظة يسددها الشعب، مع نفقات الحروب ــ الداخلية والخارجية ــ ضرائب ومكوساً باهظة.

وليس غريباً، والحالة هذه، أن يُعتبر التاريخ البيزنطي تاريخ حكومة، بل لعله كان تاريخ مدينة تتسع آفاق سلطانها تدريجاً لتتخذ من الامبراطورية الواسعة مجالاً لها، لا أن يكون تاريخ الامبراطورية يمثّل نُموّاً لجميع الأجزاء التي تتلقى الإرشاد من «العاصمة». ولم يشارك الشعب في العمل الحكومي إلا في حالات قليلة في مجلس القسطنطينية البلدي (وفي مجالس من هذا النوع). بل المعروف هو أن أولئك القادرين على القيام بواجب الخدمة المدنية في المجالس المختلفة في الولايات، في بلاد الشام



فلسطين في زمن البيزنطيين
التقسيمات الادارية

وغيرها، كانوا يتجنبون قبول هذه المسؤوليات لما أخذت الحكومة المركزية تُلقي على عاتق هذه المجالس أعباء مالية تريد أن تتخلص هي منها.

وكان الجيش في ذلك الوقت مختلطاً يحتل الجندي المرتزق مكانة كبيرة فيه، منذ أن اكتشف أنه يستطيع أن يصنع الأباطرة (في القرن الثالث بشكل خاص). صحيح أنه في ذلك الوقت قد أصبح جميع الأحرار في الامبراطورية مواطنين رومانيين (منذ مرسوم كركلا سنة ٢١٢م)، لكن الجيوش الرومانية كان فيها مرتزقة بالأجر، وكان فيها رديف أو احتياطي هو الذي يقدمه الملك أو الأمير المتحالف مع الدولة الرومانية (والبيزنطية بعد ذلك).

وقد تنبَّه الباحثون إلى أمر هام بالنسبة للإدارة الامبراطورية وهو أن الموظفين الذين تولوا شؤون الدولة، من كبار الوزراء إلى صغار الموظفين الماليين، أثبتوا أنهم كانوا أهل اقتدار وكفاية. ومن ثم فقد غلب على العمل الإداري السير المنتظم.

ولِيَ شؤون الامبراطورية بعد قسطنطين وحتى سنة ٥٢٧ نحو سبعة عشر امبراطوراً، بينهم أربعة كانوا مغتصبين للعرش. وإذا كان لا بد من ذكر بعض المشهورين منهم، ولو نسبياً، فلنذكر أسماء يوليان Julian (٣٦١ ـ ٣٦٣)، ويُلقَّب بالمرتد لأنه عاد إلى الوثنية أو أنه كان وثنياً ولم يعتنق المسيحية قط، ويعتبره كثير من الباحثين فيلسوف الأباطرة في ذلك العصر. وهناك زينون Zeno (٤٧٤ ـ ٤٩١) وأناستاسيوس Anastasius (٤٩١ ـ ٥١٨م) ويوستين الأول Justin I (٥١٨ ـ ٥٢٧م).

أما بالنسبة لفلسطين فإن أهم ما تم في هذه الفترة هو العناية بتطوير الإدارة. ويبدو لنا أن الرومان كانوا، في نظرتهم إلى التطوير الإداري، محافظين أكثر مما يبدو للوهلة الأولى. فنحن نقرأ عن تبديل وتغيير وتطوير في الإدارة، ولكن الهيكل الأصلي العام يظل ثابتاً وقوامه أمور ثلاثة: أن الوالي، في العصر الروماني، وفي العصر البيزنطي على الأخص، كان يمثل السلطة المركزية العليا أي الملك؛ وهو في الدرجة الأولى صاحب الكلمة الأخيرة وخاصة فيما يتعلق بالشؤون القضائية والمالية. والأمر الثاني هو أنه داخل حدود الولاية بالذات كانت ثمة مدن لها إدارتها المدنية الخاصة. وقد مرت بنا أخبار مدن من هذا النوع بفلسطين مثل بيسان وقيصرية (الساحل) ونابلس وسبسطية وصفورية وعكا وغزة وبيت جبرين. وهذه المدن كانت لها إدارة ذاتية حرة، وأهم امتيازاتها سك النقود. كما كان لهذه المدن أراض اقتُطعت داخل الولاية، بل داخل الأقضية بالذات، وكانت في واقع الأمر ريفاً أو دسكرة تابعة للمدينة لا اقتصادياً فحسب ولكن إدارياً أيضاً.

والأمر الثالث هو أن السلطان، ملكاً كان أو شبه ملك، يُعين أو يختار محلياً مثل هيرودس، وكانت له ضياع ملكية (أو أميرية) يديرها ويستغلها إدارة المُلْكِ الخاص واستغلاله. والذي نعرفه أن مثل هذا الشيء كان معروفاً من أيام الدولة الهلينستية، ولكننا لا نستغرب أنه كان معروفاً حتى قبل ذلك.

والذي نعرفه هو أنه حوالي سنة ٤٠٠م، أو بعد ذلك بقليل، أصبحت فلسطين مقسمة إدارياً إلى أقسام ثلاثة: فلسطين الأولى وفلسطين الثانية وفلسطين الثالثة (أو الصحراوية أو الداخلية أو الآمنة). وظل سهل عكا بأكمله ومنطقة حيفا جزءاً من ولاية فينيقيا. وليس بين الباحثين اتفاق تام حول حدود المنطقة التي تشملها فلسطين الثالثة، في جنوب فلسطين والأردن (أي جنوبي أدوم). فهناك أسئلة لم يستطع الباحثون الإجابة عنها بعد: (١) هل كانت البتراء وما إليها جزءاً من فلسطين الثالثة؟ (٢) هل كانت بعض أجزاء صحراء سيناء جزءاً من فلسطين الثالثة؟ (٣) إذا كانت البتراء (وحتى مدائن صالح) وبعض سيناء قد ضُمت إلى فلسطين الثالثة لأسباب عسكرية، فهل ظل هذا معمولاً به؟ وإلى متى؟

إن الصعوبة التي تحول دون القطع بهذه القضية أساسها: أولاً قلة المعلومات الموثّقة عن القرنين الخامس والسادس بالنسبة للناحية الإدارية (لفلسطين). ثانياً الترابط بين القضية الإدارية وقضية الحدود والتحصينات التي أُقيمت بدءاً من أيام تراجان ثم وُسِّع نطاق العمل بها أيام ديوقلتيان وفي الفترة اللاحقة. فالقائد العسكري dux الذي كان يتولى هذه الحدود كانت له بعض السلطات الإدارية المدنية. ثالثاً إن هذا التنظيم الإداري (وحتى العسكري) بأكمله قد تآكل في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع[١٤٥].

على كل فإننا نورد هنا تقسيم فلسطين الإداري (الفلسطينات الثلاث) مع أسماء الأقضية التي كانت تتبع كلاً من هذه الأقسام الثلاثة. (سنضيف ولاية فينيقيا البحرية لأن جزءاً كبيراً من شمال فلسطين كان داخلاً فيها. أما بالنسبة لفلسطين الثالثة فإننا سنقتصر على ما هو جزء من فلسطين أصلاً)[١٤٦].

القضـــاء	عدد القرى التابعة له	أهم القرى
فينيقيا البحرية		
تيروس (صور)	٦	البصة (بيصت)
		خربة جليل (غاليل)
		حانوتا (حانيتا)
		إقرت (يوقرت)
بطوليمايس (عكا)	١٣	حيفا (كَلَمون) وتل حوام؟
		كفر سميع (كبارسيما)
بانياس (بانياس)	٣	الزيب (إكديبا أو إكزيبا)
فلسطين الأولى		
إيليا كابيتولينا (القدس)	٧١	حلحول (ألولوس)
		تل الناصبة (بيروث)
		البيرة (بيريا)
		بير زيت (بير زيتو)
		بيتين (بيتيل)
		بيت لحم (بيتليهم)
		قالونيا (كولونيا أماسا)
		جفنة (غوفنا)
		خربة فُريديس (هيروديوم)
		لفتا (نفتو)
قيصرية (قيسارية)	٦	
دورا (الطنطورة)	٤	
أنتيباترس (رأس العين)	١٠	قلقيلية (كاليكايلا)
		كفر سابا (كفار سابا)
ديوسبوليس (اللد)	١٨	رنتيس (أراماتا)
		بيت نوبا (بيتنابا)
		دير طريف (بيتاريف)
		جِمزو (غِمزو)
		السافرية (سفاريا)
يمنيا (يبنة)	٢	
نيكوبوليس (عمواس)	٤	تل جازر (غَزارا)
أونوس (كفرعانة)		
أبولونيا (أرسوف)		
يوبه (يافا)	٢	سلمة (كفار سالم)
إسكالون (عسقلان)	٧	السوافير (سافير)
غـــزة	١١	المينا (ميوماس)
		هوج (أوغا)
رفيا (رفح)		
اليوثيروبوليس (بيت جبرين)	٥٨	ديرأبان (ابينزر)
		بيت نتيف (بيت ليتيفيا)
		يطة (إيتات)
		تل صندحنة (مريسة)
نيابوليس (نابلس)	٤٢	عنبتا (أنابتا)
		طولكرم (بيرات سوريقا أو بيرة سوريكا)
		حوارة (هاواريا)
		حجّة (هَغّا)
		طوباس (ثيبس)
		طلوزة (تولوزا)
سِبَسْطة (سبسطية)	١١	جبع (غيبا)
		جنين (غيناي)
		سيلة الضهر (سيلا)
		الفندقومية (بنتا كومية)
ريغيو بيريكو (منطقة أريحا)	١١	دير حجلة (بيتأغلا)
		خربة الفصايل (فصايليس)
أزوتوس (إسْدود)	٦	عاقر (أكّارون)
سوكا مازون (خربة سوق مازن)		
نارباتين	٦	هذه القرى تقع في منطقة بين قيصرية والفندقومية
الحدود الفلسطينية(*)		تل الفارعة (قلعة أنشأها فسبسيان)
(الجنوبية الشرقية)	١١	الخليل (حبرون)
فلسطين الثانية		
سكيثوبوليس (بيسان)	٩	
غدارا (أم قيس)	٢	الحمة (إمّاتا)
ليغيو مكسيميا نوبوليس (اللجون)	٧	العفولة (أربل)
		نعنك (تانك)
ديوسيزارية (صفورية)	٢٩	عيلوط (أيتالو)
		دير حنا (كفار يوهانا)
		الناصرة (نازارت)
		شفا عمرو (شفارعم)
		طبعون (طبأون)
كومي نايس (نين)	٥	
هيلينوبوليس (دبورية)	٢	
تيبيرياس (طبرية)	٣٢	خربة خان منية (غنيسار)
		حطين (كفار هتايا)
		خربة الكرك (فيلوطيريا)

(*) أُنشئت هذه المنطقة أصلاً للدفاع عن فلسطين ضد الأنباط، فلما ضمت البتراء إلى الامبراطورية (١٠٦م) فقدت هذه الناحية قيمتها العسكرية لكنها ظلت وحدة مالية حتى في أيام البيزنطيين. وكانت تمتد من البحر جنوبي غزة إلى جنوبي البحر الميت تقريباً.

القضـاء	عدد القرى التابعة له	أهم القرى
غباهيبيوم (الحارثية)		
هبوس (قلعة الحصن)	٢	
تْرا كومية (الجليل الأعلى)	١٤	بيت جَن (بيت داغون) الجش (غيشالا) ميرون (ميروت) صفصاف (سافسوفا)
	فلسطين الثالثة	
منطقة الحدود(*)	١٠	بئر السبع (بيرسابي) تل عُراد (أراد)
فلسطين الثالثة	١١	العقبة (ايلة) خلصة (الوسا) عوجا الحفير (نتانا) نسّانا اسبيطة (سبيطة)

وتكون فلسطين (الحالية) مقسمة في زمن الرومان إلى واحد وثلاثين قضاء، ويكون عدد المدن فيها إحدى وثلاثين، وكان فيها ٤٢٢ قرية، هذا عدا القلاع والحصون؛ وكثير من هذه كان في الجنوب وعند ملتقى الطرق ومنافذ الجبال إلى السهول والغور.

يجدر بنا، ونحن نتحدث عن التنظيم الذي عرفته فلسطين خلال الفترة الرومانية البيزنطية، أن نضع نصب أعيننا بضعة أمور هامة. أولها أن المدينة ظلّت أساس العمل الإداري بقطع النظر عن الدور الذي كان الحاكم أو الملك أو الطاغية أو الامبراطور يقوم به كرأس للدولة. وثاني ما يجب أن يُذكر هو أن المدينة مع الزمن أصابها نوع من فقدان التوازن بين عناصرها الثلاثة وهي الشعب المواطن المنتخِب (بكسر الخاء) والمجلس أو المجالس المنتخَبة (بفتح الخاء) والموظفون الذين كانوا بدورهم يتولون أعمالهم على أساس الانتخاب. ولكن منذ القرن الرابع الميلادي على الأقل فقد العنصر الأول ــ الشعب ــ دوره الأساسي في عملية الانتخاب، ومن ثم أصبحت المجالس أولاً، والموظفون ثانياً، مؤسسات فيها الكثير من التصنع والاستمرارية الاجتماعية المبنية على الجاه والثراء، وحتى الإرث في بعض الأحيان. ومع ذلك ظلت المدينة موضع اهتمام الناس. وظل بعض المكافآت التي كانت الدولة تمنحها لبعض الزعامات في المناطق الشرقية من بلاد الشام هي رفع درجة قرية أو بلدة إلى درجة مدينة Polis إرضاء للزعماء أو تكريماً لهم.

وثمة أمر ثالث نعنى به وهو أنه كان لِـ «المدينة» دوماً أراض تابعة لها إدارة واقتصاداً. هذه الأراضي، وفي فلسطين بالذات، كانت زراعية، وكانت الحياة تدور فيها حول القرى. وأقرب نظام لهذا هو النظام الهلينستي السلوقي في بلاد الشام. إذ ان إنشاء مدينة كان يحتم على الملك أن يمنحها قطعاً من الأرض تفي بحاجاتها من حيث المؤن ومن حيث دفع المكوس والضرائب التي تمكن المدينة من العيش. وهذا الذي حدث في فلسطين أيام السلوقيين استمر عبر الإدارة الرومانية البيزنطية. والحاكم أو الملك أو الامبراطور الذي كان يعيد الحياة إلى مدينة قديمة متهدمة أو ينشىء مدينة جديدة، كان عليه أن يمنحها جزءاً من أرض القضاء (أو الولاية) حيث تقع.

وإذا نحن أخذنا خارطة إدارية لفلسطين للقرن السادس الميلادي مثلاً نجدها مكوَّنة من مدن تحيط بها أراض تتبع لها، ليس للحاكم سلطة عليها. ومع ذلك فإن هذا كان أمراً قانونياً نظرياً، أما الحاكم فقد كان من اختصاصه في حكمه للولاية (أو القضاء) أمور هامة منها: القيادة العسكرية وتطبيق القانون المدني، خاصة فيما يتعلق بعقوبات الإعدام، وجباية المكوس والضرائب، رأساً أو بالواسطة أي عن طريق التلزيم. وكان من الطبيعي أن يكون للحاكم مجال لبعض التدخل في أمور المدينة وشؤون أراضيها.

ومع أننا أشرنا من قبل، وفي مناسبات متعددة، إلى إصلاح المدن القديمة وإنشاء المدن الجديدة في فلسطين، فإننا نرى شيئاً من الفائدة إن نحن أجملنا ذلك هنا، على أساس الترتيب الزمني، ثم نشير إلى القرى التي تملكها المدن الكبرى على الأقل جغرافياً وإدارياً:

(١) المدن التي يعود الاهتمام بها إلى بومبي وغابينيوس (أواسط القرن الأول قبل الميلاد) عكا (بطوليمايس) ودورا (الطنطورة) وعسقلان وغزة البحرية (ميوماس) ورفح (رفيا) وبيسان (سكيثوبوليس) وأرسوف (أبولونيا) ويافا (يوبه).

(٢) المدن التي يعود بناؤها إلى هيرودس (٣٧ ــ ٤ ق. م) وهي: قيصرية فلسطين (أو الساحلية) وذلك تمييزاً لها عن قيصريات كثيرة في الامبراطورية الرومانية وسبسطية (السامرة) واللجون في فلسطين (ليغيومكسيميا نوبوليس) Legiomaximianopolis ورأس العين (أنتيباتريس) Antipatris وجبع قرب جبل الكرمل (وهذه هي المدينة، وهي غير جبع القرية التي كانت تابعة لسبسطية).

(٣) طبرية من أيام طيباريوس (١٤ ــ ٣٧م).

(٤) منشآت من أيام فسبسيان إلى أيام تراجان (٦٩ ــ

(*) هذه تتمة لمنطقة الحدود المذكورة آنفاً في فلسطين الأولى.

١١٧م) وهي نابلس Neapolis (شكيم القديمة) وصفورية (التي سُمّيت ديوسيزارية Diocaesarea).

(٥) أيام هدريان (١١٧ ـ ١٣٨م) ومنجزاته تتمثل في بناء إيليا كابيتولينا (بيت المقدس).

(٦) أيام سبتيميوس سفيروس (١٩٣ ـ ٢١١م) الذي يُنسب له بناء اللد (ديوسبوليس) Diospolis وبيت جبرين (إليوثيروبوليس) Eleutheropolis.

(٧) وبعد ذلك بُنيت عمواس (نيكوبوليس) Nicopolis إكراماً لرجاء يوليوس الأفريقي، الذي رئس وفداً إلى الامبراطور ألكسندر سفيروس (٢٢٢ ـ ٢٣٥م)[١٤٧].

بعد ضم بلاد الأنباط إلى الامبراطورية (١٠٦م) والقضاء على تدمر (٢٧٢)، أصبحت الأجزاء الشرقية من بلاد الشام والمناطق الغربية من وادي الرافدين الأدنى والجزيرة الفراتية (ميزوبوتاميا) Mesopotamia هي خطوط الدفاع عن الامبراطورية الرومانية، ضد الفرثيين أولاً، ثم ضد الساسانيين. ولم تكن هذه الحدود الامبراطورية وحدها مصدر الخطر، إذ ان مناطق الحدود كانت واسعة. لكن أخطرها كانت هذه الحدود الشرقية ـ الشامية العراقية. ففي أوروبا استخدمت الأنهار (الراين والدانوب مثلاً) وسلاسل الجبال خطوط دفاع طبيعية. وفي شمال أفريقيا كانت الحدود يحميها هذا الفراغ الصحراوي الكبير. أما في الشرق فالتضاريس الطبيعية تكاد تكون معدومة، والصحراء لا تكوّن حداً ولا تحتضن خط دفاع.

ولعلّ وجود دولة الأنباط كان بحد ذاته نوعاً من خط دفاع بالنسبة للرومان في فلسطين والأردن، ذلك لأن الأنباط لم يكن في مصلحتهم أن تقع بينهم وبين حكام المنطقة، هلينستيين كانوا أم رومانيين، خصومات أو حروب، إذ ان مصالحهم التجارية كانت تفضل السلام والأمن. ولكن لما قرر تراجان، تمشياً مع سياسة عامة اختطها بحيث لا يسمح لنافذة أو زاوية أن تظل خارج الامبراطورية، أن يحتل البتراء، ويضم بلاد الأنباط إلى امبراطوريته، كان عليه أن يرتب دفاعاً عن هذا الجزء الجديد «الولاية العربية». وهنا نعود إلى التساؤل: أين تقع الحدود الشرقية والجنوبية الشرقية أصلاً كي يتمكن تراجان من الانطلاق لبناء خط الحدود *limes* (باللاتينية)؟ ولأن نوعاً من هذا التحديد لم يكن متيسراً، فإن الرجل بنى طريقاً هو (طريق تراجان الجديد) Via Nova Trajana الذي امتد من العقبة إلى بُصرى مروراً بالقويرة واذرح والكرك وعمّان وأم الجمال. ومع أن هذا الطريق لم يمر بالبتراء أصلاً، فقد بُني جزء آخر فيما بعد لربط المدينة الأخيرة بالطريق.

وكانت واحة الأزرق واحدة من النقاط الهامة على هذا الطريق، وذلك لأن الأزرق نقطة ابتداء وادي سرحان الذي يتجه جنوباً في شرق عبر دومة الجندل (الجوف اليوم) إلى أواسط الجزيرة وبذلك يكون واحداً من أهم الطرق التجارية بين داخل الجزيرة والأردن. ولا شك في أن أهمية الأزرق والوادي (وادي سرحان) ازدادت عما كانت عليه قبلاً لأن إزالة مملكة الأنباط استتبعت، في مخطط تراجان، زوال المدن العشر على أنها حلف مدن متحضرة غنية في تجارتها وتقتعد الطريق الموصل من شمال الأردن إلى شمال فلسطين عبر رقبة غور الأردن الشمالية الخصبة[١٤٨].

والذي يتفق حوله الباحثون هو أن الفرقة الثالثة البرقاوية Legio III Cyrenaica هي الفرقة الرومانية الوحيدة التي وجدت في هذه الولاية الجديدة. وكانت بُصرى مركزها الرئيس، لكن ذلك لم يمنع أن تكون وحدات منها قد وضعت ـ مؤقتاً أو بشكل أكثر من مؤقت ـ في اللجون الأردنية وفي أدرو القديمة (اذرح فيما بعد).

كانت الفرقة الثالثة تحت إمرة قائد عسكري dux. ولا شك أن احتكاكاً كان لا بد أن يحدث بين الوالي أو الحاكم المدني والقائد العسكري. ولعلّ جمع المنصبين في يدي شخص واحد أحياناً كان القصد منه حلّ المشكلة وتجنب الصدام. والفرقة الرومانية كان جنودها من الرومان لكن منذ أيام سبتيميوس سفيروس أصبح الحصول على المواطنة الرومانية مرتبطاً بالخدمة في الجيش، إذ يحصل الجندي عليها لمجرد انضمامه إلى القوات النظامية. ولنذكر أنه في سنة ٢١٢م منح كركلا حق المواطنة لجميع الرجال الأحرار في الامبراطورية. ولعلّ أحد الأسباب كان الرغبة في زيادة موارد الخزينة إذ ان هؤلاء الأحرار هم الذين كانوا يدفعون ضريبة الأرض والجزية.

إلا أنه فضلاً عن الفرقة النظامية التي كانت في تلك الجهات كان هناك عدد من «أورط» الرديف (الاحتياط التي كان أفرادها يُجنّدون محلياً). ومن حسن حظ المؤرخين أننا نملك وثيقة رسمية هامة تسمى نوتيتيا دغنيتاتوم Notitia Dignitatum تعود إلى سنة ٤٠٨م. وهي قائمة وردت فيها أسماء جميع المناصب الإدارية والعسكرية في الامبراطورية الرومانية، بدءاً من حكام الولايات الصغيرة وانتهاء بأعلى مناصب الدولة. وفضلاً عن ذلك فقد كانت تحتوي على لائحة كاملة للفرق العسكرية المختلفة وأماكن وجودها، ولمدن الامبراطورية الشرقية وبلاد الغال. وقد صُححت

هذه اللائحة بالنسبة للامبراطورية الغربية سنة ٤٢٣م. هذه الوثيقة يرد فيها ذكر خمس 'أورط' كانت موزعة في جهات مختلفة من المنطقة الفلسطينية. ويبدو أن إحدى هذه الفرق كانت في مدائن صالح[١٤٩].

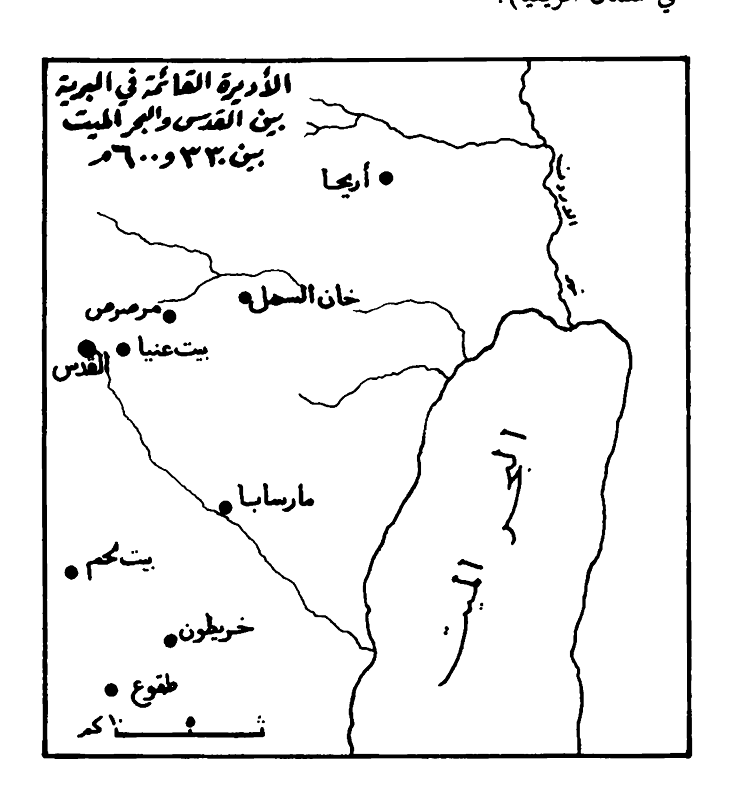
وكان من الطبيعي أن تُقام أبراج مراقبة وحصون وقلاع، وإن على مقياس صغير، بحيث يأوي الجند إليها.

كانت تدمر درعاً واقياً للحدود في الجهة الشمالية الشرقية. لكن تدمر دُمّرت على أيدي أورليان (٢٧٢م). وبعد ذلك انكشفت الحدود الرومانية على مسافة أطول. وكانت الدولة الساسانية بعد قوية، فصارت ضرباتها أشد وأعنف. وكانت أزمة القرن الثالث الميلادي السياسية والاقتصادية قد أخذت بخناق الدولة، فزادت مشكلاتها.

وهنا نعود إلى ديوقلتيان (٢٨٤ ــ ٣٠٥). فهذا الرجل أتم عمل تراجان، إذ بنى طريقاً من بُصرى إلى سورا على الفرات عبر دمشق وتدمر، وقد حمل اسم 'طريق ديوقلتيان' Strata Diocletiana. ثم أتم مخططه بأن قوّى بعض مراكز الدفاع القديمة وبنى حصوناً جديدة في مواقع ذات أهمية استراتيجية: في قِرقيسيا، عند التقاء نهر الخابور بالفرات، وأحاطها بأسوار منيعة؛ وفي تدمر حيث وضع حامية قوية؛ وبنى قلاعاً وأبراجاً وخانات في قصر بشير وجُنيجل (بين القريتين ودمشق) ودير الكهف (على بعد نحو أربعين كيلومتراً إلى الجهة الجنوبية الشرقية من بُصرى) وكذلك في اللجون (بيت تورا) وأذرح وقد سميت أوغستوبوليس Augustopolis. ووضع ديوقلتيان على طول هذه الحدود خمس فرق (في كل منها نحو ٣,٠٠٠ جندي) وست عشرة أورطة (في كل منها نحو ٥٠٠ جندي). ومعنى هذا أنه في حوالي سنة ٣٠٠م كانت حدود الشام الشرقية يحرسها نحو ٢٣,٠٠٠ جندي من فارس وراجل[١٥٠].

٢ ــ فلسطين والمسيحية بعد قسطنطين:

يجدر بنا، قبل أن نتناول التطور الذي مرّ بالمسيحية وبالكنيسة في فلسطين والجوار في الفترة التي تلت عصر قسطنطين، أن ندون بعض الملاحظ الأساسية لمتابعة هذا التطور. وأولها أن المسيحية كان انتشارها الأول في المدن لا في الريف باستثناء شمال أفريقيا حيث كان الريف مجالها الأول ثم دخلت المدن. وثانيها أن المسيحية سارت في انتشارها مع الطرق التجارية بوجه عام. وثالثها أن المسيحية بعد أن تخلصت من التصاق اليهودية بها وأصبحت ديانة جديدة تماماً، ظهر فيها اتجاهان عامّان: اتجاه مشرقي يتمثل في الكنيسة التي نظمت أمورها في بلاد الشام ثم في بعض مناطق العراق، وكانت اللغة المستعملة في خدمتها هي السريانية (وهي اللغة الآرامية متنصِّرة ومعدلة) أما في مصر فقد استعملت الكنيسة المرقسية (الشرقية طبعاً) اللغة القبطية. وأما الاتجاه الثاني فكان هلينستياً وظهر بشكل خاص في آسيا الصغرى وبلاد اليونان والإسكندرية بالذات، وكان الأتباع هنا يعتمدون اللغة اليونانية. ومع أن شمال أفريقيا كان تابعاً للمجال اليوناني، فقد استعملت اللغة اللاتينية هناك، وهذه هي اللغة التي استُعملت في إيطاليا وإسبانيا وبلاد الغال أيضاً. بهذه اللغة كتب آباء الكنيسة هناك مثل ترتُليان Tertullian وكبريانوس Cyprian القرطاجي وأغسطين Augustine. ورابع هذه الأمور هو أن نشر المسيحية كان عملاً قام به الأفراد، إذ لم تكن قد نُظِّمت مؤسسات للقيام بهذا العمل التبشيري (يُستثنى من ذلك بعض المناطق الأوروبية التي أخذت كنيسة رومة على عاتقها إرسال مبشرين إليها في وقت مبكر نسبياً). وخامساً، وأخيراً، هو أن الجماعات المسيحية كانت قد انتظمت في كنائس كمؤسسات تنظيمية، بحيث كان يقوم على رأس كل أبرشية (التي كانت حدودها تتفق مع التقسيم الإداري بحيث تساوي ولاية) متروبوليت، ويكون تحت إمرته أساقفة يشرفون على مناطق أصغر. ومع الزمن قامت في المشرق أربع كنائس رئيسة هي القسطنطينية وبيت المقدس وانطاكية والإسكندرية. (وكانت قرطاجة المركز الرئيس للكنيسة في شمال أفريقيا).



فمن الطبيعي أن تقوم في المسيحية والكنائس المتكونة حولها خلافات متعددة الأنواع ومنوعة الاتجاهات. فتباين الخلفيات التاريخية الحضارية والاجتماعية للفئات المتعددة، هلينستية كانت أو شرقية أصلية أو مطعّمة كان لا بد أن يؤدي إلى خلافات لاهوتية حول أمور دقيقة. واختلاف لغات الكتابة والتخاطب جعل التفاهم حول تحديد قضايا العقيدة صعباً، ثم جَعَلَ نقل الآراء إلى الآخرين عن طريق الترجمة بالدقة اللازمة متعذراً. هذا فيما يتعلق بالأصول، لكن حتى الفروع والتشريعات التي أخذت طريقها إلى المجتمع، والتنظيمات بحد ذاتها كانت تثير الكثير من الجدل. هذه بعض المشكلات التي واجهت القوم وحاولوا حلها. وكانت هذه المحاولات تقوم على أساس انعقاد المجامع التي يؤمها الأساقفة، وهم الذين كانوا يشرفون على الكنيسة والجماعة، (وهم أشخاص منتخَبون). وكان رئيس الأبرشية (أنطاكية أو القسطنطينية أو الاسكندرية أو القدس ــ بعد ٤٥١) هو الذي يدعو إلى عقد المجمع، وقد يدعو إلى عقد المجمع مجموعة من الأساقفة. هذه المجامع التي كانت تُعقد داخل حدود الأبرشية (وقد يحضرها أساقفة من أبرشية مجاورة بالدعوة) هي مجامع إقليمية. والذي نعرفه هو أن أول مجمع إقليمي عقد في المشرق كان في قيصرية بفلسطين سنة ١٩٨ (إلا إذا اعتبرنا تجمع فئة من قادة الحركة المسيحية في سنة ٤٣ في بيت المقدس مجمعاً إقليمياً). وقد توالت المجامع الإقليمية فكانت تُعقد في أنطاكية وفي مدن آسيا الصغرى والاسكندرية وبيت المقدس وغيرها. وقد عُقد من هذه المجامع نحو ثلاثين مجمعاً قبل نهاية القرن الخامس[١٥١].

لكن القضايا الكبرى كانت بحاجة إلى مجمع مسكوني يحضره أساقفة من أقطار المعمورة حيث يوجد مسيحيون.

وعُقد أول مجمع مسكوني في نيقية سنة ٣٢٥، وقد دعا إليه الامبراطور قسطنطين نفسه، رغبة منه في أن يُوضَع حد للدعوة الأريوسيّة التي عصفت يومها بالكنيسة في مصر وفلسطين وغيرهما. وحضر هذا المجمع من فلسطين مكاريوس، أسقف القدس، ويوسابيوس أسقف قيصرية. (لم تكن بيت المقدس قد أصبحت أبرشية كبيرة بعد، إذ إن هذا تم سنة ٤٥١ لما أصبح لها بطريرك، وأصبحت فلسطين بطريركية). وقد وصلتنا تفاصيل عن هذا المجمع من قلم يوسابيوس Eusebius المؤرخ وأحد الأعضاء. وقد حضر قسطنطين حفلة الافتتاح. وهنا نورد وصف يوسابيوس لهذه الحفلة. قال:

«واجتمع الآباء الأجلّاء في اليوم العشرين من أيار [مايو] من شهور السنة ٣٢٥ في بهو كبير في البلاط، وجلسوا في الأماكن المخصصة لهم إلى اليمين وإلى اليسار وباتوا ينتظرون وصول الامبراطور مُنصتين. ثم أُعطيت الإشارة بوصوله فانتصبوا احتراماً وإجلالاً. ودخل قسطنطين بالأرجوان والذهب ووراءه بعض أفراد الحاشية من المسيحيين. ولما وصل إلى المكان الذي أُعِدَّ له، شاء الا يجلس قبل جلوس الأساقفة. وأمرهم فامتثلوا.

«... وتوسط الامبراطور مجلس الآباء على كرسي من ذهب. ونهض رئيس المجمع [لعله كان أسقف أنطاكية] فشكر للامبراطور عنايته بالكنيسة. فرد عليه الامبراطور شاكراً لملك الكون نعمه الكثيرة ولا سيما تلك التي أتاحت له أن يرى الأساقفة مجتمعين بفكر واحد وقلب واحد... وأكد أنه يعتبر كل شغب في داخل الكنيسة مساوياً في الخطر لحرب كاملة»[١٥٢].

والمهم هو أن نتنبه إلى موقف قسطنطين الذي اعتبر نفسه امبراطوراً وراعياً للكنيسة التي أوجد لها هذه المكانة الخاصة بتبنيها، وذلك بوصفه الكاهن الأعظم لديانات الامبراطورية قبل أن يتنصر.

وقد عقدت فيما بعد مجامع مسكونية عديدة، يهمنا منها: الأول مجمع نيقية (٣٢٥ م) المار ذكره، والثاني مجمع القسطنطينية (٣٨١ م)، والثالث مجمع إفسس (٤٣١ م) والرابع مجمع خلقدونية (٤٥١ م) والخامس مجمع القسطنطينية أيضاً (٥٥٣ م). وقبل أن ينعقد المجمع السادس في رومة (٦٤٩ م)، كان العرب قد احتلوا فلسطين، فلم يحضره، ولا حضر بعده أياً من المجامع أساقفة من فلسطين وسوريا ومصر كممثلين رسميين لأبرشياتهم.

والقضايا التي بحثت في هذه المجامع (راجع ما يلي) لم تحلّ. وكثيراً ما كان الامبراطور يلجأ إلى فرض الحل الذي يرتئيه، أو قد يتوصل إليه المجتمعون بأكثريتهم، لكن ذلك لم يعن أن حل الامبراطور أو رأي الأكثرية كان يُقبل بالضرورة. إن الأقلية قد تزداد عناداً، وتخرج من المجمع غاضبة، وقد تتعرض لاضطهاد رسمي أو مضايقات على الأقل[١٥٣].

يبدو أن المناطق المعزولة في فلسطين، مثل المناطق المعزولة في ما تبقى من بلاد الشام ومصر، كانت دوماً ملجأً لأولئك الذين يريدون أن ينبذوا الحياة الدنيا، فيقصدونها للتنسك والتعبد والتهجّد. والجماعات على اختلافها، والأديان على تباينها، كانت تنفذ حركات التنسك إليها، فتجذب بعض الأتباع للابتعاد عن الدنيا. وقد تزداد الرغبة نتيجة ضغط سياسي أو اضطهاد ديني أو خيبة أمل لم يتحقق للجماعة. ولعلّ الأسينيين، الذين تحدثنا عنهم قبلاً، من هذه الفئة الأخيرة، من حيث انهم أرادوا أن يقيموا لأنفسهم حياة روحية خاصة بعد شعورهم بالفراغ، فضلاً عن أنهم تعرضوا لضغط سياسي ــ اجتماعي في مؤسساتهم.

والمسيحية عرفت الرهبنة إما تنسكاً فردياً في خلايا خاصة قد تكون كهفاً أو كوخاً أو أقل من ذلك؛ وإما انقطاعاً جماعياً في أديرة. ولعلّ الاضطهاد الديني الذي لقيه المسيحيون على أيدي أباطرة القرن الثالث كان باعثاً على ازدياد عدد المترهبين تدريجاً.

كان أنطونيوس الكبير (٢٥١ ـ ٣٥٦ م) الذي بدأ اعتكافه في وادي النطرون في مصر حوالي سنة ٢٧٠، هو المؤسس لحركة الرهبنة، وقد التف حوله النساك والزهاد، أفراداً لا جماعات. ولما انضم القديس باخوميوس Pachomius (٢٩٠ ـ ٣٤٨ م) إلى الحركة، وكان مركزه في صعيد مصر، فضّل أتباعه التنسك مجتمعين بحيث يقيم كل راهب في مكانه، ولكنهم يجتمعون مساء السبت والأحد للصلاة. ومن هنا فقد عرفت الرهبنة من البدء هذين الاتجاهين. ثم جاء اتجاه ثالث هو تطور للتنسك الجماعي وهو قيام الجماعات ببناء الأديرة، حتى في المدن، والإقامة فيها إقامة دائمة.

وقد جاء الكثيرون من المؤمنين من جهات مختلفة لزيارة المتنسكين المصريين والتعلّم منهم. ولما عادوا إلى بلادهم ـ إلى فلسطين وسوريا واديسا (الرها) والجزيرة الفراتية وآسيا الصغرى ـ أنشأوا هناك رهبنات كثيرة. ويبدو أن أول الرهبان في فلسطين (وكانت فلسطين لا تزال تابعة لأبرشية أنطاكية) كان هيلاريون الغزّي (حوالي ٢٩١ ـ ٣٧١ م). ولد هيلاريون Hilarion حوالي سنة ٢٩١، من أبوين وثنيين، في قرية تبعد نحو ثمانية كيلومترات إلى الجنوب من غزّة هي في الغالب تبثة (Tabatha) وذهب إلى الإسكندرية طالباً للعلم، وهناك بدأ اهتمامه بالمسيحية. والتحق بالقديس أنطونيوس الكبير، ثم عاد إلى فلسطين (٣٠٧) واعتكف في برية غزّة. وقد تقاطر إليه الكثيرون، إذ ان المسيحية كانت قد تغلغلت في النقب وأدوم منذ أواخر القرن الثالث، فأخذوا عنه ونسجوا على منواله، فكثرت الأديرة في فلسطين، واكتظ بها الجوار الذي كان يقيم فيه هيلاريون. وكان من عادته أن يقوم بزيارات منظّمة لمجموعات الرهبان والنساك المقيمين في صحراء غزّة. وكانت هذه الزيارات تؤدي إلى قيام تجمعات كبيرة من الناس بسبب تعمّدهم الذهاب إلى المكان الذي يؤمُّه هيلاريون. وكانوا يصرخون بالعربية : «بارِكْنا، بارِكْنا»، على ما رواه القديس ايرونيموس Heironymus المعروف باسم جيروم Jerome في وصفه لزيارة تمت سنة ٣٥٧ لمنطقة ألوسا (الخَلَصَة). وبسبب هذا الضغط الشديد على حياته ترك الجماعة وشأنها وعاد إلى الصحراء المصرية. واضطر بسبب الهجمة الوثنية أيام الامبراطور يوليان المرتد أو الجاحد (٣٦١ ـ ٣٦٣ م) إلى النزوح بعيداً، فهاجر إلى ليبيا وصقلية ثم انتهى مقيماً في قبرص إلى حين وفاته سنة ٣٧١. وقد دُمِّرت أبنية النساك والأديرة في فلسطين في أيام هذا الامبراطور فروّع الرهبان وهربوا. وبعد زوال غمّة يوليان أعاد أحد أتباع هيلاريون تنظيم الرهبنة من جديد. ورهبان هيلاريون كانوا نواة رهبنة الأساس في تنظيمها استعمال اللغة الآرامية / السريانية، وكانوا خصوماً للفئة التي استعملت اليونانية لغة أساسية.

قامت المنطقة الصحراوية وشبه الصحراوية التي تمتد من القدس شرقاً إلى البحر الميت بدور خاص فيما يتعلق بالتنسك والرهبنة. وقد شاع في هذه المنطقة نظام التنسك الجماعي، أي أن يعيش الرهبان كل في صومعته، لكنهم كانوا يجتمعون في أوقات العبادة. وكان خريطون Chariton أول من تنسّك في فلسطين وأقام أولى مؤسساته في مكان حمله اسمه خرَيْطون Khraitun، في جهات بيت لحم. ولا يزال المكان يحمل اسمه.

أما الرهبنة اليونانية الأساس فقد قامت في فلسطين بوصفها تفرعاً من رهبنة باسيليوس الكبير (حوالي ٣٢٩ ـ ٣٧٩). وباسيليوس Basil هذا كان أصله من آسيا الصغرى، وقد تم القسم الأكبر من عمله هناك. ورهبنته هي التي اعترفت بها الكنيسة الامبراطورية. وقد قام بإنشاء فرع لهذه الرهبنة في فلسطين الراهب يوتيميوس Euthymius (حوالي سنة ٤٠٥ م) وذلك في نقطة أبعد عن القدس من خريطون المذكورة آنفاً.

وقد انقسم الرهبان في فلسطين على أنفسهم تبعاً لما كان المسيحيون ينقسمون حوله ويختلفون عليه، وهي أمور لاهوتية دقيقة تتعلق بدرجة خاصة بالعلاقة بين الآب والإبن ودور الروح القدس بالنسبة لهما، وما إلى ذلك. وكان الرهبان الناطقون بالآرامية خصوماً لمجمع خلقدونية (٤٥١ م) وما صدر عنه، والأصل فيه القول بطبيعتي المسيح، فيما كان الرهبان الناطقون باليونانية أنصار خلقدونية ومقررات مجمعها. وهذه المقررات هي التي نالت موافقة الدولة. وقد اتخذت الخصومة شكل قتال بين الفريقين، منها ما تم بعد المجمع مباشرة. فقد عاد جوفنال Juvenal، أسقف بيت المقدس، من خلقدونية وقد رسم بطريركاً، ورفعت درجة فلسطين إلى بطريركية. ومعنى هذا أن المكان الأول بين رجال الكنيسة في فلسطين أصبح للبطريرك، بقطع النظر عن كون قيصرية هي العاصمة الإدارية للولاية. وقد كوفىء جوفنال بهذا المنصب نتيجة لتبديل موقفه فأيّد المجمع ومقرراته. فلما وصل إلى بيت المقدس قوبل بعاصفة شديدة من الاحتجاج قام بها الرهبان المحليون؛ ثم طردوه مع بعض

الأساقفة. لكن هؤلاء استعانوا بالدولة فأخمد الامبراطور مركيان Marcian (٤٥٠ ــ ٤٥٧ م) حركتهم بالقوة. وطلب من الموجودين إما الموافقة على خلقدونية أو الخروج من البلاد. فخرج الكثيرون. ثم أُخرج جميع الرهبان القائلين بالطبيعة الواحدة من بيت المقدس. وخرج الراهب رومانوس Romanus وأنشأ جماعة جديدة في طقوع (سنة ٤٨٤ م) حيث انضمّ إليه كثيرون من الرهبان المطرودين[١٥٤].

وكانت ثمة حركة رهبانية من نوع آخر. فالحُجّاج الغربيون الذين أخذوا يتوافدون على فلسطين منذ حوالي سنة ٣٠٠، وكانت أعدادهم تتزايد، أخذ البعض منهم ينشئون أديرة في القدس وبيت لحم وما إليهما من الأماكن المقدسة، ويعيشون في هذه الأديرة المنفصلة نساكاً إما رهباناً أو راهبات عيشة مشتركة، ويمثل هذا الاتجاه القديس جيروم، والتقيّة باولا Paula.

كان جيروم (ايرونيموس) إيطالياً، ولد سنة ٣٤٧، وتوفي في بيت لحم سنة ٤٢٠ بعد أن قضى فيها آخر ٣٥ سنة من عمره. وكان جيروم كبير الاهتمام بالدراسات اللغوية والأدبية في شبابه. فتعلّم البلاغة والبيان في رومة، وقبل سرّ المعمودية على يد أسقفها. وزار الشرق وقضى سنوات ثلاثاً يدرُس العبرية واليونانية واللاهوت في القسطنطينية، وتنسّك في بريّة قِنّسرين، وعاد إلى رومة سنة ٣٨٢. عيّنه أسقف رومة كاتباً له وطلب منه أن يُعدّ ترجمة للكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية. ولما توفي دماسوس Damasus، أسقف رومة، كان جيروم مرشحاً لأن يخلفه. إلا أن ذلك لم يتم، فخرج جيروم من رومة ومعه مكتبته، وانضم إليه أخوه وكاهن وباولا ويوستوكيوم Eustochium صديقتها. وبعد زيارة للأماكن المهمة في الأرض المقدسة انتهى بهم المطاف إلى بيت لحم. هناك شاد جيروم ديراً للرهبان وشادت باولا ديرين الواحد للرهبان والآخر للراهبات، وهذا الدير الأخير أدارته بنفسها. وجاءت ميلاني Melani سنة ٣٧٧ وبنت ديراً للراهبات في جبل الزيتون.

وانصرف جيروم إلى الكتابة. فوضع شروحاً مفصّلة ومفيدة جداً على أسفار الكتاب المقدس. ولكن أهم أعماله هو أنه أتم هناك رغبة رئيسه السابق أسقف رومة، فنقل الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية في ترجمة بليغة سُميت فولغات Vulgate. وهذه الترجمة هي أساس النص اللاتيني الذي تستعمله الكنيسة الكاثوليكية بعد أن أُدخِلت عليه تعديلات طفيفة، ووافق عليه الكرسي الرسولي في القرن السادس عشر[١٥٥].

كان تنظيم الكنيسة في فلسطين يسير على أساس الوحدات الإدارية، فحيث يوجد مسيحيون وكنيسة أو كنائس كان يتولى إدارة شؤونها «أسقف» يتم انتخابه من قبل العلمانيين ورجال الدين. وكانت الأمور التنظيمية بالنسبة للكنيسة (في فلسطين) غير واضحة ولا معينة تماماً. وهي في ذلك لم تكن تختلف كثيراً عن بقية الولايات. ولا شك أن الاضطهاد الديني الذي عرفته البلاد أخّر أي احتمال تنظيمي، ومع ذلك يمكن التعرف إلى ملامح تنظيمية محدودة تمت بين أيام سبتيميوس سفيروس وديوقلتيان (أي بين سنتي ١٩٥ و٢٩٥). منها أن أسقف المدينة كانت سلطته نافذة في المدينة وفي الأراضي التي تعترف بها الحكومة أنها تابعة للمدينة. ومتروبوليت الولاية كانت سلطته تشمل الرعايا المسيحيين في الولاية بأجلها إلا سكان المدن المستقلة. وفي الفترة التي أشرنا إليها كان جزء من فلسطين الشمالية يتبع ولاية سوريا ــ فينيقيا (ومركزها صور حيث يقيم المتروبوليت)، وكان له وكيلان، واحد في عكا والآخر في بانياس الداخلية (قرب منابع الأردن)، وقد حضرا مجمع نيقية (٣٢٥ م). أما ولاية فلسطين، التي كانت تشمل أيضاً جزءاً من صحراء سيناء والبتراء وجزءاً من

المراكز المسيحية في فلسطين بين القرنين الرابع والسادس م

الديكابوليس (بيسان ــ سكيثوبوليس) فقد كانت قيصرية عاصمتها الإدارية، ومركز متروبوليتها، وكان يتبع هذا وكلاؤه في فلسطين في كل من نابلس وسبسطية وأراضي سبسطية واللجون (ليغو مكسيميا نوبوليس) وصفورية ويبنا وأسدود وعسقلان وغزة واللد وعمواس (نيكوبوليس) وبيت جبرين (اليوثيروبوليس) وأريحا وبيسان. وكان لأسقف بيت المقدس منزلة شرف خاصة به بوصفه أسقف كنيستها المسماة ‹أم الكنائس› ولو أنه لم يكن أكبر الرؤساء الروحيين منصباً في فلسطين، لأن هذا المنصب كان لمتروبوليت ‹قيصرية›. ولسنا نعرف عن أوضاع المدن التي كان عدد المسيحيين فيها صغيراً، ولكن يُظَن أن الإشراف عليهم كان يُلقى على عاتق أرشمندريت، ولعلّه كان يعين من قبل المتروبوليت. وهذه المدن هي يافا وأرسوف (أبولونيا) ورأس العين (أنتيباترس) والطنطورة (دورا).

ولما جُعلت فلسطين ولايات ثلاثاً صار لكل ولاية متروبوليت، وكان يليه في الرتب الوظائفية الدينية الأساقفة للمدن الكبيرة. لكن التغيير الإداري الكنسي الذي يعود إلى مجمع خلقدونية، المنعقد سنة ٤٥١، هو رفعُ درجة بيت المقدس إلى بطريركية. وعندها أصبح بطريرك بيت المقدس هو الرئيس الروحي للكنيسة الفلسطينية، وأصبح متروبوليت قيصرية تابعاً له.

ولعله من المفيد أن يقارن الواحد بين أعداد آباء الكنيسة الذين مثلوا المناطق الفلسطينية في مجامع نيقية (٣٢٥) وإفسس (٤٣١) وخلقدونية (٤٥١) المسكونية، وفي مجمعين إقليميين عُقدا في بيت المقدس سنتي ٥١٨ م و ٥٣٦ م[١٥٦]:

عدد الرؤساء	المجمع (والسنة)
٢٠	في مجمع نيقية (٣٢٥)
١٥	في مجمع إفسس (٤٣١)
٢٨	في مجمع خلقدونية (٤٥١)
٣٢	في مجمع بيت المقدس الأول (٥١٨)
٤٣	في مجمع بيت المقدس الثاني (٥٣٦)

ولنذكر أن المجامع المسكونية لا يحضرها سوى أصحاب الرتب العالية من الآباء الروحيين، فيما حضور المجمعين الإقليميين واجب على كل رئيس روحي في البلاد. ثم إن عدد المسيحيين ازداد بين زمن انعقاد مجمع نيقية (٣٢٥) وانعقاد مجمع خلقدونية (٤٥١). ثم يجب أن يتذكر الواحد منا الظروف التي دُعي فيها المجمع للانعقاد. فمجمع نيقية دعا إليه قسطنطين ليحل الخلاف بين الآريوسيين وخصومهم. أما مجمع خلقدونية فدُعي لبحث أمور متعددة منها ما يتعلق بتوضيح العقيدة وإقرار قانون الإيمان بما كان يدور حوله من اختلافات في وجهات النظر.

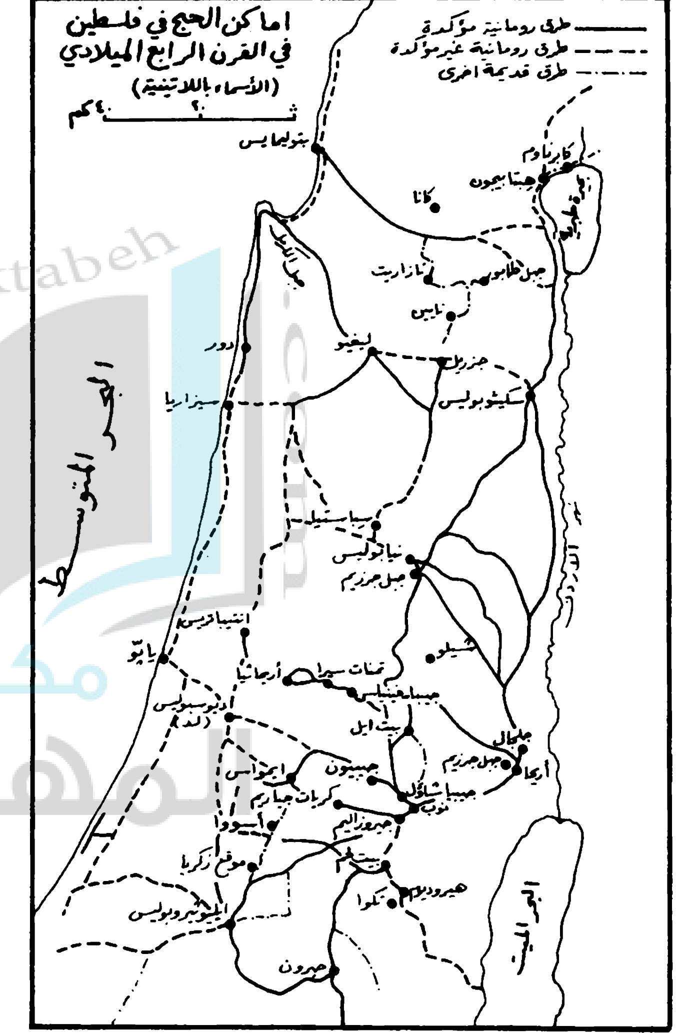
وما دمنا في الحديث عن المسيحية وتنظيم الكنائس، فإنه يتوجب علينا أن نعرض هنا باختصار للخلافات التي مرت بالكنيسة مع الاهتمام بالدور الذي كان لفلسطين فيها. وأول هذه كانت بدعة الآريوسية التي شغلت رجال الكنيسة في القرن الرابع. وصاحب هذه البدعة هو آريوس Arius (٢٥٦ ــ ٣٣٥) الليبي الأصل الاسكندري النشأة. وكانت خلاصة فكرته هي تأكيد لمنزلة الأب، وقد لقيت أرضاً خصبة عند الرهبان المصريين. وفي مجمع عقد في الاسكندرية قُطِعَ (أي عُزِلَ) آريوس، فخرج إلى فلسطين وقصد يوسابيوس أسقف قيصرية حيث لقي بعض التشجيع. ثم خرج من فلسطين إلى نيقوميديا وغيرها. ومن الأماكن المختلفة كتب إلى إخوانه الأساقفة يوضح موقفه. وانتشرت البدعة الآريوسية في أوروبا، ووصلت شمال أفريقيا عن طريقها. ولم يستطع مجمع نيقية المسكوني (٣٢٥) أن يحل هذه العقدة. ومع أن أمرها ضعف مع الوقت أمام البدع الجديدة التي ظهرت، فقد ظل لها أتباع هنا وهناك إلى القرن السابع.

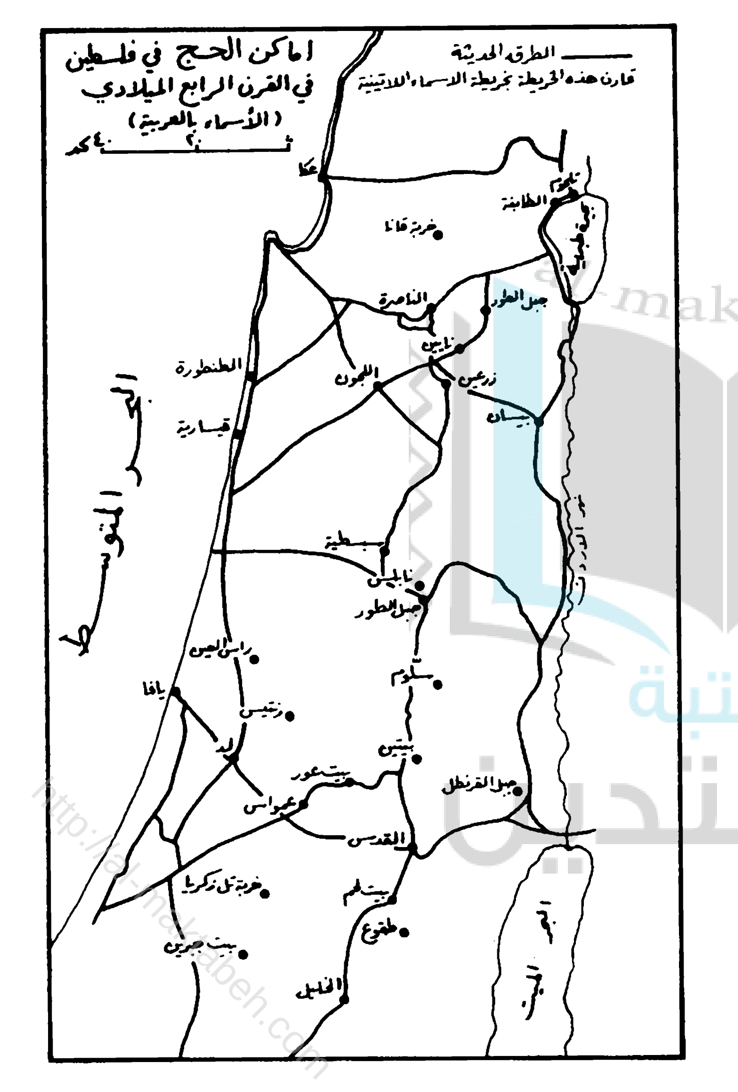
وبعد نحو قرن من قيام بدعة آريوس ظهرت الدعوة النسطورية. كان نسطوريوس Nestorius قد بلغ قمة المجد لما أصبح أسقفاً على القسطنطينية في نيسان/ابريل سنة ٤٢٨. وكانت مدرسة الاسكندرية يومها تنهج في التفاسير اللاهوتية نهجاً فلسفياً، فتتحدث عن اللاهوت والناسوت (أي الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية) في المسيح، لكن دون القطع في التفاصيل. أما أنطاكية فكانت تميز بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح. وكان نسطوريوس يقول بما يصح أن يُسمى «القول بالطبيعتين» فيما كان آخرون يقولون بالطبيعة الواحدة. وقد اجتمع مجمع إفسس Ephesus سنة ٤٣١ لبحث هذه القضية فكان الحكم الذي أصدره الامبراطور هو خلع نسطوريوس عن أسقفية القسطنطينية وخلع عدد من مؤيديه بينهم كيرلّس Cyril الاسكندري. ونُفي نسطوريوس فيما بعد إلى صحراء ليبيا، وحُرِّمت تعاليمه. وأنشأ النساطرة، أتباع نسطوريوس، مركزاً لنشر تعاليمهم في إديسا (الرها) ثم ارتأوا أخيراً أن يرحلوا عن امبراطورية بيزنطية إلى الدولة الساسانية الفارسية، فرحب بهم الملك فيروز (٤٥٧ ــ ٤٨٣). وفي مقرهم الجديد عنوا بنقل الفلسفة والمنطق والطب من اليونانية إلى السريانية في الحيرة وفي

جنديسابور. وقد أصبحت الحيرة مركزاً هاماً للحياة النسطورية، لكن جنديسابور، في جنوب غرب إيران، تقدمت عنها كثيراً، وكانت لها خدمات هامة بالنسبة للطب انتقلت منها إلى الدولة العربية في القرنين السابع والثامن(١٥٧).

وتقوّت حركة القول بالطبيعة الواحدة. واعتُبرت بأنها القاعدة اللاهوتية الصحيحة في مصر وفلسطين وبعض أجزاء سوريا، سيما الداخلية منها. وقد أمَّ فلسطين في أواسط القرن الخامس عدد كبير من النساك والرهبان من القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح، بحيث أصبحوا (٤٥١ م) أكثرية ساحقة بين الرهبان هناك. ودُعي الأساقفة إلى خلقدونية (٤٥١ م) لعقد مجمع مسكوني للفصل في هذه القضية. وكان ثمة الكثير من الاحتجاج والتظاهر تأييداً للقول بالطبيعة الواحدة، ثم تطور الاحتجاج إلى قتال مسلح كان فيه أتباع النزعتين يتصرفون تصرفاً بعيداً عن التعاليم المسيحية. وأقر مجمع خلقدونية صواب الرأي القائل بالطبيعتين واعتبره المذهب الرسمي للكنيسة، واعتبر القائلين بالطبيعة الواحدة كفاراً خطاة. إلا أن هؤلاء القائلين بالطبيعة الواحدة (وقد سمّوا اليعاقبة فيما بعد) ظلوا يقيمون في أوطانهم، أي في الامبراطورية البيزنطية، ولم يخرجوا كما فعل النساطرة. ولا بد من التذكير بأن عدد اليعاقبة كان كبيراً جداً بالنسبة لمصر وفلسطين والأردن وسوريا الداخلية.

وعندما ينظر المرء إلى هذه القضية وما دار حولها من خلاف وقتال دام، يدرك أن الخلاف لم يكن دوماً يدور حول 'إيمان وكفر' أو 'صواب وخطأ' في العقيدة. فالواقع هو أن الفئات التي قبلت القول بالطبيعة الواحدة هي تلك التي كانت تستعمل اللغة السريانية في بلاد الشام والعراق واللغة القبطية (واليونانية) في مصر، أما الذين قبلوا بما قرّره مجمع خلقدونية فكانوا يستعملون اللغة اليونانية. والذي يجمع عليه الباحثون هو أن الخلاف كان أصلاً خلافاً بين تقليدين أو تيارين فكريين يمثلان





مـدرستين قديمتين. فمع أن كلاً من الفريقين كان لديه الكثير مما يؤيد صحة ما ذهب إليه، فإن أياً منهما لم يستطع أن يَقْبَلَ الفريق الآخر أبداً. ولعلّ تدخل الدولة (الامبراطور) في القضية كان من أسباب تحكّم الخلاف واستحكام العـداء. فإصـرار الدولة، في مجمع خلقدونية، على وجوب وضع التعريف الدقيق وإجبار المسيحيين الشرقيين ـ في مصر وفلسطين والأردن وسوريا الداخلية ـ على قبول معادلة خلقدونية أثار حفيظة المواطنين الذين كانوا يتضايقون من السلطة البيزنطية على كل حال.

والذي نخلص إليه من هذا هو أن التعلّق بالطبيعة الواحدة كان ثورة وطنية عارمة ضد السلطة، اتخذت هذا الشكل الديني، وعبّرت عن موقفها تعبيراً عنيفاً فيه كثير من التصرفات العنيفة أيضاً. الشعب أراد أن يعبر عن شخصيته وطبيعته وموقفه بتعلّقه بالقول بالطبيعة الواحدة ورفضه معـادلة خلقـدونية. والـدولة بتدخلها لإكراه الناس على قبول هذه المعادلة، حالت دون الناس وتحقيق شخصيتهم. لـذلك كـان انتصـار الأسقف الشعبي، أو حتى مجرد وقوفه في وجه الخصوم الذين يؤيدون الدولة مدعاة للفخر والعمل الثوري. وإذ وُضِعَ الناس أمام خيار بين الخضوع لدكتاتورية الدولة، وبين الاعتراض دينياً، فضّلوا الخيار الأخير. وقد كلّفهم ذلك الكثير من التضحية والاستشهاد. وهذا ما يُسمى اضطهاد المسيحيين للمسيحيين واضطهاد فريق قوي منهم للفريق الضعيف الأعزل(١٥٨).

٣ ـ السكان والأعمال
من القرن الرابع إلى القرن السادس:

لم يتبدل سكان فلسطين في الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن السادس من حيث العناصر التي كان يتكون السكان منها إلا في ناحية واحدة. لقد ازداد عدد العرب بين السكان. ففضلاً عن الأدوميين في الجنوب والأيطوريين في الشمال الشرقي والقبائل التي كانت تقطن منطقة السهـل السـاحلي الجنوبي والأوسط، جاء الآن عدد من الجماعات الغسانية التي غشيت شرقي الأردن منذ القرن الرابع واستقرت في مناطق غور الأردن الأوسط وجهات نابلس. وثمة ما يبرر القول بأن بعض الأنباط انتقلوا إلى فلسطين الجنوبية أيضاً.

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى دخول «الرومان» إلى البلاد موظفين وجنـوداً وتجاراً. وهؤلاء كـانوا يـأتون للعمـل، لكن لا يلبثون حتى يستقروا ويصبحوا جزءاً من سكـان فلسطين.

وكلمة «الرومان» عندما نستعملها للجنـد، لا تعني بالضـرورة «أفراداً» رومانيـي الأصل. فنحن عندما ندرس تكوين «الفرق» الرومانية التي عُهد إليها بحراسة ثغور البلاد وحمايتها، والمحافظة على الأمن في البلاد نفسها، نجد أنها مكوّنة من جميع أصناف السكان في الامبراطورية الرومانيـة ـ من المغرب إلى حـوض الدانوب إلى القبائل الجرمانية التي استقرت هناك مثل القوط إلى المشرق(١٥٩).

أما من حيث التبدلات الدينية فقد تبدّل الوضع. لقد ظل في البلاد فئة من اليهود كانت، على عادتها، تتكتّل بحيث وصلت إلى درجة كبيرة من التحجر الاجتماعي والفكري، كما ظل فيها السامريون (أو السَّمَرَة) الذين كانوا ينتشرون في مناطق كثيرة من البلاد. ففي العصر البيزنطي كان اليهود يقيمون في الجليل وفي بعض المدن الساحلية مثل قيصرية وأرسوف ويافا ويبنا واللد، وفي قرى في الجنوب الفلسطيني. وكان السامريون ينتشرون في منطقة نابلس (السامرة) وفي السهل الساحلي الأوسط. وكانت الفئتان تقطنان في المدن، وفي أحياء خاصة بها. وكثيراً ما كان أفرادهما يثيرون الشغب والفوضى.

وقد ظهرت في المدن والقرى الفلسطينية جماعة دينية جديدة هم المسيحيون. ولكن لم يُعـرف عنهـا أنها استبـطنت الحيـاة أو اعتزلتها. فمن حيث الأمور العادية كان المسيحيون يسهمون في أمور الجماعة، وبعد أيام قسطنطين أصبحوا يشاركون في شؤون الدولة أيضاً. أما من أراد اعتزال الحياة من المسيحيين فله أن يلجأ إلى دير أو إلى جماعة نساك. وكان في فلسطين من هذين النوعين عدد لا يستهان به. ولم تخل فلسطين يومها من فئات وثنية حتى القرن الرابع للميلاد على الأقل، وكانت لها هياكلها وكهنتها وعبادتها. ويبدو أن جيوباً كبيرة من الوثنيين كانت لا تزال موجودة في المناطق الساحلية من فلسطين بشكل خاص. وكانت غزة من أكبر المراكز الوثنية حتى أواخر القرن الرابع للميلاد.

ولسنا نحسب أن عدد السكان ازداد كثيراً في العصـر البيزنطي. فأية زيادة طبيعية أو زيادة ناتجة عن هجرة إلى البلاد من الخارج كان يقابلها نقصان بسبب الاضطهادات والهجرة من البلاد. ولذلك فالرقم الذي ذكر قبلاً وهو أن سكان سوريا بأجمعها قدروا بما تراوح بين ستة ملايين وثمانية ملايين نسمة، وأن نحو الثلث كانوا يقطنون في فلسطين، يصح للفترة البيزنطية، والمبكرة منها على الأقل.

يقول ا. هـ. م. جونز في كتابه **الامبراطورية الرومانية المتأخرة**

انه ليس لدينا ما يدل على أن الأساليب الزراعية تطورت في أيام الامبراطورية الرومانية. فالمرشد الزراعي الذي وضعه بلاديوس Palladius في القرن الرابع للميلاد لإرشاد المزارعين المعاصرين له، يذكر القواعد عينها التي أوردها كاتو Cato وكولوملّا Columella قبل ذلك بأربعة قرون على الأقل. وليس من شك في أن بعض أنواع من الخضار أو الفواكه أو حتى من الأشجار قد نُقِلت من جهة إلى أخرى بسبب سهولة التنقل في إطار الدولة الواحدة، لكن أنواع الحبوب الأساسية ظلت هي العنصر الرئيس للإنتاج، كما ظلت وسائل الإنتاج على حالها[١٦٠].

ولم يتبدل النتاج الزراعي في فلسطين كثيراً. فعسقلان مثلاً كانت مشهورة بالخمور الجيدة والبصل الممتاز؛ واستمرت في العصر الروماني ـ البيزنطي على ذلك، إلا أن الأسواق اتسعت بسبب هذه الامبراطورية. فأصبح خمر عسقلان وبصلها يباعان في أسواق دولة الفرنجة. وكان في ميناء غزة، ميوماس، وكلاء مصريون يقيمون دوماً للاتجار بخمور المدينة وأرباضها. وكانت أسماك سواحل المتوسط الفلسطينية تزود صيادي السمك بالكثير من الأنواع التي كانت تجفف وتُنقل إلى الداخل.

ومن المعروف أن البلسم كان ينتج في غور الأردن (قرب أريحا) وفي عين جدي، من أوائل العصر الهلينستي على الأقل. وفي القرن الرابع وُسِّعت منطقة إنتاجه إلى شرقي الأردن مقابل عين جدي. وقد استمرت المنطقة تنتجه إلى وقت متأخر، فقد ذكره رحالو القرن السابع من الأوروبيين كأحد المواد الهامة التي يحرصون على حملها إلى بلادهم. وكانت واردات الدولة من تجارة البلسم في القرنين الرابع والخامس كبيرة، إذ كان الاتجار به حكراً على الدولة، كما كان الحال عليه في أيام البطالمة والسلوقيين. وحري بالذكر أن التجار الشاميين ـ ومنهم الفلسطينيون طبعاً ـ كانوا يقومون بتنسيق الأعمال التجارية عن طريق وكلائهم المقيمين في أوروبا الجنوبية. وقد استمر هذا الحال حتى في القرن السادس[١٦١].

كان من الطبيعي أن تكون الموانىء الفلسطينية محط المنشآت والجواري التجارية الكبيرة والصغيرة على السواء. فالسفن التجارية التي كانت تدخل ميناء غزة ويافا وقيصرية مثلاً كانت حمولتها تتراوح بين ١٢٠٠ طن و ١٣٠٠ طن. وكان طول الواحدة من هذه السفن يبلغ خمسة وخمسين متراً. أما البحارة الذين كانوا يتولون قيادة هذه السفن ويعنون بالسلع ويهتمون بتفريغ البضائع وتحميلها في الموانىء فقد كانوا من كل صنف من البشر، إذ انهم جاؤوا من كل حدب وصوب. ولا شك أن اللغات التي كانوا يتكلمونها كانت تفصح عن هويات هؤلاء الرجال ـ من مصريين ورومان ويونان وعرب. . . إلى بقية العناصر السكانية التي عرفها البحر المتوسط. وكانت لغات أهل القوافل ولهجاتهم تقابل ما يتكلم به أهل البحر عدداً، وقد تتفق لغات من هنا وهناك. وهم على كل يتبادلون السلع والأحاديث والقصص وهم ينتظرون انتهاء الأعمال العادية[١٦٢].

وقد امتازت غزة كميناء عن غيرها من مدن فلسطين الساحلية لأنها تقع على نهاية الطريق الذي كان ـ دوماً ـ يصل مراكز التجارة في شمال الجزيرة العربية بالبحر المتوسط. ويجدر بنا أن نذكّر أنفسنا بأن التجارة البرية بين اليمن والحجاز والشام كانت نشيطة جداً في العصر الجاهلي ـ أي في القرنين الخامس والسادس للميلاد ـ وأن البيزنطيين كانوا حريصين على الحفاظ على الطرق وأمنها في النقب كي تظل القوافل سالكة إلى البحر. على أن مدينة مثل غزة كانت تحظى أيضاً بزيارة سفن من الأسطول الامبراطوري، الذي كان مركزه في سلوقية في شمال سوريا[١٦٣].

ولم تقتصر السلع التي كانت تُتَبادَل في موانىء فلسطين على خمور البلاد وزيتها (الزيتوني) وبلسمها وخيولها؛ ولا على ما تحمله القوافل العربية من متاجر الجزيرة وما إلى الشرق منها، بل كانت تصلها المتاجر من آسيا الصغرى والقسطنطينية بشكل خاص، مثل الأخشاب والنحاس كي تصنع فيها بعد، والحرير المصبوغ بالأرجوان بعد أن جعل جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) صناعة الحرير وصبغه حكراً على الدولة وحصراً في العاصمة البيزنطية. كما كانت القسطنطينية تورِّد الكثير من الأيقونات الجميلة إلى فلسطين في القرن السادس. وكان يُحمل إلى هذه الموانىء الفلسطينية، وغزة في مقدمتها، الزجاج من سوريا والجلود والفراء من أوروبا[١٦٤].

ويمكن إجمال التطور الذي طرأ على فلسطين وبعض البلاد المجاورة في المجال الاقتصادي في الأمور التالية: أولاً ـ العودة، في بعض الحالات، إلى الاقتصاد العيني بدل الاقتصاد النقدي، فعاد الناس إلى المقايضة. ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى قلة النقد بين أيدي الناس. فالمعادن اللازمة لسك النقود قلّت، والخزينةُ الامبراطوريةُ كانت تنفق الأموال الكثيرة على الحروب الأفريقية والأوروبية، خاصة أيام جستنيان، الأمر الذي أفقر الأسواق المحلية في شرق الامبراطورية إلى النقد. فضلاً عن ذلك كان النقد يتعرض للغش إنقاصاً في الوزن وتقليلاً في كمية المعادن النقية، لذلك انصرف الناس عن استعمال النقود البرونزية

والنحاسية وحتى الفضية. أما الذهبية فكان لا بد من استعمالها للجند ــ وإلا فلا قتال. ثانياً ــ نجد أن الصناعة المحلية أصبحت بيتية بحيث كان الصانع هو البائع أيضاً، ويقوم بالعملين في مكان واحد. ثالثاً ــ وجود «رابطات» لعدد من الصناعات. رابعاً ــ اتساع رقعة الأراضي التي تملكها الدولة. ولأن الأديرة انضمت إلى المؤسسات التي تمتلك الأرضين الواسعة، فقد تقلّصت مساحة الأراضي التي تُركت للاستغلال من قبل الفلاح الفلسطيني كي ينتج حاجة السوق المحلية، فضلاً عن الإصدار(١٦٥).

وكانت الدولة البيزنطية، على نحو ما كانت عليه الدولة الرومانية من قبل، تثقل كاهل الأهلين بالضرائب. فقد كان على الناس أن يدفعوا ضريبتين منتظمتين هما ضريبة الأرض والجزية، وهذه قد تُدفع عيناً؛ ولكن أُضيف إلى هذه كلها ضريبة نقدية سميت أنونا والسخرة (الأنكرية) للعمل في بناء الطرق والجسور. وفضلاً عن ذلك كان على سكان المدن التي يمر بها البريد الامبراطوري cursus publicus أن تكون دوماً على استعداد لتقديم ما يحتاجه البريد من الثيران والبغال والخيول اللازمة لنقل البريد من تلك المدينة إلى المدينة التالية، على أن تكون هذه الدواب جاهزة دوماً، أي محجوزة لهذه الغاية. وقد تزور سفن البريد الامبراطوري ميناء ما في طريقها، وعندها يتوجب على سكان المدينة أن يقوموا بتقديم ما تحتاجه هذه السفن(١٦٦).

عُرف عن الرومان أنهم كانوا بناة طرق وجسور ممتازة. وقد أفادت فلسطين من هذه المهارة والعناية، فكان لها نظام للطرق ممتاز. وفلسطين، من الناحية التجارية (والعسكرية) جسر يربط بين الشمال ــ سوريا وفينيقيا وما وراءهما ــ وبين الجنوب ــ مصر وشمال الجزيرة العربية وما والاهما. والطريق التجاري (والعسكري) الدولي الرئيس في فلسطين هو الطريق الساحلي أو البحري Via Maris. ومع أن التسمية رومانية فإن هذا الطريق كان يستعمل من أقدم الأزمنة. وهو يبدأ في الجنوب حول غزة (آتياً من مصر) ويسير محاذياً لشاطىء البحر إلى مكان قريب من طولكرم. وعندها يتجه الطريق إلى الداخل كي يصل إلى مرج ابن عامر إمّا عن طريق اللجون (مجدو، تل المتسلم) أو عن طريق جنين. وفي مرج ابن عامر كانت تلتقي جميع الطرق الآتية من شمال الأردن والغور ومن دمشق ومن صور وإليها. ويعود الطريق الساحلي بعد أن يجتاز مرج ابن عامر في اتجاه شمالي غربي إلى الساحل إلى الشمال من عكا ويتم سيره شمالاً. ويبدو أن الرومان بنوا الجزء الأكبر من هذا الطريق من أنطاكية إلى عكا في أيام نيرون (٥٤ ــ ٦٨). أما ما تبقى من عكا إلى جنوب فلسطين، فقد تم بناؤه فيما تلا ذلك من العقود. (ويعود الاستعمال العسكري لهذا الطريق إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد لما استعمله تحوتميس الثالث وحارب الأمراء السوريين في معركة مجدّو. وأخبار هذه الحملة أول ما دُوِّن عن معركة حربية على هذا الطريق).

وفي أوائل القرن الثاني للميلاد بنى تراجان (٩٨ ــ ١١٧ م) طريقاً من العقبة إلى بصرى، وذلك بعد احتلاله البتراء (١٠٦). وكانت هذه أطول قطعة من طريق بناها الرومان في المشرق دفعة واحدة. وقد بني طريق بين قيصرية ــ عاصمة فلسطين ــ وبيت المقدس في أواخر القرن الأول للميلاد، وكان يمر برأس العين وجفنة. ولما تولّى هدريان العرش، وهو المغرم بالبناء على اختلاف أنواعه، أخذ على عاتقه، قبل الثورة وبعدها، بناء عدد من الطرق في فلسطين: فوصل بين عكا واللجون (مجدو) وسبسطية ونيابوليس (نابلس) وبيت المقدس؛ وبين حسبان (في شرقي الأردن) وأريحا وبيت المقدس وبيت جبرين والطريق الساحلي؛ وبين بيسان واللجون؛ وبين عكا وصفورية وطبرية؛ وبين بيت المقدس والخليل وبيت جبرين. أما خلفاؤه فقد بنوا طريقاً بين صور ودمشق عبر بانياس (قيصرية فيلبي)؛ وبين بُصرى وطبرية، وبين طبرية وأريحا، كما أنهم بنوا طرقاً كثيرة في الجنوب أهمها من العقبة (أيلة) والبتراء إلى الخليل وألوسا (الخَلَصة) وغزة.

هذه الشبكة من الطرق العسكرية، التي ارتبطت بالطرق الأخرى البعيدة في الحدود الشرقية limes orientalis كان لها بعض الأثر في تنشيط التجارة. فالطريق يُبنى لخدمة الجيش ثم يستعمله التاجر، وقد يكون استعمال التاجر للطريق أكثر من استعمال الجيش(١٦٧).

٤ ــ الحياة الفكرية في فلسطين:

لم تعن المدينة اليونانية ولا اهتمت الدولة الرومانية بالمدرسة كمؤسسة تفتح أبوابها لقبول صغار التلاميذ. لذلك كان التعليم في هذه المرحلة في العالم اليوناني ــ الروماني مسؤولية الآباء الشخصية، فكانوا يقومون بتعليم أبنائهم، إذا كان هذا في مقدورهم، أو أنهم كانوا يبحثون عن المعلم ويدفعون له مكافأته لقاء تعليم هؤلاء الصغار. إلا أن التعليم العالي، كان أمره يختلف. فقد عنيت «سلطات المدينة» بمؤسسات التعليم العالي، كما اهتم ملوك العصر الهلينستي بذلك. فأُنشئت في المدن ــ العواصم، في أثينا وروما والاسكندرية مثلاً مؤسسات للبحث العلمي ومكتبات غنية. ثم انتشرت المؤسسات التعليمية وازداد عددها فتعهدتها

المدن الكبرى، مثل انطاكية وقيصرية وغزة. ولما اتخذت القسطنطينية عاصمة صارت لها جامعة عُين فيها ثلاثة عشر أستاذاً للدراسات اللاتينية وخمسة عشر أستاذاً للدراسات اليونانية. وكان المنهاج يشمل الغراماطيق أي علم النحو والبلاغة والفلسفة، وقد تدخل فيه العلوم الطبيعية أيضاً.

وفي زمن الامبراطورية الرومانية كان التعليم والبحث العلمي على اختلاف موضوعات الدراسة يدوران في إطارين لغويين: الواحد يوناني في الشرق والآخر لاتيني في الغرب، مع تشابك في الحدود اللغوية بالنسبة للحدود السياسية. وكان هناك في الأطراف الشرقية للامبراطورية والبلاد المتاخمة لها، فئة ثالثة كانت تستعمل اللغة السريانية في تعليمها الديني المسيحي والبحث العلمي والتأمل الفلسفي والجدل المسيحي.

وانتشار المسيحية في القرون الأولى من عصر الامبراطورية أوجد جواً من الخلاف بين المسيحية وما ألفه الناس. فلا الدولة قبلت بهؤلاء الذين لم يعترفوا بنظراتها الدينية، ولا الوثنيون أدركوا المبادىء الجديدة التي حملتها المسيحية إلى العالم، ولا اليهود رأوا شيئاً يتفق مع نظراتهم. فالوثنيون كانوا يرون في العبادة والطقوس والقرابين التي تُقدم للآلهة نوعاً من تبادل المنفعة ــ فالإله يُعبد كي يكافىء المتعبِّد، فيزيد في إنتاج أرضه أو يدفع عنه شراً. واليهودية كانت قد جعلت من اليهود شعباً مختاراً. وخلقت فكرة العهد بين هذا الشعب ويهوه، وأصبح من المتوقع أن يكافأ الأفراد والجماعة على العبادة. أما المسيحية فقد جاءت بأفكار جديدة، منها أن المتعبِّد لا يرجو فائدة آنية أو مقابلاً حالياً: إن الإنسان يؤمن بالله الخالق ويعبده. ومنها فكرة الخلاص والفداء. ولذلك اعتبر الآخرون أن المسيحيين إنما يحملون مجموعة من الأفكار والآراء المعطِّلة. ومن ثم فقد أنزلت الدولة بهم عقوبات واضطهاداً عُذِّبوا فيه كثيراً، فكان من ذلك أن سقط عدد من الشهداء الذين أصبحت أخبارهم حافزاً يقوي عقيدة المؤمنين الجدد وصمودهم. من هؤلاء أغناطيوس الأنطاكي الذي سقط شهيداً بين سنة ١٠٧ وسنة ١١٧، وبوليكارب Polycarpus الإزميري الذي عُذب واستشهد سنة ١٥٦، وسرجيوس Sergius العراقي من أهل القرن الثاني أيضاً. وكان من نتائج هذه المواقف أن انصرف المفكرون من الجانبين إلى شحذ الأقلام، فكان من ذلك أدب غني وقوي وعنيف أحياناً. وقد عرضنا لذلك قبلاً، فلا حاجة إلى الإعادة(١٦٨).

يسَّرت الامبراطورية الرومانية للسكان فيها حرية التنقل في مجال واسع. فكان مجتمعها مجتمعاً مفتوحاً، وكان الناس يتنقلون من مكان إلى آخر سعياً وراء الرزق أو للمتعة أو للتعلم. ومنذ القرن الرابع كان ثمة رحلة لزيارة الأرض المقدسة.

هذا التنقل كان يشمل جميع أصناف السكان، ولعلَّ المشتغلين بالعلم والتعليم، وكبارهم خاصة، كانوا من أكثر الأفراد تنقلاً. ذلك بأنهم كانوا يتخيرون أماكن عملهم في المدارس المتنوعة، فيرحلون مدرِّسين من مدرسة إلى أخرى أكبر أو أشهر أو أغنى. فالفلسطيني المدرَّب في غزة أو قيصرية مثلاً يتجه، إذا رغب، إلى القسطنطينية أو بيروت أو حتى أثينا ليعلِّم هناك. ومثل ذلك يقال في مدارس فلسطين بالذات التي كان يطمع الكثيرون في مناصب التعليم فيها، بسبب ما كانت توفره من مرتب ومقام وهدوء نسبي. ويرى الباحثون أن فلسطين أُتيحت لها الفرصة لأن تكون مدارسها في مقدمة مدارس الامبراطورية. فقد اجتمع لهذا القطر الصغير عدد من المكتبات الكبيرة في بيت المقدس وقيصرية وغزة. وكان في قيصرية مدرسة تُعد الطلاب في شؤون البلاغة والآداب القديمة، ومعهد تُعلَّم فيه الموضوعات المسيحية. في هذا المعهد تعلم يوسابيوس (تقريباً ٢٦٤ ــ ٣٤٠). لكن مجال التدريب الأفضل كان في غزة. ومن الشخصيات العلمية التي عرفتها غزة مطرانها بروفوريوس (٣٩٥ ــ ٤٢٠) وزوسيموس Zosemus الذي كان معاصراً للامبراطور زينون (٤٥٧ ــ ٥٧٤). ومنهم إينياس Aeneas الذي صنَّف كتبه في ثمانينات القرن الخامس، وبروكوبيوس Procopius، معاصر الامبراطور أنستاسيوس (٤٩١ ــ ٥١٨)، وتلميذه كروكيوس Crucius. وكان آخر رجال غزة الكبار يوحنا معاصر جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥). وبروكوبيوس ولد في الاسكندرية (حوالي سنة ٤٦٥)، وتعلَّم في مدرستها، ثم دُعي لتدريس البلاغة في غزة. وظل هناك إلى حين وفاته (٥٢٧). وهناك زنوبيوس Zenobius المولود في ألوسا (الخَلَصة) في النقب، كان أستاذاً للبلاغة في انطاكية (ــ ٣٥٤ م). وكان ليبانيوس Libanius أحد تلاميذه. وأُلبيان Ulpian العسقلاني (ــ ٣٢٩ م) كان أستاذاً للبلاغة في انطاكية. وكان سيريكيوس Siricius النابلسي من أساتذة البلاغة في أثينا. وجاء يوديمون Eudemon من مصر إلى ألوسا حيث درَّس الغراماطيق (النحو) والشعر منذ حوالي سنة ٣٦٠م. وكان أكاكيوس القيصري (من قيصرية فلسطين) أستاذاً في مدن فينيقيا ثم في انطاكية قبل أن يعود إلى فلسطين ليقضي فيها ما تبقى من حياته. والعالم النحوي (الغراماطيقي) أوريون Orion هو مصري المحتد من مواليد طيبة (بطوليمايس) في مصر العليا. وقد علَّم في الاسكندرية أولاً ثم في انطاكية وأخيراً حطَّ رحاله في قيصرية. وحتى الامبراطورة يودوكية Eudocia زوجة الامبراطور أركاديوس

Arcadius (٣٩٥ ـ ٤٠٨م) نظمت خير أشعارها أثناء إقامتها بفلسطين في أواسط القرن الخامس (بعد وفاة زوجها). وفي مطلع القرن السادس برز على مسرح الفلسفة السفسطائية ايرونيموس المولود في ألوسا والذي علّم في الاسكندرية ثم عاد إلى فلسطين للعمل فيها. وكان من معاصريه ايريوس Hierius الذي كان أستاذ اللاتينية في غزة قبل أن ينتقل إلى انطاكية؛ والمشهور بعلم البلاغة زكريا الذي ولد في ميوماس (ميناء غزة)، وتعلّم في الاسكندرية وبيروت، وتولّى فيها بعد أُسقفية ميتلين Metiline (وهي ملطية) لاحقاً؛ وقد توفي قبيل سنة ٥٥٣م؛ وليونتيس Leontis البيزنطي من مواليد القسطنطينية الذي انتقل إلى فلسطين وانضم إلى رهبان مار سابا (وهو دير يقع على نحو ١٢كم جنوب شرقي القدس). وقد زار مسقط رأسه عدة مرات وحاضر هناك، وتوفي في القسطنطينية (٥٤٢م).

ويجب أن نضيف إلى لائحة الأسماء يوسابيوس القيصري المؤرخ، ابن قيصرية فلسطين، وكان أحد المقربين من الامبراطور قسطنطين؛ وأبيفانيوس Epiphanius من بيت جبرين وتيمونستيوس Thimunosthius العسقلاني الذي وضع معجماً لاتينياً وألّف كتاباً في النحو. وهناك عالمان آخران من عسقلان هما زوسيموس Zosemus وبطليموس Ptolemy، واثنان من قيصرية هما يوزيوس Eusius وجيلاسيوس Gelasius، وصفرونيوس Saphronius التلحمي، وأنطيوخس Antiochus العكّي وكيرلّس Cyril المقدسي، ومن بين المؤرخين الكبار بروكوبيوس Procopius، وهوغير الذي مر بنا. فهذا فلسطيني الأصل، لكنه عمل في آسيا الصغرى. وممن عُرف بمقدرته الفائقة وعلمه الغزير صفرونيوس (وهو غير صفرونيوس التلحمي المار ذكره) الذي تولى بطريركية القدس (٦٣٤ ـ ٦٣٨)، وسلّم المدينة إلى الخليفة عمر بن الخطاب[١٦٩].

مر بنا أن المسيحية كانت أقل انتشاراً في المدن الساحلية والموانىء منها في داخل فلسطين. وكانت الوثنية وطيدة الأركان في غزة حتى أواخر القرن الرابع. ولعل أحد الأسباب في تقوّي الوثنية في تلك المناطق ارتباط الموانىء والمدن بالعالم الوثني الخارجي. وعلى كل حال لما تولى بروفوريوس أُسقفية غزة (٣٩٥) كان فيها كنيسة واحدة و ٢٨٠ مسيحياً فقط، فيما كان فيها ثمانية هياكل وثنية فخمة. وقد قاد الأسقف الحملة ضد الوثنيين، بحيث انه زار القسطنطينية لاستجداء المساعدة من الامبراطور أركاديوس (٣٩٥ ـ ٤٠٨)، فلم يلق التشجيع الذي كان يأمل منه. فقد خشي الامبراطور إن هو فعل ذلك أن يرحل سكان غزة المدينة الغنية عنها، فيخسر الامبراطور مكوسها وضرائبها. لكن الامبراطورة يودوكية شجعت الأسقف. وقبل أن يعود أدراجه إلى غزة، حصل منها على وعد بأن تزوده بالمبالغ اللازمة لبناء كنيسة في المدينة عندما تهدم الهياكل الوثنية.

وهكذا فقد أعطي الأمر فيها بعد، وبمساعدة من السلطة المحلية تمَّ هدمُ جميع الهياكل الوثنية (٤٠٢) وإقامة كنيسة كبيرة، سميت باسم الامبراطورة، مكان أكبر الهياكل وأفخمها واسمه مرينون Marinon نسبة إلى الإله مارناس Marnas. وهكذا فيها كانت غزة الوثنية قبل القرن السادس تحفل بعدد كبير من الهياكل فقد أصبحت بعد ذلك العهد وليس فيها هيكل واحد، وحلّت الكنائس محل الهياكل، وكانت كنيسة القديس سرجيوس وكنيسة القديس إسطفان أفخم كنائس المدينة.

كان أمام الشاب الفلسطيني، المثقف يونانياً (وهو الغالب) أو لاتينياً والراغب في متابعة دروسه، ست مدارس هامة يستطيع أن يذهب إلى أي منها محمولاً على ذلك برغباته وآماله وأهدافه. أما المدارس الست الرئيسة فهي مدارس أثينا والقسطنطينية وبيروت وانطاكية والاسكندرية وغزة. كانت مدرسة أثينا تعنى بالأدب الكلاسيكي والفلسفة، وكان معلموها وثنيين. ولم يرق هذا الأمر للامبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥)، فأمر بإغلاقها سنة ٥٢٩، لكن ذلك لم يعن القضاء على التعلم والتعليم على أيدي أساتذة خصوصيين في المدينة. فالذي مُنع هو التعليم الرسمي.

وكانت مدرسة بيروت متخصصة في القانون، لذلك كان يقصدها طلاب الحقوق من جميع أنحاء الامبراطورية. لكن هذه المدرسة لم تكن تزاحم غيرها، ولم تكن تزاحمها مدرسة أُخرى. (هذا مع العلم أنه كان فيها دراسة للطب والأدب والفلسفة). وكانت القسطنطينية العاصمة والمركز التجاري الأول في تلك الرقعة من الامبراطورية، فكانت ضجتها وصخبها لا يشجعان على استقرار الباحثين فيها، فلم يكن الجو يشجع المدرسة على الجدية في العمل. وغطست أنطاكية في الخصومة والنزاع المذهبيين، وتعرضت لغزوات الفرس فضعف شأنها نسبياً. فضلاً عن ذلك كانت حياتها صاخبة، فلم يكن من اليسير على أساتذة المدرسة وطلابها الانصراف إلى العلم. وحتى الدروس كانت تُعطى فيها في فصلي الشتاء والربيع فقط لأن ما تبقى من الوقت كان يُقْضى في الألعاب والاحتفالات الدينية والاجتماعية. وكانت الاسكندرية، بحكم تقليدها البطليمي، تُعنى بالعلوم والرياضيات أكثر من عنايتها بالأمور الأخرى. أما مدرستها الدينية المسيحية

فقد تضعضع شأنها بسبب الخلافات المذهبية. ومع أن غزة كانت تعتبر بنت الاسكندرية علمياً، فإن البنت كانت، بعد حوالي سنة ٥٠٠م، قد سبقت الأم. والعلماء والباحثون الذين ذكرنا أسماءهم أنشأوا لغزة تقليداً علمياً قوياً، وجعلوا منها مركزاً فكرياً رفيعاً له شهرة، بحيث لم تستطع المدارس الأخرى أن تزاحمها. وعنيت مدرسة قيصرية التي كانت تجذب الطلاب إليها بالبلاغة والآداب القديمة، لكنها كانت ذات مناهج نفعية، فكان يقصدها طلاب الوظائف الحكومية، ولكنها لم تكن مؤسسة معترفاً بخريجيها. إذ ان التدريب كان يغلب عليها. (وهي غير معهدها المسيحي الذي قوي مركزه بسبب مجيء أوريغان من الاسكندرية إليها)[١٧٠].

ذكرنا أن انتشار المسيحية ظل محدوداً نسبياً في مدن الساحل، وقلنا ان الداخل كان أسرع إلى قبول الدين الجديد (باستثناء بعض المناطق التي كان يسيطر عليها اليهود). ومما لا شك فيه أن نشوء عدد كبير من الأديرة في داخل البلاد، وتردد الرهبان وغيرهم عليها كان له أثر في دفع سير المسيحية في الداخل.

والقضية التي جابهت المعلمين في مدارس فلسطين، ولنأخذ مدرسة غزة مثلاً على ذلك، هي: إلى أي حد يمكن أن يتلاءم عنصران من عناصر الحضارة والثقافة، على تناقضهما، والعنصران هما المسيحية والأدب الكلاسيكي الوثني؟ فالخلاف بينهما كبير مضموناً وتعبيراً. فكيف يمكن أن يتم التلاؤم؟ كان رد الفعل الأول، في المحافل المسيحية، القول بأن الأدب الكلاسيكي خطر على التعاليم المسيحية، ولذلك يتوجب الابتعاد عنه، وقد نُبذ فعلاً. ونرى أن هذا أثر من آثار اليهودية، خاصة بالنسبة للكنيسة الأولى. لكن بعد أن تحررت الكنيسة من هذه القرابة المتعبة اكتشف العلماء المسيحيون، وفي مقدمتهم بعض علماء مدرسة غزة، ثلاثة أمور كان لها أثر كبير في تطور تفكيرهم وعملهم: الأول أن المسيحية بالذات تقوم على أدب إنساني جديد أساسه «الإنسان». وفي هذا تتفق المسيحية مع بعض الآراء الكلاسيكية في الفكر والأدب، ولو أن النظرة أو الزاوية تختلف عند الجماعة الواحدة عن الأخرى، إذ إن المسيحية ترى الإنسان من خلال الله. والثاني أن الأدب الكلاسيكي، اليوناني منه واللاتيني، والفلسفة القديمة وسيلة صالحة لتدريب المسيحيين على الجدل ـ أسلوباً وطريقة ونظرة ـ أي أن التعمق في التعرف إلى الأدب الكلاسيكي يعطي المسيحي المفكر وعاء صالحاً لحفظ الأفكار المسيحية ونشرها بعد تدريب العاملين فيها، وذلك بسبب صقل هذا الأدب عبر الزمان ودقته لغة وأسلوباً. والثالث إدراك المعلمين والمبشرين المسيحيين أن الجماعة المثقفة التي يخاطبونها قد نشأت على هذا الأدب الكلاسيكي. فإذا لم يمكن التحدث إليها بالأسلوب الذي ألفته، لا يمكن الوصول إليها. ولنضف إلى ذلك كله أن الرهبان الذين قدموا فلسطين من الغرب خاصة، مثل جيروم وأخيه وباولا وإثريا Etheria كانوا أنفسهم نتاج التعليم الكلاسيكي. لكن هذه الاكتشافات جميعها ما كانت لتنفع لولا أن الباحثين والمعلمين والدارسين أنفسهم (في غزة خاصة) كانوا مسيحيين. ويعود الفضل في خلق هذا الجو الملائم إلى أسقف غزة بروكوبيوس Procopius. لذلك استطاع هؤلاء أن يفيدوا من جميع الوسائل التي كانت بين أيديهم ليتحدثوا إلى الناس بلغة يفهمونها وأسلوب يدركون دقائقه وينقلوا إليهم آراءهم الجديدة[١٧١].

وقد كان لسوريا عامة دور كبير في الحركة الفكرية بين أوائل القرن الثاني والقرن السادس للميلاد. ففضلاً عن الأسماء التي ذكرناها هناك عدد كبير من الكتّاب والأساتذة الذين عمروا المدارس المختلفة. ومن هؤلاء لوسيان Lucian السميساطي، وليبانيوس الأنطاكي، ومكسيموس Maximus الصوري، وأسبينِس Aspines الجداري، ولونغينوس Longinus ويوسابيوس Eusebius الحمصيان، وبورفيريوس Porphyrius الصوري، ويامبليخوس Iamblichus القنّسريني، وإيزيدور Isidore، ودَماسيوس Damascius، وهليودوروس Hiliodorus الحمصي، ومَرْسيلينوس Marcellinus الأنطاكي، وتيطس Titus البُصري.

والقضايا التي شغلت المفكرين السوريين عامة يمكن إجمالها في الموضوعات التالية:

أولاً ـ توضيح فكرة الأفلاطونية الحديثة التي دعا إليها أفلوطين الفيلسوف المصري (ـ ٢٧٠)، والتي ازدهرت كمذهب إشراقي صوفي في القرن الثالث والسنوات الأولى من القرن الرابع، وكان من ناشري لوائها في سوريا بورفيريوس الصوري ويامبليخوس. ويرى بعض الباحثين أن الأفلاطونية الحديثة كانت الرد الروحي على مادية الرواقية والأبيقورية. ومما يجب أن يذكر أن الفلسفة الأفلاطونية الحديثة اتسعت آفاقها وأبعادها لما نقلها العرب إلى لغتهم في أيام العباسيين.

ثانياً ـ أكبَّ بعض الكتّاب على تناول القضايا على أنها تجارب رجال عاشوا في زمن ما من التاريخ، أو أنها مجرد وحي الخيال. والأسلوب الذي لجأوا إليه في الحالتين هو القصة التي تدور أحداثها حول حب أو مغامرة. وكان يغلب على الشخصيات

والأحداث أن تكون متخيَّلة. وأمتع القصص الوثنية حول هذا الموضوع هي المعروفة باسم أثيوبيكا Aethiopica التي وضعها هيليودورس Heliodorus. وتدور القصة حول الإلهة المحلية ــ إلهة الشمس في حمص ــ وما تم لها مع الآلهة الطارئة. وإذا تذكرنا أن المؤلف، شأن عدد كبير من كتّاب سوريا ومفكريها آنذاك، كان سفسطائياً في نظرته إلى الكون، أدركنا مدى ما يمكن أن يدور من أحداث خيالية حول أشخاص يرسم صورهم في ذهنه.

ثالثاً ــ لم تقتصر قصص المغامرة وقصص الحب هذه على الكتّاب الوثنيين، بل عمل فيها الكتّاب المسيحيون أيضاً. وعندها كانت الشخصيات والأحداث مسيحية البطولة والرواية وتدور، في كثير من الحالات، حول الشهادة والاضطهاد والنجاة والعمل المسيحي. وأفضل ما وُضِع من هذا النوع الكتاب المعروف باسم أعمال [الرسول] توما، الذي وصلت أسفاره ومغامراته إلى الهند سعياً وراء نشر الإيمان.

رابعاً ــ كان هناك عناية بالمنطق، وذلك في التدريس بشكل خاص. ومع أننا نلحظ عناية بأفلاطون وأفلوطين (عبر الأفلوطينية الحديثة) فإن العناية بأرسطو كانت أقل، إلا فيما يتعلق بالمنطق، فأرسطو هو واضع هذا العلم، ولا بد من التعرف إلى أرسطو في سبيل فهم المنطق. وهنا نقع على قضية هامة. إن الكتّاب عُنوا بالمنطق أداة للجدل المسيحي. وحاولوا، بعد أن عرفوا هذا المنطق، أن يُخضعوا التعاليم المسيحية المتعلقة بالعقيدة لأساليب المنطق. وهذا هو السبب الرئيسي في الخلاف الشديد الذي قام بين أصحاب البدع (المدارس) الدينية في تلك العصور[١٧٢].

ذكرنا من قبل عدداً من العلماء المسيحيين الذين ظهروا في فلسطين؛ وها نحن أولاء نود أن نتحدث عن المبرزين منهم. وأول هؤلاء العلماء الكبار هو يوسابيوس القيصري (تقريباً من ٢٦٤ ــ ٣٤٠). كان أسقفاً لقيصرية، وكان معاصراً لِسَمِيِّه يوسابيوس، أسقف نيقوميديا، وكذلك كان معاصراً لأريوس صاحب البدعة الأريوسية، وأحد مؤيديه، ولو بشكل غير واضح تماماً. وقد كان يوسابيوس هذا أول مؤرخ للكنيسة، وعني بتفصيل تاريخ الكنيسة، كما وضع فصلاً خاصاً عن «شهداء فلسطين» (وقد جاء هذا بين الكتابين الثامن والتاسع من مؤلفه **تاريخ الكنيسة**).

درس يوسابيوس في مدرسة قيصرية بفلسطين، التي كان قد متّن أسسها أوريغان، وكان هذا الأستاذ النافذ فيها أيام تلمذة يوسابيوس بامفليوس Pamphilius. وقد سقط أوريغان شهيداً (٣٢٠)، لكن يوسابيوس نجا من الاضطهاد وكان له دور كبير في مجمع نيقية، وخاصة في التأريخ له. وكان يوسابيوس من رجال حاشية قسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٣٧م) النافذين، لكن جورج كِنِدي George Kennedy يرى أن قسطنطين لم يتخذه مستشاراً له، ولو أنه كان من رجال الحاشية.

ويدور عمل يوسابيوس في تلك الفترة حول أمرين: الأول أنه وضع أسس التأريخ الكنسي في كتابه **تاريخ الكنيسة**. والثاني أنه وضع كتاباً في «حياة قسطنطين» كما أنه مدح الامبراطور. وفي هذه 'الأمدوحات' وفي ترجمته لقسطنطين أوضح لنا، ولو بشيء من المبالغة، أهمية هذا الامبراطور في مجمل القضايا العامة ــ إدارية وسياسية ودينية.

يروي يوسابيوس في كتابه **تاريخ الكنيسة** ما مرّ بالمسيحية والمسيحيين والكنيسة كمؤسسة من أيام المسيح إلى عصر قسطنطين. ويبيّن المؤلف غايته من وضع هذا الكتاب فيقول:

> «إن غايتي هي كتابة وصف لتاريخ الرسل القديسين والحقبات التي مضت من أيام مخلصنا إلى أيامنا هذه، وسرد الحوادث الكثيرة الهامة التي حدثت في تاريخ الكنيسة، وذكر أولئك الذين تولوا إدارة ورئاسة الكنيسة [كذا] في أهم الأبروشيات، والذين أذاعوا الكلمة الإلهية في كل جيل سواء شفوياً أو كتابة».

ويضيف:

> «إن قصدي أيضاً وصف الطرق والأوقات التي فيها هوجمت الكلمة الإلهية من الأمم».

ولأن يوسابيوس كان آريوسياً، فإنه يبدأ الفصل الثاني بقوله:

> «طالما كانت في المسيح طبيعة مزدوجة... باعتبار أنه من أجل خلاصنا أخذ طبيعة بشريّة...».

ولسنا ننوي أن ننقل الكثير من كتابات يوسابيوس، لكننا نرى أن نقتبس الفقرة الأولى من الفصل الأول من الكتاب المسمى **شهداء فلسطين**:

> «كان أول شهداء فلسطين بروكوبيوس الذي قبل أن يُسجَنَ صرّح، حال ظهوره أمام محكمة الوالي، بأنه لا يعرف إلا واحداً تُقدَّم له الذبائح. وذلك عندما أُمِرَ بأن يذبح للآلهة المزعومة. وعندما أُمِرَ بتقديم سكيب للأباطرة الأربعة نطق بعبارة أغضبتهم، فقُطِعَت رأسه في الحال. وكانت العبارة مقتبسة من إلياذة هوميروس وهي: 'حكم الكثير ليس بصالح. فليكن هنالك حاكم واحد وملك واحد'»[١٧٣].

كان يوسابيوس ضليعاً في الأدب الكلاسيكي، وعارفاً

بالمؤرخين الوثنيين، لكنه في كتابه كان يولي المبادىء المسيحية أهميتها ومكانتها. وكان حريصاً على توثيق عمله وتثبيته لا أن يكتب خطاباً تاريخياً بلاغياً. وكان يعمد إلى الأسلوب السهل في كتابته، ومن ألطف ما دونه خاتمة الكتاب العاشر من مؤلفه، وهو آخر عبارة في تاريخ الكنيسة (والمبالغة واضحة فيها يقول):

«وهكذا انتزع [قسطنطين] من البشر كل خوف سبق أن تملكهم، وأولموا الولائم الفاخرة واحتفلوا بالأعياد العظيمة. وامتلأ كل شيء بالنور. وأُسْدِل الستار على الشرور الماضية، وتنوسِيَت كل الأعمال الشريرة، وصار فرح بالخيرات الحاضرة ورجاء بالعتيدة. وأصدر الامبراطور الظافر منشورات في كل مكان مليئة بالرحمة، وقوانين تحمل علامات المحبة والتقوى الحقيقية»[١٧٤].

وقد سار كثيرون على خطى يوسابيوس فأرّخوا للكنيسة، وذلك في القرنين الخامس والسادس، واتّبعوا أسلوبه في الاعتماد على الوثائق بدل أن يضعوا خطابات وبيانات طويلة (أو قصيرة) منسوبة للمترجَم لهم. واتّبعوا طريقته أيضاً في أنهم كتبوا باللغة الكُوْينِيَّة Koine، لا باللغة الأتيكية Attic، لغة النخبة. وخلفاؤه في عمله هم فيليب Philip الذي أرّخ للفترة الممتدة من بدء الخليقة إلى سنة ٤٢٦م والكتاب مفقود. وفيلوستوجيوس Philostogius الذي أرخ للكنيسة من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٤٣٠، وقد فقد الكتاب ولم يصلنا إلا ما نقله عنه فوتيوس Photius البيزنطي من أهل القرن التاسع. وأكبر خلفاء يوسابيوس هو سقراط Socrates، العالِم الذي كان من رجال القانون والذي أرّخ للفترة من سنة ٣٠٦ إلى سنة ٤٣٩، وكان كثيْر الإعجاب بأوريغان. ومن خلفاء يوسابيوس أيضاً سوزومِن Sozomen، الذي كتب عن الفترة نفسها (٣٠٦ ــ ٤٣٩)، وقد نَقَل عن سقراط. ولم يكن من هؤلاء من عمل أو عاش في فلسطين، ولكننا ذكرنا أسماءهم كي نوضح أثر يوسابيوس في تنظيم هذا النوع من الكتابة، أي تاريخ الكنيسة.

ويضاف إلى مؤلَّف يوسابيوس تاريخ الكنيسة عظاته الكثيرة وأمدوحاته التي امتد نطقه بها من سنة ٣١٦ إلى أواخر حياته، لكنها فُقدت كلها إلا عظة صور، لأنه ضمّنها كتابه تاريخ الكنيسة.

وقد وضع يوسابيوس ترجمة لقسطنطين، ضمنها الأمدوحة التي ألقاها في القسطنطينية في ٢٥ تموز/يوليو ٣٣٦م لمناسبة مرور ثلاثين سنة على تولي قسطنطين السلطة. والذي يراه الباحثون المحدثون هو أن المؤرخ غالى في مديحه لقسطنطين[١٧٥].

ويبقى من مؤلفات يوسابيوس قاموسه الجغرافي المسمى أونومستيكون *Onomasticon*، وهو الذي ترجمه جيروم وعلّق عليه بحيث أصبح مؤلَّفاً جديداً.

كان خليفة يوسابيوس في أسقفية قيصرية أكاسيوس Acasius الذي كان يتعاطى الشؤون السياسية فضلاً عن أمور أسقفيته الدينية. وقد وضع تاريخاً للكنيسة وترجمة ليوسابيوس ودفاعاً عن المسيحية.

ومن علماء فلسطين في تلك الفترة كيرلّس المقدسي، الذي تم في أيامه تغيير صورة بيت المقدس من إيليا كابيتولينا الوثنية بهياكلها الرومانية إلى القدس المسيحية نسبياً ــ إذ بنيت كنيسة القيامة وكنيسة الصعود. وكان ذلك قد بدأ أيام أسقفية مكاريوس Macarius. وقد تولى كيرلّس الأسقفية بضع سنوات، لكنه كان على خلاف مع كل من أكاسيوس وتيودور Theodore. فقد رفض كيرلّس القبول بسلطة أسقف قيصرية، التي كانت عاصمة الولاية. وحجة أساقفة بيت المقدس كانت دوماً هي أن كنيسة بيت المقدس هي 'أم الكنائس'، فلا يجوز أن تخضع لغيرها. (وقد ظل هذا الخلاف قائماً إلى سنة ٤٥١ لما رُفعت كنيسة بيت المقدس إلى درجة البطريركية، فأصبح البطريرك رئيس جميع الأساقفة في فلسطين، ومنهم أسقف قيصرية).

وقد وضع كيرلّس سنة ٣٤٧ كتاباً يجوز أن يُسمى في التعبير الحالي «التعليم المسيحي». ويبدو أن هذا الكتاب هو جماع الدروس التي أُلقِيت عظات أولاً ثم جُمعت في كتاب. وقد كتب أيضاً ضد جميع البدع التي عُرفت إلى أيامه، وأهمها الآريوسية. وفي الكتاب الذي كتبه كيرلّس دفاعاً عن المسيحية اتجاه إلى الهجوم، إذ لم يكن الرجل يعتقد 'بالدفاع الحيي'[١٧٦].

وكان بين أساقفة قيصرية في القرن الرابع اثنان هما يوزيوس وجلاسيوس. ومع أن الأول كان آريوسياً، فقد عدّه جيروم من كبار الكتاب المسيحيين، وذكر له إحياءه مكتبة أوريغان. أما الثاني فقد اعتبره جيروم أحد رجال البلاغة في ذلك العصر. وممن عاصر جيروم في بيت لحم صفرونيوس التلحمي الذي تغنى بمدينته بأسلوب أُعجب به جيروم. كما أنه وضع كتاباً عن سقوط الإلهة سيرابيس وتدمير هيكلها المعروف باسم سيرابيوم في مصر (٣٨٩ ــ ٣٩١). وكتب ترجمة لهيلاريون الراهب الغزي، كما أنه وضع مؤلَّفاً عن المانوية العراقية ممثلة بأحد رجالها المسمى أرخلاوس Archelaus[١٧٧].

وهناك نفر من العلماء الذين ظهروا في فلسطين في القرنين الخامس والسادس. منهم أنطيوخس العكي الذي علّم في

القسطنطينية ثم عاد إلى بلده وتولى أسقفيتها. ويذكر معاصروه وخلفاؤه أسماء مؤلفات كثيرة له، ولكن أياً منها لم يصلنا بشكل يستحق الذكر. وهناك كريسِبّوس Chrysippus المقدسي الذي كان كاهناً في المدينة المقدسة (ـ ٤٧٩) لكنه كان من معلمي البلاغة الكبار. ومن مؤرخي الفترة أيضاً سوزومِن Sozomen العسقلاني الذي مدحه فوتيوس البيزنطي من أهل القرن التاسع[١٧٨].

وبعد، فقد آن لنا أن نتحدث عن مدرسة غزّة لأنها كانت تمثل أرفع ما وصلت إليه المعرفة الكلاسيكية والمسيحية في المشرق في القرن السادس بشكل خاص.

قامت مدرسة غزة، في القرن السادس، بدور هام في الحفاظ على الفكر الهليني، ونقله إلى المتعلمين، والإفادة من هذا التقليد نفسه لتوضيح الفكر المسيحي. ولعلّ من خير ما يمثل وجهة النظر هذه ما ورد في أمدوحة كوريكيوس Choricius، العالم الغزي، في مركيانوس Marcianus أسقف غزة، من أن الأسقف يجب أن يكون متضلعاً من الأدبين المسيحي والوثني، لأن ذلك يمكّنه من استيعاب الكتاب المقدس كما يعينه في تدريسه وشرحه. وحري بالذكر أن مثل هذا الرأي لم يقل به جميع العلماء المسيحيين. فقد كان هناك من يرى في الأدب الوثني خطراً على المسيحية والفكر المسيحي. وقد مر بنا ذكر كيرلّس المقدسي وأبيفانيوس المولود في بيت جبرين سنة ٣١٥ الذي أنشأ ديراً في مدينته وأشرف عليه ثلاثين سنة قبل أن يرضى بأن يكون أسقف سلاميس Salamis بقبرص. فكان هذان يعتبران هذا الأدب نوعاً من البدع والهرطقات.

وقد عرفت مدرسة غزة في القرن السادس عدداً من المعلمين والعلماء كان الأبعد صيتاً بينهم بروكوبيوس وكوريكيوس. ويرجح الباحثون أن بروكوبيوس ولد حوالي ٤٦٥، وقد تعلّم في الإسكندرية وعلّم في غزة إلى أن توفي حوالي سنة ٥٢٧. وقد رفض عروضاً مغرية للعمل في أنطاكية وصور وقيصرية (فلسطين) وظل وفياً لمدرسته. وقد وضع بروكوبيوس، شأنه في ذلك شأن معاصريه من العلماء، حواشي وتعليقات على الأسفار الثمانية الأولى من العهد القديم، وكان طلابه يقرأونها عليه. لكن بروكوبيوس كان يحاضر أيضاً في البلاغة الكلاسيكية، دون أن يشعر بحرج لأنه كان أحد الذين وفّقوا بين الاتجاهين من أدب وفكر. وخطبه التي وصلتنا فيها ما يوضح ذلك دون لبس ولا إبهام. وقد كانت في أغلبها وصفاً لشؤون الطبيعة وورود الربيع أو لوصف نزهة خارج المدينة وينتهي بذكر الوردة. وقد جاء في واحدة من خطبه مقارنة بين الرسم والشعر، تستحق أن تنقل إلى العربية كنموذج لكتاباته. قال:

«الرسم والشِعر يقلدان أشكال الآلهة والناس وأحاسيسهم وحبهم: الرسم بالألوان والشِعر بالكلام، إذ ان الكلام هو اللون بالنسبة للشِّعر. فالشعر يمثّل سقوط حبيبات أورانوس على البحر، ويصف أفروديت ويشير إليها بأنها «ابنة الزبد» ـ إلا إذا خانتني الذاكرة ونسيت كلمات الشاعر هزيود Hesiod، إذ يقول إنها وُلِدت من البحر المتعالي موجُه. والرسم، في الجهة الأخرى، يعطي الوصف الشعري صورة مرئية، لأنه يصور أشكال البحر بحيث يمكن القول بأن الأمواج تتحرك بالرسم. ويضع الرسام أفروديت بجمالها الأخّاذ في وسط المنظر، على خير ما يجب أن تبدو أفروديت: انها تجلس في عربة يَجرها أبناء تريتون، وهم رجال إلى وسط أجسامهم، وأسماك فيما تبقى من الجسم. وحول ذلك ينتشر كورس من حوريات الماء، وترى الدلافين تغوص في الماء فرحة مسرورة، ثم تثب فوق الأمواج. بمثل هذا يصف هذا الفنان أفروديت الإلهة»[١٧٩].

وقد وصلتنا مئة وثلاث وستون رسالة من قلم بروكوبيوس يتحدث فيها عن عمله وزملائه في الإسكندرية وغزّة، وعن تلامذته الغزّيين، ويخص منهم اثنين بالذكر هما كوريكيوس، خليفته في مدرسة غزة، ومركيانوس الذي تولى أسقفية المدينة فيما بعد.

وكان بروكوبيوس ماهراً في الوصف، يدلنا على ذلك وصفه للساعة الكبيرة التي كانت في غزّة، وكان الوصف دقيقاً لآلة معقدة. كما يدل على ذلك وصفه لتمثال الامبراطور أنستاسيوس Anastasius (٤٩١ ـ ٥١٨). فقد أُهدي إلى غزة تمثال للامبراطور، فكان على بروكوبيوس، بوصفه الخطيب الرسمي أن يلقي أمدوحة في الامبراطور متحدثاً إلى التمثال، كما لو كان هو المقصود بالمديح. وقد احتوت الخطبة على إشارات وتعابير منتزعة من الأدب القديم، ثم على خلاصة لحياة الامبراطور وأعماله، ثم تقديم الشكر لله على أن منح البلاد مثل هذا الحاكم، وأخيراً إشارة إلى جميع الأعمال الجيدة التي تمت على يده، مثل تعيين القضاة الصالحين، وإصلاح طريقة جمع الضرائب، وإلغاء الألعاب الدامية القديمة (مثل المجالدة)، والمنح التي تفضل بها على المدن الأخرى مثل هيرابوليس Herapolis (منبج) وقيصرية (فلسطين) والإسكندرية.

وهذه قطعة أخرى هي ترجمة لما كتبه بروكوبيوس وصفاً لرسم لفيدرا Phaedra. وفيدرا، في الأساطير اليونانية، ابنة مينوس Minos وزوج ثيسيوس، لكنها أغرمت بهيبوليتس Hippolytus، وهو ابن زوجها. ولما تسببت في قتله انتحرت.

يقول الكاتب:

«ثيسيوس Theseus يغط في سبات عميق، ومن ثم يغتنم أتباعه الفرصة. لكن النوم لا يستحوذ على فيدرا؛ فالحب هو الذي شغل قلبها لا النوم. ما الذي أصابك يا امرأة؟ إنك تتألمين عبثاً من أجل حب لن يتحقق. فكيف تقنعين ذلك الرجل الذي يعرف كيف يكبح جماح نفسه! لماذا تلبسين نفسك ثوب العار بمحاولتك الاقتراب من فراش محرم عليك؟ أديري رأسك قليلاً والقي بنظرتك إلى زوجك؛ لا تحتقري ما هو موجود، فيما تحاولين الوصول إلى ما لا تملكين. احترمي زوجك، حتى وهو نائم، وانتزعي نفسك من الصورة التي تحدّقين بها. إن هيبوليتس قادر على كبح جماح النفس حتى في الصورة.

ولكن ما هذا الذي أرى؟ إن فن الرسام قد خدعني فخلتني أرى كل هذا شيئاً حياً، وتنسى عيناي بأن هذه إن هي إلا صورة. دعني أقل شيئاً عن فيدرا، لا أن أكلمها. إن شكلها يدل دلالة قاطعة على ولهها. إنك ترى عينها المبتلة بالدموع، وعقلها الذي بلبله الشعور، وجسمها الذي يرتجف، وروحها الحائرة، مع أن جسدها لا يزال حياً»[١٨٠].

تولى كوريكيوس العمل بعد بروكوبيوس في مدرسة غزة، وكان هذا مثل معلمه قد تلقى العلم في الإسكندرية ثم في غزة. وقد لقي التلميذ ترحيباً كبيراً في الدوائر العلمية والمحافل الأدبية. وكانت فاتحة أعماله رثاءه لأستاذه بروكوبيوس؛ فقد عرض في المرثاة لحياة رجل مسيحي عالم متضلع من الأدب الوثني. تحدث أولاً عن حياة الرجل عامة ثم عرض لفضائله. وأخيراً اتجه إلى الجمهور معزياً. وقد ذكر أن بروكوبيوس كان قادراً على الاستيلاء على شعور السامعين حين يخطب، وكان قادراً على ترغيب النشء على التعلم، وهذا غاية ما يصل إليه العالم. وكما كان يستعمل اللغة الأتّيكيّة، أي لغة الخاصة في كلامه، فإنه كان يتطلب ذلك من طلابه أيضاً، على أن عملهم ذو أساس منطقي. وقد حفظت لنا الأيام ست خطب من هذا النوع (منها اثنتان مرثيتان) واثنتي عشرة موعظة، وغير ذلك من الكلمات التي تقال في المناسبات. وكان يكثر من الاقتباس من أساطين الفكر اليوناني، كما كان يستعمل صوراً وثنية لرموز مسيحية.

لكن مقدرة كوريكيوس الفنية في الكتابة تجلّت أبدع ما يكون في وصفه لكنيستي القديس سرجيوس والقديس اسطفان في غزة. وبهذه المناسبة فإن هذا هو المصدر الوحيد الذي حصلنا منه على وصف فني معماري زخرفي تعبدي للكنيستين. وهذا أمر هام. ذلك أن غزة فقدت مع الزمن هذه الكنائس الجميلة. والقطع الأدبية التي خلفها كوريكيوس هي كل ما لدينا لنفهم تطور فن العمارة في غزة في ذلك الوقت. وكان كوريكيوس يغتنم كل فرصة للكلام كي يشيد بجمال المبنيين. فهو إذ يلقي أمدوحة لمركيانوس، أسقف غزة، يحمل سامعيه معه كي ينتقلوا إلى الكنيسة لأنها المكان المخصص للأسقف. وفي مناسبة أخرى يصف الرسوم التي كانت تزين الجدران. وهذه الرسوم كانت مناظر منتزعة من العهد الجديد (من الكتاب المقدس). ومن أجمل ما كتبه كوريكيوس وصفه للرخام الذي صنع منه الجزء الداخلي من الهيكل. وكانت في إحدى الكنيستين قبة من الخشب تغطي هذا الجزء من الهيكل بالذات، شبيهة بتلك التي كانت في كنيسة المهد ببيت لحم.

ويكفي كوريكيوس فخراً أن فوتيوس، عالم القسطنطينية وأديبها في القرن التاسع، وأحد المعدِّلين في الأدب اليوناني المسيحي، اعتبره من كبار الكتّاب والأدباء[١٨١].

وقد برّز أستاذ آخر من أساتذة مدرسة غزة هو يوحنا الغزّي، الذي عمل أيام جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥). ويوحنا هذا نظم قصيدة فيها وصف رمزي للعالم ولقوى الطبيعة. وفي هذا القصيد وصف عدداً من الآلهة القديمة مثل إيريس وأطلس وصوفيا والرياح الأربع وأوقيانوس وأوروبا وآسيا. ومع أن هذه الأسماء هي وثنية الأصل والمعنى، فإن القصيدة تبدأ بمقدمة مسيحية. ويقال إن القصيدة كانت وصفاً لحمّام عام في غزة، إلا أن الموضوع بالذات تناوله أكثر من كاتب واحد، إذ ان الفسيفساء التي تمثّل هذه الفكرة قد وُجِدَ ما يشبهها في أنطاكية وفي الشهباء (فيليبوبوليس، أي مدينة فيليب العربي امبراطور الرومان ٢٤٤ ــ ٢٤٩م) القائمة في جنوب سوريا. ومعنى هذا أن الموضوع الذي عالجه يوحنا الغزّي كان موضوعاً كلاسيكياً مألوفاً. لكن الشاعر الجديد أدخل فيه العنصر المسيحي. وهذه ناحية من نواحي هذه الملاءمة التي عرفتها غزة ومدرستها.

ولنُشر أخيراً إلى واحد من خريجي مدرسة غزة، وهو بروكوبيوس القيصري المولد الغزي النشأة والدراسة، الذي تأثر بثوكيديدس Thucydides المؤرخ اليوناني (من القرن الرابع قبل الميلاد ومؤرخ الحروب البلوبينيزية) وأُغرِم بالتاريخ. ومن ثم فلم يكن له مجال للعمل في مدرسة غزّة التي لم يُعرف عنها اتجاه نحو التاريخ. لذلك فقد ترك غزة وذهب إلى قيصرية آسيا الصغرى[١٨٢].

ولعلّ البعض يتساءل عن الصلة بين مدرسة غزة وسكان المدينة وزوارها. هل كانت المدرسة مجمعاً أكاديمياً يقتصر العمل فيه على أساتذة يدرِّسون، وتلاميذ يتعلمون، والجميع ينقبون

ويبحثون فقط؟ أم كان ثمة صلة بين الفئة القليلة العالمة والفئة الكبيرة ــ أهل المدينة؟ وقد نجد الجواب في عبارة لكوريكيوس نفسه وردت في أمدوحته الثانية لأسقف المدينة مركيانوس. إنه يتحدث عن الأسواق وما فيها ومن يقضي وقته فيها، والاحتفالات والأعياد التي كانت المدينة تقيمها. هذه الاجتماعات كانت قديمة وثنية، لكن غزة حافظت عليها بعد أن جعلتها مسيحية الروح. كانت هذه المواسم جميعها مناسبات يحضر فيها القوم الاجتماعات ليصغوا إلى ما يُلقى فيها من خطب ووعظ وشعر. ومع أن الجمهور هو الذي كان يحضر فإن ذلك لم يعن هبوطاً في المستوى الفكري أو الأدبي أو الفني. والذي خلص إليه الباحثون من فقرة واردة في إحدى مراثي كوريكيوس هو أن أثر غزة كان يصل إلى أنحاء مختلفة من فلسطين، وقد يتجاوز حدودها أيضاً.

وإذا كان الأمر كذلك، فما هي الأحوال أو العوامل التي يسّرت لغزة القيام بمثل هذا الدور؟

لعل مما يفسر ذلك هو أن المنطقة التي كانت غزة مركزاً لها كانت من قبل تُعنى بالأدب القديم. ولما جاءت المسيحية إلى تلك الجهات لم تقض على جذور هذا الأدب، فاستمر هذا في غلالة مسيحية أو أكثر من غلالة، واستطاع الفكران ــ الوثني والمسيحي ــ أن يجدا هنا موضعاً صالحاً للمواءمة. ونحسب أن مثل هذا القول هو وصف لواقع وليس تعليلاً لهذا الواقع. إن مثل هذه الأمور لا تخضع دوماً لتعليل أو لتفسير منطقي، خاصة وإننا لا نعرف كل ما نحب أن نعرف عن الفترة والمسرح والممثلين. والذي نراه أن مثل هذا الأحداث والتطورات في التاريخ تحدث عند وصول جميع العناصر اللازمة إلى لحظة سيكولوجية معيّنة، لا تُعرف مسبقاً، وقد لا يمكن درسها لاحقاً. لكن عند توفر هذه العوامل يتخذ الحدث شكله ويشق طريقه. أما نحن فنلمس آثاره ونجني ثماره (أو آلامه) ونحاول، وقد نحاول عبثاً، البحث عن أسبابه.

هذا الذي حدث، وهذا كان أثر مدرسة غزة، وهذا تراثها فيما كتبه مدرسوها وخريجوها. غزة كانت بنت الإسكندرية، لكن البنت تجاوزت الأم، لأنها لم تقع فيما وقعت فيه الإسكندرية من مزالق اللاهوت والسياسة وخلافاتها.

ومن الأشخاص الفلسطينيين الذين نبغوا في القرن السادس أيضاً كيرلّس البيساني المولود في تلك المدينة سنة ٥١٤. وكيرلّس هذا وضع تراجم للقديسين الذين أصبحت أسماؤهم منقوشة على كل حجر في البلاد. ولكن الذي يهمنا أن الرجل وجد صعوبة في كتابة هذه التراجم على خير وجه، دون التدرب على الأسلوب الكلاسيكي، وأنه كان يأسف لأنه لم يُتح له مثل هذه الدربة على الأساليب الأدبية الصحيحة. ولعلّ تراجمه كانت أقرب إلينا لو أنه كان له مثل هذه التجربة.

وقد عرفت فلسطين فضلاً عمن ذكرنا علماء من نوع آخر ــ من اللاهوتيين ورجال الكنيسة. ولنقدم مثلين على ذلك: الأول مودِستوس Modestus، الذي رئس دير القديس ثيوديوسيوس Theodosius في بيت المقدس، ثم اعتلى سدة البطريركية في المدينة المقدسة (٦٣١ ــ ٦٣٤). وقد كتب ترانيم روحية وصلوات تتسم بالبلاغة ونصاعة الأسلوب. والثاني هو صفرونيوس Sophronius الذي تولى بطريركية بيت المقدس أيضاً (٦٣٤ ــ ٦٣٨). وقد وصلتنا آثار كثيرة مما وضع، نظماً ونثراً، وأخبار كثيرة عن حياته. وقد ولد صفرونيوس في دمشق، ويبدو أن دراسته الأدبية كانت دمشقية أيضاً. وقد كان يُعنى بالأمور الدينية في شبابه، لكنه انصرف إلى الأدب والفلسفة والفلك في الإسكندرية. وقد اعتبر صفرونيوس يومها سفسطائياً في منحاه الفلسفي. ودرّس البلاغة وكتب حواشي وتعليقات على كتاب في النحو. ولبس، وهو بعد في سن الشباب، المسوح، وأقبل على الأسفار، وقضى سنوات في دير القديس ثيودوسيوس في بيت المقدس، وانتهى به الأمر أن اعتلى السدة البطريركية خلفاً لمودِستوس. وقد وصلنا من آثاره الأدبية والدينية الشيء الوفير، وجميعها تدل على أسلوب رقيق. ولعلّ اختياره للبطريركية كان يعود إلى هذه المقدرة الأدبية التي عرفها زملاؤه فيه.

ومما خلفه صفرونيوس عدد من القصائد الدينية المحتوى والمرتبطة بأحداث ورد ذكرها في العهد الجديد أو برموز تمتُّ إليها بصلة وثيقة. وضخامة تراثه وتنوع موضوعاته يجعلانه، كما مر بنا، في مقدمة اللاهوتيين ورجال الكنيسة. ومع أن صفرونيوس لم يكن الوحيد، فقد كان أبرز هؤلاء[١٨٣].

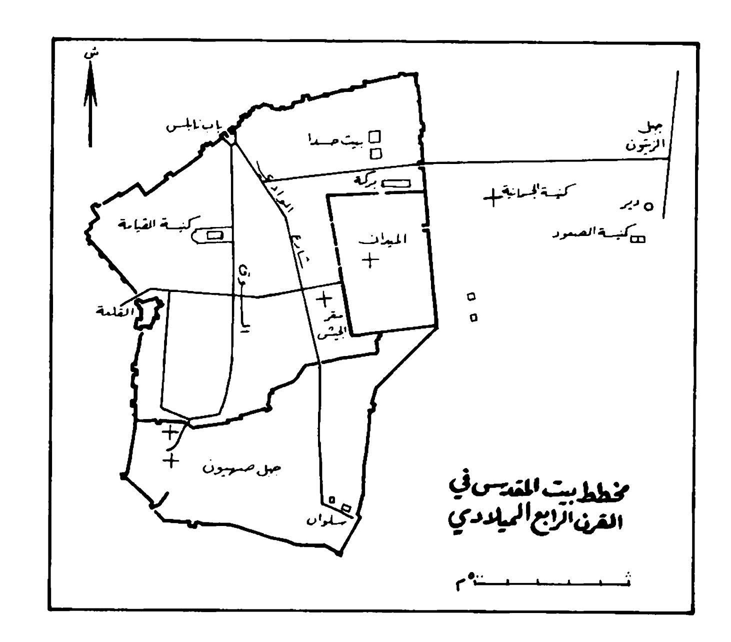
٥ ــ العمران والفنون (إلى القرن الرابع للميلاد):

في هذه الصفحات التي دوّنا فيها ما مر على فلسطين خلال قرابة ألف سنة، رأينا الكثير من الأحداث السياسية والحروب والثورات، كما ألممنا بالتيارات الحضارية التي كانت تصل إلى البلاد، قوية أحياناً ورفيقة أحياناً، وفي كل حال كانت تؤثر في سكان فلسطين وتطور حضارتها. وبسبب ارتباط فلسطين بمختلف الجهات والأقطار القريبة منها أو البعيدة قليلاً عنها، فإن تأثرها

لم يقتصر على بلد واحد أو تيار واحد. فإيران مثلاً أثّرت في تطور فلسطين، ولكن تسمية الدول اختلفت خلال هذه المدة فهي فارسية أولاً ثم فرثية ثم ساسانية. وبقدر ما كانت الأشياء تتطور في إيران نفسها فإن ذلك كان ينعكس على فلسطين. ومثل ذلك يقال في أرض الرافدين وآسيا الصغرى ومصر ومناطق البحر المتوسط الشرقية. إلا أننا لا يمكن أن ننتظر أن يكون تأثير أي من هذه المناطق على فلسطين مساوياً لتأثير منطقة أخرى، وذلك لأن العوامل والأساليب والطرق والعلاقات كانت تختلف من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان. فالصلة بين فلسطين وسوريا ومصر، مثلاً، أقوى منها مع إيران وأقدم.

ونحن في دراستنا للتطور الحضاري لفلسطين في هذه الألف سنة بين قدوم الاسكندر ومجيء العرب، نعتمد على الوثائق ــ من نقوش وقيود ونصوص تاريخية ــ كما نتطلع دوماً إلى نتائج التنقيب الأثري. ومع أن فلسطين عمل فيها معول المنقّب الأثري ورفشه مدة طويلة، فإن هذه الفترة بالذات لم تكشف بعدُ إلا عن القليل من مكنونها، إذا قوبل ذلك بالعهود الأقدم زمناً. وعلى كل فإن الاعتماد على التنقيب الأثري، وهو في دور الكشف، محفوف بالمخاطر. فقد يتم كشف أثري، أو تُحل رموز كتابة اكتشفت حديثاً، فتنقلب الآراء القديمة رأساً على عقب. لكن لا بد لنا من الاعتماد على هذا النوع من المصادر ما دامت المصادر المكتوبة غير متيسرة.

ومع أننا قسمنا بحثنا إلى أقسام زمنية تيسيراً للبحث في السياسة والحروب والحكم وبعض الأمور الأخرى، فإننا، عندما



نتعرض للشؤون الحضارية والثقافية، فلا بد من تتبع الأمور بشكل آخر لأن التطور الحضاري والتبدل الثقافي والفني لا يخضعان دوماً للتبدل السياسي. فالاتجاهات في الميدانين الأولين أكثر استمراراً من أسلوب الحكم أو نوع الحاكمين.

على كل فلا سبيل للإنكار بأن فتوح الاسكندر لفلسطين وغيرها كانت منطلقاً جديداً من حيث ان عناصر حضارية جديدة نسبياً قد دخلت فلسطين بشكل زخم الآن، وقد بيّنّا من قبل مدى تعرف فلسطين على نواح من الحضارة اليونانية قبل الاسكندر وقيام الدول الهلينستية. وقد جرّبت فلسطين البطالمة والسلوقيين، وهي دول رأت في مصلحتها أن تُكثر عدد المقدونيين واليونان في البلاد فاستقدمت منهم ما أمكنها الاستقدام. وبذلك كان التأثّر الفلسطيني بذاك الذي جاء البلاد مباشراً. والمدن التي أنشأها هؤلاء قرّبت الشقة بين السكان الأصليين وبين المعمرين الجدد، إلا من ارتأى أن يزْوَرَّ عن هؤلاء القادمين، فيمتنع عن قبول آرائهم وحضارتهم.

وكان مجيء الرومان، من الناحية الحضارية، فيه استمرار للعمل الهلينستي، بحيث ان الهَلْيَنَةَ في الفترة الأولى، والرَوْمَنَةَ في الفترة التالية، إذا صح هذا التعبير، كانتا حلقتين في سلسلة حضارية تتفق في خصائصها العامة، وتختلف الواحدة عن الأخرى في أمور معيّنة، وقد اتضح لنا بعضها من قبل. وسنوضح ما تبقى فيما هو لاحق.

وتظل القاعدة الأساسية في التطور الفني في فلسطين هي أن التطور هو نتيجة لتلاحم بين التقاليد الأساسية المحلية وما يأتي من الخارج. كان هذا أيام الكنعانيين والفلسطينيين، كما حدث، ولو إلى درجة أقل، أيام الآشوريين والكلدانيين والفرس، ولكن التلاحم كان أبعد أثراً في الفترة الهلينستية ــ الرومانية.

ولنُعِد إلى الأذهان أن الاتصال التجاري مع اليونان كان قوياً في أيام الفرس. وأبرز ما يدل على ذلك آثار الفخار الأتيكي (اليوناني) الأسود التي عُثر عليها في أماكن متعددة من فلسطين ــ في مدينة السامرة وفي شكيم وعتليت وعين جدي والمصفاة وتل الفارعة(١٨٤).

ومع مجيء الاسكندر وقيام حكم البطالمة والسلوقيين في فلسطين أنشئت مدن كثيرة. من هذه المدن مَريسَة (تل صندحنّة) في النقب (أدوم). ويعود إنشاء مريسة إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وكانت مركزاً إدارياً هاماً للمنطقة، وأحد المراكز الهامة على طريق تجارة البتراء إلى الساحل الفلسطيني (غزّة وأحوازها).

وفي سنة ٤٠ ق. م هاجم الفرثيون فلسطين، بالاتفاق مع أنتيغونس الحشموني الذي أراد استرجاع السلطة، ودمروا مريسة فيما دمروا. وقد كشف التنقيب الأثري عنها كشفاً دقيقاً. هذه المدينة التي تكاد تكون مربعة في شكلها، بنيت على الأسلوب الهلينستي. فكانت شوارعها متقاطعة، وكان لها مركزان رئيسان ــ الواحد ديني يدور حول ساحة الهيكل، والثاني مدني أساسه السوق وما إليها. ولكن الذي وجد هو ذو دلالة فنية أهم بكثير من الأمور العادية. وقد جاءت هذه الأمور الفنية من المقبرة. إذ ان القبور المحفورة في الصخر أظهرت رسوماً جدرانية فيها مشاهد صيد وموسيقيون يرتدون الثياب الهلينستية. هذه القبور كانت تخص الجالية الصيداوية في مريسة، لكن العمل الفني تم على أصول نشأت وتطورت في الاسكندرية في الوقت ذاته. ومثل ذلك يُقال عن تل أنفة في الجليل الأعلى التي يعود إنشاؤها إلى أوائل القرن الثاني قبل الميلاد، وقد دمرها يوحنا هركانوس الحشموني (١٣٤ ــ ١٠٤ ق. م) بعد قيامها بنحو قرن. وأهم ما فيها مما له دلالة فنية الأدوات الزجاجية والفخارية التي يبدو فيها الأثر الهلينستي. ومن أفضل الآثار الفنية فيها توريقة الجبس الملوّنة والمذهبة التي جُعلت إفريزاً على النمط الدوري لتزيين الجدران، ورؤوس الأعمدة الأيونية والكورنثية المنحوتة على خير ما استطاع الفنان الهلينستي. ومن الممكن أن نتذكر أيضاً ما ظهر من شوارع أسدود ومن بقايا حصن ستراتون (قيصرية فيما بعد).

وهناك قصر العبد في عراق الأمير (على مقربة من عمّان). ونحن نذكره هنا لتوضيح ما يشبهه مما بني في فلسطين. فقد كان هذا بناء ضخماً متيناً محصناً من الخارج، ومنتظماً في تخطيطه من الداخل. ومن زخارفه إفريز يدور بالجدار يظهر صفاً طويلاً من الأسود بشكل فني شرقي واضح. ومما يؤكد 'شرقية' الفن وجود أعمدة رؤوسها رؤوس ثيران أو نسور. وإلى جانب هذه العناصر الشرقية نجد العناصر الهلينستية بادية في الأعمدة ورؤوسها الكورنثية وإفريز دوري على الواجهة. وحري بالتذكر أن هذا القصر ــ الحصن بني بناء على رغبات أسرة يهودية أرستقراطية معروف عنها ميولها الهلينية وارتباطها بالكاهن الأعظم(١٨٥).

على أن الأمر الذي يجب أن يذكر دوماً هو أن كل تقدم حضاري مصدره المدينة. فهي التي تصنع الحضارة وهي التي توزعها عن طريق البلدان والقرى إلى الريف. وقد لا ينال الريف منها إلا جزءاً يسيراً. ولم تكن الحضارة الهلينستية لتختلف عن أية حضارة أخرى، بل لعلها كانت ألصق بالمدينة من أي حضارة أخرى. ودخول المدينة الهلينية إلى المشرق شجع الطلب على مقوماتها المادية. ولعلّ من أسباب ذلك أن الفضة والذهب اللذين كان ملوك فارس يكتنزونها قد أطلق الاسكندر سراحها فنزلا إلى السوق. يُضاف إلى ذلك أن درجة مرتفعة من التقنية الإدارية أخذت الأمور بيد منتظمة، فتحسّن العمل الإداري عما كان عليه في بلاد الشام في آخر عهد الدولة الفارسية القديمة. وقد أُمِّنت طرق الصحراء، فانتعشت التجارة وازداد معها المال. وفلسطين عرفت الثراء منذ أيام البطالمة ثم في أيام هيرودس. لكن الذي أهلك الناس حربان عنيفتان شُنَّتا على أيدي فئة من الجماعة اليهودية ضد الرومان (٦٦ ــ ٧٤م و١٣٢ ــ ١٣٥م).

ويمثل مجيء بومبي وتنظيمه لقضايا الشرق وفلسطين بشكل خاص وحكم هيرودس ومجيء أغسطوس إلى الحكم فترة الانتقال من العصر الهلينستي إلى عصر الامبراطورية الرومانية. وقد أشرنا إلى التغيرات التي أصابت فلسطين، فلا حاجة بنا إلى إعادة ما قلناه. وفترة حكم قسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٣٧) هي الجسر، فيما نرى، الذي تم عليه انتقال البلاد من الرومان إلى البيزنطيين. ولعل هذا الانتقال لم يؤد إلى تبدل أساسي في أمور فلسطين. وإنما الذي أدى إلى تبدل أساسي هو انتشار المسيحية واتخاذها طريقها الخاص مستقلة عن أي اتجاه ديني آخر.

والمظهر الرئيسي للحضارة التي عرفتها فلسطين وجوارها في هذه الفترة هو تخطيط المدينة. وقد أشرنا إلى هذا، وعرضنا لمجموعة من المدن التي بُنيت في فلسطين من أوائل العصر الهلينستي إلى أواخر فترة السلم الروماني، التي جاءت في مصلحة فلسطين والمنطقة (ولم يعكرها بالنسبة لفلسطين إلا ثورة باركوخبا في أيام هدريان)، والسلم الروماني مع بناء طرق داخلية وخارجية أدى إلى توسع التجارة.

والمدن التي بُنيت في فلسطين والمنطقة لم تكن كلها تتبع التخطيط الهلينستي المعروف بالابودامي (نسبة إلى إبودام Hippodam. وأساس هذا التخطيط شارعان طوليان يخترقان المدينة من الجهة الواحدة إلى الأخرى، وأحدهما هو الذي يمر بالسوق الرئيسة (الأغورا) Agora، وتتقاطع مع هذين الشارعين شوارع عرضية متعددة يختلف اتساع الواحد منها عن الآخر بحسب تصور أهميته. وهناك شوارع طولية أخرى تسير في موازاة الشارعين الرئيسين. ومن هنا تنقسم المدينة إلى أجزاء متساوية المساحة. ومع أن المدن التي بُنيت على هذا النظام كثيرة، فمن المدن الكبيرة توجد مدينة واحدة توضح لنا النقاط الأساسية تفصيلاً وهي مدينة دورا أوروبوس (الصالحية) على الفرات. فالسوق الرئيسة فيها تقع بين الشارعين الطويلين. هذه المدينة

تُبدي كل شيء واضحاً لأنها تهدمت، فيما المدن التي هي أيضاً (إبّودامية) التخطيط، مثل دمشق، لا يتضح ذلك فيها تماماً بسبب ما أُقيم من الأبنية فوق الأصل. وقد أشرنا من قبل إلى مريسة، في النقب، التي تهدمت أيضاً (سنة ٤٠ ق. م) لذلك فإن تخطيطها أوضح. وبهذه المناسبة فإن الخطة ــ خطة المدينة عامة ــ هي كل ما بقي من الآثار المعمارية للعصر الهلينستي، مع بقايا أسس بعض من الهياكل في سكيثوبوليس (بيسان) ودورا (الطنطورة).

إلى هذا التخطيط الهلينستي يوجد في فلسطين (وبلاد الشام الأخرى) تخطيط روماني. وهذا يغلب على المدن التي أنشئت أصلاً مستعمرات رومانية. وهذا المخطط المبني على نموذج المعسكر الروماني، كان محوره شارعين يتقاطعان على زاوية قائمة في وسط المدينة ويمتد كل منهما إلى نهاية المدينة. على هذا الأساس خططت بيروت (١٥ ق. م) وإيليا كابيتولينا (بيت المقدس) كما خططها هدريان، وبعلبك وبصرى وفيلبوبوليس (الشهباء اليوم). وأحد الشارعين الذي كان يطلق عليه اسم كاردو Cardo كان يحيط به، كما كان الحال في بيروت، دار الندوة والهياكل والباسيليكا ومدرسة الحقوق المشهورة. والباسيليكا مبنى مستطيل الشكل مكون من جزء أساسي هو إيوان عريض يقوم على جانبيه ليوانان (أي إيوانان أضيق من الأول، ولكن على طوله)، وكان المبنى يستعمل في الشؤون المالية؛ فهو في الواقع مركز الحياة الاقتصادية في المدينة: سوق سلع وسوق مال ومجتمع رجال الأعمال. أما الشارع المتقاطع معه عمودياً، وكان يسمى دِكومانوس decomanus فكان فيه المسرح ودار الندوة الثانية. نذكر هذا المثل لتوضيح الفكرة لأن بيروت وصلنا عنها وصف دقيق في أيام ازدهارها وقبل أن تمحى تقريباً في زلزال ٥٥١م. ومما لا ريب فيه أن التخطيطين السابقين يتصفان بشيء من الصلابة إذ تنقصهما المرونة، فكان من الطبيعي أن تعرف البلاد تطويراً لتخطيط آخر يأخذ بعين الاعتبار طوبوغرافية المكان الذي ستقوم عليه مدينة. كان هذا النظام متطوراً ومعقّداً أكثر من التنظيمين الآخرين. والمرجح أنه نشأ في الشرق الهلينستي. وقد استُعمل لأول مرة في أيام أغسطوس وطيباريوس، واتّبع في البتراء وجرش في القرن الأول الميلادي وفي تدمر حوالي سنة ١١٠م وفي أفامية (في شمال سوريا) في القرن الثاني.

والقاعدة في هذا التخطيط للمدينة هو شارع رئيس معمّد يخترق المدينة طولاً، ولكنه لم يكن يخطَّط بحيث يأتي مستقيماً، بل يتكون من عدد من الأجزاء يختلف اتجاه الواحد منها عن الآخر في زاوية قدرها بضع درجات، بحيث تراعى، كما ذكرنا، طوبوغرافية المدينة وإمكانات إقامة الأبنية الكبرى في أماكن مناسبة. وكانت تقوم عند التقاء قسمين من الشارع مستديرة تحيط بها أعمدة، وقد يُقام فيها ما يشغل الناظر فلا يتنبه إلى الانحناءة في سير الشارع. وقد كان لهذا الشارع المعمد قوس نصر في أوله، وقد تقام أقواس نصر في أجزاء منه. وقد يكون هناك شارع ثانوي مواز للشارع المعمّد. وللمدينة أن تبني شوارع معمدة تتفرع من الشارع الأصلي تؤدي غالباً إلى رسم هام من رسوم المدينة. وميزة هذا التنظيم هو أنه يعطي المهندس والبنّاء ومجلس المدينة حرية في التصرف بسبب ما يتمتع به من مرونة، وواجهتا الشارع المعمد كانتا توفّران للباعة حوانيت للبيع.

وقد اتّبع هيرودس (٣٧ ــ ٤ ق. م) هذا التصميم في بنائه كل من قيصرية وسبسطية. وقد استُعمِلَ في جرش[١٨٦]. أما هيرودس فهو أدومي وهو ابن أنتيباتر الأدومي. وسكان أدوم عرب عنصرياً، وقد أرغمهم الحشمونيون على اعتناق اليهودية. وهيرودس، كما مر بنا، كان يعرف أن وجوده واستمرار وجوده كانا متوقفين على السلطة الرومانية، وكان يدرك أن مركزه السياسي بالنسبة للبلاد التي كان يحكمها كان مزعزعاً. لذلك فإنه في مشاريعه الكبرى، التي جعلته واحداً من كبار البنائين في العالم القديم، كان يراعي أولاً إرضاء اليهود، فبنى الهيكل على شكل ضخم. وكان يجاري الرومان فبنى قيصرية وسبسطية، وأهدى لكثير من المدن المجاورة هدايا معمارية ــ لأنطاكية وبيروت وغيرهما. وكان يحرص على رأسه فبنى قصوراً وقلاعاً وحصوناً منيعة متينة قوية مثل هيروديوم (قرب بيت المقدس) ومسّادة قرب البحر الميت وأريحا. وكان قصره في بيت المقدس غاية في التحصين والمناعة. فالهيكل احتاج إلى نحو عشر سنوات (١٩ ــ ٩ ق. م) لإتمامه بأسواره المتينة وحجارته الضخمة وأعمدته الكورنثية وأفاريزه الجميلة المزخرفة بزهرة الورد وأوراق الأكانتوس والأشكال الهندسية والصحن الذي كان فيه، وقد رُفع على الباب الأوسط تمثال نسر روماني. وإلى جانب الهيكل بنى هيرودس في بيت المقدس قلعة أنطونيا وقصره الخاص. وكل من هذه كان صالحاً لأن يتحصن فيه فترة من الزمن بسبب مناعته وأبراجه وأسواره. ولم تكن القصور الأخرى تقل عن قصر بيت المقدس فخامة، بل إن مسّادة فاقت كل ما كان يمكن أن يخطر على البال من حيث تخطيطها وتحصينها ونقل الماء إليها وجعلها مكاناً صالحاً للالتجاء إليه عند الحاجة.

ومدينة قيصرية بُنيت بين سنتي ١٢ و ٩ ق.م. وقد أقامها هيرودس ميناء رئيساً في مكان ليس فيه حتى أقل ما يمكن من

الميناء الطبيعي. والتخطيط الذي اتّبعه هو الشارع المعَمّد. وقد قيل في وصفها انها كانت ميناء ملكياً أكبر من بيريه (ميناء أثينا). وكانت فيها قصور للحاكم ولإدارات الدولة وهياكل للتعبد ومسرح جميل ومكان للسباق (٨٠م × ٣٢٠م). ومما يؤسف له أن الميناء امتلأ بالترسبات في العصر الروماني. وكان للميناء برجان يحرسان المدخل. وقد حُملت المياه من منحدر جبل الكرمل الجنوبي على مسافة عشرة كيلومترات في مجرّات مياه.

وكل هذا، مثل بقية ما أقام هيرودس، ما كان ليتم لولا «التكنولوجيا» الرومانية. وعلى كل فإن قيصرية لم تتضح معالمها لأن المكان مسكون. وقد تمت أعمال تنقيب أثري محدودة، لكن مؤخراً اهتم بالموضوع الغطاسون الأثريّون فاستطاعوا أن يتعرفوا إلى بعض معالم قيصرية. منها، مثلاً، أنهم استطاعوا تعيين حدود الميناء (والمساحة هي ١٤ هكتاراً)، ونظام المجاري من حيث مخارجها. أما ما اكتشف أثرياً وأمكن تحديده فهو المسرح. وأما مكان السباق فقد مُسِحَ فقط[١٨٧].

ولأن سبسطية هُجرت منذ نهاية العصر البيزنطي، فقد أمكن التنقيب عن آثارها، وقد تم ذلك في الثلاثينات. ومن هنا أمكننا تقديم الوصف التالي للمدينة:

«بُنيت سبسطية على أنقاض مدينة السامرة (وهذه يرجع إنشاؤها إلى القرن التاسع ق. م)، وقد تقلّبت على المكان أحداث

كنيسة القيامة
مخطط لما اقامه قسطنطين
(٣٠٦ - ٣٣٧م)

كثيرة، ولما احتل الرومان فلسطين سنة ٦٣ ق. م. أعاد بومبي السامرة إلى سكانها (السامريين) بعد أن استرجعها من مغتصبيها (اليهود). وفي أيام غابينيوس والي سوريا (٥٧ ق. م) عادت المدينة إلى بعض نشاطها، وكان سكانها يُسمون أنفسهم لمدة بضع سنين «الغابينيين».

«وفي سنة ٣٠ ق. م أعطى أكتافيوس (أغسطس) السامرة مكافأة لهيرودس الذي كان يحب المكان. لكن هيرودس الملك السياسي أدرك أموراً أخرى في المكان، منها موقع السامرة على تل مرتفع عند نقطة تلتقي، على مقربة منها، ثلاثة طرق رئيسة تأتي من جنين وطولكرم ونابلس أو من أسلاف هذه المدن. لذلك اهتم بأن ينشيء هنا حصناً وقلعة ويسكنها جماعة من الناس يخلصون له. فجاء إلى المدينة بستة آلاف من جنده المسرَّحين، وكان فيهم غاليون وتراكيون وألمان. تم هذا له في سنة ٢٥ ق. م وسمّى المدينة «سبسطية» إكراماً لأغسطس قيصر.

«وكان هيرودس مغرماً بالبناء، وكان الموقع ملائماً لإقامة الأبنية الكبيرة، لذلك أقام هناك هيكلاً فسيحاً لأغسطس، وأحاط المدينة بسور طوله أربعة كيلومترات، تقوم عليه أبراج مستديرة. وكان السور يدور بمجموعة من المباني الفخمة. فقد كان فيها، فضلاً عن هيكل أغسطس، هيكل للإله المحلي ودار ندوة (فورَم) ومسبق، وبقية ما يحتاجه سكان المدن لينعموا بخيراتها. وهكذا كانت سبسطية تحوي ما تحتوي عليه المدن الرومانية عادة. سكانها مزيج من أجناس مختلفة، لكن المكان يقرب بينهم. ثقافتهم محدودة، وعقائدهم الدينية وعباداتهم فيها شيء من المزج أيضاً، كانوا يهتمون بآلهة العالم السفلي (كوري أوبرسيفون)، لكن غيرها من الآلهة كان له هيكل أو معبد، أو على الأقل، مكان يُذكر فيه، وتطمئن قلوب أصحابه لذكره، مثل هيكل زفس.

«وقد أعطت سبسطية الامبراطورية جنداً غيورين، وكانوا خصوماً لليهود، لذلك لما قامت الثورة سنة ٦٦م، قتل اليهود كثيرين من سكان سبسطية، ودمروا أجزاء منها. لكنها استرجعت نشاطها بعد سنة ٧٠م.

«وازدهرت في القرن الثاني للميلاد. وفي سنة ٢٠٠ منح سبتيميوس سفيروس المدينة (حقوقاً مثل المستعمرات). وكانت أكثر الأبنية التي أقيمت في أيام هيرودس قد تهدمت، فبدأ الآن عصر بناء جديد، لكن الإتقان والإجادة كانا دون ما ظهر في الدور الأول. فاستُعيض بالطراز الكورنثي في البناء عن الطراز الدوري القديم، وبُني الهيكلان على أسس جديدة، وأُقيم مسرح من جديد، وجيء بمئات الأعمدة التي وضعت ليرتكز عليها السقف الذي كان يغطي رصيف الشارع الرئيس.

«وفي القرن الثالث ظهر أن سبسطية آيلة إلى الخراب، فقد هجرها السكان، وتداعت الأبنية. وبعض الذين ظلوا فيها من سكانها اعتنقوا المسيحية، بحيث أنه كان لها أسقف في أوائل القرن الرابع، هو مكرينوس الذي حضر مجمع نيقية (٣٢٥). ودخول المسيحية إليها أدّى بطبيعة الحال إلى قيام تقاليد متعلقة بالعهد الجديد أو حياة تلاميذ المسيح. ومن هنا كانت كنيسة

القديس يوحنا (جسم يوحنا المعمدان مدفون فيها!) وهي الكنيسة الكبيرة هناك. وقد قامت كنيسة أخرى كانت لاصقة بدير، ولعلهما بُنيتا في القرن الرابع.

«وقد لقيت سبسطية وكنائسها الأمرّين بسبب الزلازل الكثيرة الحدوث، ثم على أيدي الفرس الذين احتلوا هذه البلاد سنة ٦١٤.

«ولسنا نريد أن نتناول جميع الأبنية بالوصف والتفصيل، ولكن نرى لزاماً علينا أن نلم إلمامة سريعة بخمسة منها نعتقد أنها تمثل عناصر المدينة وتطورها وهي هيكل أغسطس، ودار الندوة، والمسبق، والكنيسة، والشارع المعمد. فهيكل أغسطس بني في أبرز مكان في سبسطية، بحيث كان الواقف أمامه يستطيع أن يرى البحر. وقد أقيم ثمة فناء واسع طوله سبعون متراً وعرضه خمسون متراً، ومنه كان يصعد الزائر درجاً عريضاً يوصله إلى الهيكل. أما هذا فكان محاطاً بأعمدة من الطراز الكورنثي، وكان يتوسطه في الداخل تمثال لأغسطس. وليس هناك من بقايا لهذا الهيكل إلا بضعة أعمدة، وإلا بقايا التمثال (وهذا كان موجوداً في المتحف الأثري الفلسطيني في القدس).

«ودار الندوة (الفورم) كانت فسحة ممهّدة تحيط بها أروقة معمدة وهذه يدور بها جدار. أما سعة دار الندوة فكانت مئة وثمانية وعشرين متراً طولاً واثنين وسبعين متراً عرضاً. وكان لها مدخلان ــ الواحد في الجدار الشرقي والثاني في الجدار الجنوبي. والباقي منها إلى الآن سبعة أعمدة وبضع بسطات كانت في الأصل جزءاً من الرواق الغربي. ودار الندوة هذه كانت، شأن أمثالها من دور الندوة في العالم الروماني، مركز الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة. والظاهر أنه جُدِّد بناؤها في سبسطية حول سنة ٢٠٠، في أيام سبتيميوس سفيروس. والآثار المذكورة آنفاً ترجع إلى هذه الفترة.

«وكان يقوم في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة المسبق، وهو بناء مستطيل طوله مئتا متر وعرضه سبعون متراً، محاط بأروقة معمَّدة على جهاته الأربع، وهذه يدور بها جدار. والمرجَّح أن هذا المسبق كان لجميع أنواع الهوايات الرياضية، والمباريات الأدبية، والحفلات الموسمية، وحتى المناقشات الفلسفية. وقد عُثر فيه على مذبح، مما يدل على أن بعض الحفلات الدينية كانت تقام فيه تمجيداً لكوري (إلهة العالم السفلي).

«أما الشارع الذي يجاريه صفان من الأعمدة، فقد كان الجادة الرئيسة في نصف المدينة الجنوبي ولكن لم يكشف بعد عن الشارع الآخر الذي لعله كان يقابله في شمالي المدينة. واتجاه الشارع على العموم من ناحية دار الندوة إلى الباب الغربي، وقد كان عرضه يتراوح بين ١٢ و١٥م، وعلى كل من جانبيه كان ثمة ممشى مسقوف تنفتح عليه أبواب الحوانيت. وبعض هذه الحوانيت كان ذا طابقين. وهذه الحوانيت، مثل الشارع نفسه، بنيت في أواخر القرن الثاني للميلاد، لما منح سفيروس المدينة حقوق «المستعمرة الرومانية».

«وتمثل كاتدرائية القديس يوحنا الأبنية التي ترجع إلى بعد دخول المسيحية إلى المدينة وما حولها. والباقي من الكنيسة البيزنطية إلى الآن جزء صغير من الجدار الشمالي، وتيجان مهشمة للأعمدة التي كانت تزينها. (أما البناء الحالي فهو صليبي، يرجع إلى أواسط القرن الثاني عشر للميلاد)»[١٨٨].

ونضيف هنا وصفاً لجرش (إحدى المدن العشر) بسبب أن آثارها معروفة ووصفها يساعدنا على تصور أفضل لبعض المدن الفلسطينية التي لم يظهرها التنقيب بعد، أو لعله لن ينقّب فيها بسبب أنها مسكونة.

«في القرن الثالث ق.م. كانت الأجزاء الجنوبية من سوريا، أي فلسطين والأردن تابعة للبطالمة. وكان البطالمة يعنون بتحويل طرق التجارة البرية العربية لمصلحتهم، لذلك اهتموا بمراكز التجارة والمدن التي كانت في تلك الجهات. فحاولوا أن ينشروا الحضارة الهلينية، ليكون ثمة رابط بينهم وبين السكان، وعندها يؤمنون مصلحتهم، على أساس تبادل المنافع، وكان بناء المدن سبيل هذه «الهَلْيَنَة»، ولما تحولت هذه البلاد إلى السلوقيين حول سنة ٢٠٠ ق.م. لم يقصر هؤلاء في بناء المدن، بل هم كانوا أكبر عناية بذلك من البطالمة. واهتم السلوقيون أيضاً بتحويل التجارة إلى مدنهم، بحيث أن تجارة البتراء أصبحت تتجه نحو موانىء فلسطين ولبنان. والمرجح أن إنشاء مدينة يونانية في جرش يرجع إلى أوائل هذه الفترة، بل هو يرجع على الحصر إلى أيام أنطيوخس الرابع ١٧٥ ــ ١٦٤ ق. م، ومن هنا كانت تسميتها «أنطاكية» أيضاً.

وقد تعرضت جرش لأحداث السياسة والحرب التي تعرضت لها هذه البلاد بكاملها فهدمها اسكندر يانيوس الحشموني (١٠٢ ــ ٧٦ ق. م)، لكنها عُمِّرت من جديد، وازدهرت تجارتها في القرن الأول ق. م لما نشطت الطريق الصحراوية المباشرة بين الخليج العربي والبتراء، وذلك بسبب الحروب الكثيرة التي كانت تجتاح الطرق الشمالية. ولما احتل بومبي سوريا اعتبر أنه منشىء جديد للمدينة، بحيث استعمل تأريخ جديد لجرش سمي «التأريخ البومبي». وقد جاء الحكم الروماني إلى البلاد بالسلم، فأينعت المدن هناك كما ازدهرت في بقية الأصقاع، وخاصة في القرنين الأول والثاني للميلاد. وفي هذه الفترة تقدمت جرش واتسعت وأقيمت فيها الأبنية الهامة التي لا تزال آثارها قائمة فيها. وإذا جاز لنا أن نميز فترة خاصة في هذين القرنين فالقرن الثاني هو الذي يختص بالتميز. فقد اهتم جميع الأباطرة الذين حكموا في هذه المدة بجرش، من تراجان إلى سبتيميوس سفيروس.

أما القرن الثالث الميلادي فقرن تأخر وانحطاط في حياة جرش. ولا غرابة في ذلك، فهو قرن الاضطراب والفوضى في الامبراطورية الرومانية. لكن جرش عاد إليها شيء من النجاح في أواخر القرن الرابع، واستمرت تتمتع به إلى بُعيد أيام جستنيان. وفي هذه الأثناء دخلتها المسيحية، ومن هناك جاءت هذه الآثار

المسيحية الكثيرة الموجودة جنباً إلى جنب مع هياكل الوثنيين.

وأخيـراً تعرضت جرش للحروب الساسانيـة البيزنـطية العنيفة، وللفتح الفارسي العارم والتخريب الذي صحبه. ثم تضافرت عليها الزلازل، وأكبرها أثراً تلك التي جاءتها في كانون الثاني/يناير سنة ٧٤٦. هذه كلها كانت عوامل هدم للمدينة. لكن الذي قضى عليها نهائياً في الواقع هو أن فتح العرب للشرق الأدنى والأوسط وشمالي أفريقيا أدى إلى تنظيم جديد للطرق التجارية، كانت جرش خارجه. وهكذا زالت جرش العظيمة. ولم يبق منها، على مر الأيام، إلا قرية صغيرة يسكن أهلها على ضفاف نهيرها، وآثار فخمة ضخمة أزاح الأثريون عنها التراب شيئاً فشيئاً، فظهرت عظمتها للعيان.

هذه لمحة عن تاريخ المدينة، ولننتقل إلى درس بعض الآثار، رامين من وراء ذلك إلى تتبع العناصر التي كانت أصلاً للمدينة، وسنعرض إلى مجموعة صغيرة من آثار جرش، تاركين الباقي إلى مكانه من المظان المفصلة.

والآتي جرش من عمّان يرى قوساً من أقواس النصـر الفخمة مُقاماً خارج سور المدينة، ثم يمر على يساره بالمسبق الذي يتجاوز طوله المئتي متر ويبلغ عرضه ثمانين متراً. وقد كان هذا المسبق للرياضة كما كان للبيع والشراء، وكان سوقاً للإبل والخيل بشكل خاص. فإذا اجتزت باب المدينة الجنوبي، وجدت نفسك أمام مجموعة فخمة جداً من الآثار، فيها دار الندوة، والشارع المعمّد، والمسارح والهياكل الوثنية، والكنائس المسيحية، وغير ذلك، مما يمكّنك من قراءة تاريخ حافل منوع.

ودار الندوة (الفورم) في جرش ساحة إجاصيـة الشكل مبلّطة يليها رواقان منفصلان معمّدان بالطراز الأيوني. وترجع في تاريخها إلى أوائل العهد الروماني. وهذه الساحة كانت السوق الرئيسة، وكان يدور بها حوانيت ومستودعات للمتاجر ومخازن، على نحو ما يرى الواحد منا إلى الآن في المدن التي يكثر تردّد القوافل عليها.

ومن دار الندوة كان يخرج الشارع الرئيس. وهذا الشارع كان مفخرة جرش، وكان يحيط به صفان من الأعمدة، بلغ عددها خمسمئة ولا يزال قائماً منها إلى الآن نحو سبعين عموداً. وهذا الشارع كان يقطع المدينة من الجنوب إلى الشمال، ويتقاطع مع شارعين أصغر منه يقسمان المدينة من الشرق إلى الغرب.

أمـا جزؤه الأوسط فكان مزيناً بالمباني الأنيقة الفخمة، وأروعها ولا شك «سبيل الجنّيات» بنقوشه الجميلة وحجارة الرخام الملون المصنوع منها حوض الماء وقناته.

وأمـا الهيكل الرئيس في جرش، فقد كان هيكل أرتميس، حامية جرش، والتي أُضيف إليها في زمن الرومان «فورتونا» (إلهة الحظ). ويُعتبر هذا الهيكل بأعمدته وتماثيله ومدخله واتساعه مثالاً جيداً للعمل الفني المتقن المنظّم.

ومـن الجدير بالملاحظة أن جرش الرومانية لم تتغير معالمها لما غُلبت أرتميس على أمـرها وانتشـرت المسيحية هنـاك، وكل ما حدث أن الأبنية الكبيرة صارت كنائس، أو بُنيت على مقربة منها كنائس، وهذه كانت من نوع المباني الصغيرة، التي ترجع إلى القرن الرابع م.

ولكـن في وقت متأخر، لعله في القرن السادس، قامت كنيسة القديس ثيودور على مقربة من هيكل أرتميس. وهي في الـواقع تقليـد «مسيحي» للهيكل الـوثني في المدرج والـرسوم والفسيفساء وغيرها. وكان غير هذه الكنيسة سبع كنائس في جرش، ترجع كلها إلى عصر جستنيان».

هذه المدن التي وصفناها هي، كما قلنا، نماذج لما كان يقوم ويظهر من المدن، وأمثلة توضح لنا عناصر «المدينة» ولعلها توضح لنا الخدمة التي قدمتها المدينة الفلسطينية والشامية للحضارة[١٨٩].

وكان هناك خمس مدن أصغر حجماً في النقب، وهي تتصف بقرابتها لفن الأنباط، وهو الفن الهلينستي المعدَّل قليلاً بحيث يقترب من نمط «الشارع المعمّد»، والمدن التي أُميط اللثام عنها نسبياً هي عَبْدَه وسَبَيْطة ونسّانا Nissana وكرنب وألوسا. وقد عُثر في كل منها على بقية من الأبنية التي تشير إلى أصل البناء أو زمنه. ففي عَبْده عُثر على بوابتين ومعبر داخلي من الفترة النبطية، وعلى هيكل يعود إلى أيام الحارث الرابع (٩ ق. م ــ ٤٠م)، ومصنع للفخار يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد. ومع أن الآثار التي عُثر عليها في المواقع الأخرى صغيرة، فإنها تدل على ازدهار هذه المدن أيام البتراء وعزّها. وقد عُثر في ألوسا (الخلَصة) على مسرح يعود إلى ذلك الزمن. وحري بالذكر أن هذه الأماكن جميعها كانت مأهولة إلى درجة الازدحام في العصر البيزنطي، لذلك فإن بقايا العصر النبطي ليس من اليسير العثور عليها.

ومما يستحق العناية الفن الديني في فلسطين في الفترة الممتدة من سنـة ٣٣٢ ق. م إلى سنة ٦٣٦م. إلا أننا سنتناول هنا تطور هذا الفن إلى حوالي سنة ٣٠٧م، تاركين الفترة المتبقية إلى ما تأخر من هذا البحث.

أول ما يلفتنا بالنسبة للأبنية الدينية هو هذه الهياكل الكثيرة والضخمة التي عرفتها البلاد الشامية في العصر الامبراطـوري بشكل خاص. فأنت أينما اتجهت لقيت هيكلاً ضخماً ــ في بعلبك ودمشق وجرش وسبسطية وقيصرية (فلسطين) والبتراء وتدمر، فضلاً عن الهياكل الأصغر حجماً في المدن الصغرى، وحتى على أطراف الصحراء مثل رَمّ وتَنّور (في الأردن) والشهبا (سوريا). وهذا على سبيل المثال فقط. وأول ما يجب أن يقال ان تخطيط مثل هذه الهياكل وإنشاءها، وقد يستغرق البناء قرناً أو قرنين من الزمان (بعلبك)، يعود الفضل فيهما إلى الاستقرار السياسي والثـراء الكبير.

وهذه الهياكل بأجمعها لها مظهر كلاسيكي (يوناني - روماني). ولكن عندما ندخل إلى هذه الهياكل نرى فيها نوعين: الأول ذو مظهر كلاسيكي لكن الجزء الداخلي منه مهيأ لقبول الآلهة الشرقية مع اقتطاع جزء من الهيكل للقيام بالطقوس الدينية على أيدي الكهنة. فمما يجدر ذكره أن الهيكل الكلاسيكي من الخارج والداخل نجد فيه ما يشير إلى وجود الإله في مكان ما في الكون على أن يكون لوجوده إشارة في الهيكل. لكن الجزء الداخلي من الهيكل الذي نشير إليه الآن هو الذي تشعر وأنت فيه بوجود وحضور مهمين للإله، وتكاد تحس بعظمته وجبروته. هذا ما يُوحي به إليك دخولك هيكل (أو هياكل) بعلبك. ولعل هياكل قيصرية وسبسطية كانت من هذا النوع. ولنمثل على ذلك بمكان التضحية وأماكن حرق البخور والمكان الخاص بالكهنة. كل هذه تجدها في هذه الهياكل. وأما النوع الثاني فهو الذي يوحي إليك بهذا الوجود الإلهي في مظهره ومَخْبِره، مع أن الجزء الظاهر منه لا يخلو أبداً من أثر للطراز الكلاسيكي. ويمكن اعتبار هياكل تدمر ودمشق والبتراء ودورا أوربوس (الصالحية) وبيت المقدس من هذا النوع. واعتمادنا في التعرف إلى هيكلي بيت المقدس ودمشق هو الرواية التاريخية، أما الهياكل الأخرى فقد كشف عنها النقاب ويمكن زيارتها[١٩٠].

والبنّاء في تلك العصور، وخاصة منذ أواخر القرن الأول للميلاد، استعمل مهارته لإظهار هذه الأهمية للإله في داخل المعبد. ففضلاً عن الاقتطاعات التي ذكرناها، ألصق بالجدران الداخلية للهيكل أعمدة، وقسّم المسافات القائمة بين كل عمودين إلى قسمات تعلو واحدتها الأخرى وتفصل بين الواحدة والأخرى رفوف (من الرخام في الغالب) بحيث يمكن أن توضع فيها تماثيل للآلهة الصغرى التي تروح وتغدو في ركاب الإله الأكبر. وقد يقيم البنّاء مذبحين بدل المذبح الواحد، وقد يجعله مرتفعاً يصل إلى نحو ثمانية عشر متراً (كما هي الحال في هيكل بعلبك). ويرجح الباحثون أن هيكل سبسطية أو قيصريّة، أو كلا الهيكلين، كانت فيه عناصر من هذا النوع، لأنها شاميّة الأصل، وليست مستوردة من الخارج. ومن الأمور التي أدخلها النحات في بناء الهياكل هذه أنه زخرف رؤوس الأعمدة والأبواب والأفاريز وحتى الزهور فيها بطريقة أفقدتها بعض نعومتها في مقابل إظهار الفرق الواضح بين الأجزاء التي يصلها النور وتلك التي تبقى في الظل. ثم اتفق المهندس والبنّاء والنحّات على الإفادة من نور الشمس بالنسبة لداخل الهيكل. فقد احتُفِظ بالغرفة الخاصة بالإله (أو الإلهة) أن تكون مظلمة، فيما تُختار نافذة تدخل منها أشعة قوية من الشمس تُسَلَّط على تمثال الإله.

وهنا نشير إلى الكنيس (اليهودي) الذي تأثر، على ما يبدو، بهياكل حوران، على ما يظهر من دراسة الكنس اليهودية في الجليل التي بُنيت في القرن الثاني للميلاد وما بعد ذلك. وهناك ما يدل على أن المهندسين أو البنائين الذين عملوا هناك عملوا هنا. وهنا نود أن ندلي برأي وهو أن مثل هذا النوع من التعاون المهني، وخاصة أن ما يبنى يخص أكثر من عقيدة واحدة، يدل على وجود نوع من الرابطة أو الاتحاد بين أصحاب المهن في ذلك الوقت المبكر. (يود كاتب هذه السطور أن يشير إلى أن البنائين والحجّارة الفنيين من أهل الناصرة - وهي في الجليل - كانوا حتى العشرينات من هذا القرن يقومون ببناء المنازل الكبيرة والكنائس والمساجد في شمال الأردن).

كانت الهياكل كثيرة في بلاد الشام في تلك الفترة، وثمة أدب تاريخي وأثري كثير حولها، لكنها لا تعنينا في جماعها، وإنما أشرنا إلى بعض هذه الهياكل لأنها تمثّل تلك التي زالت آثارها في فلسطين، إلا أنها كانت أصلاً معاصرة لها. ولكن نود أن نشير هنا إلى هيكل هيرودس في بيت المقدس، لا للإشارة إلى ضخامته وإتقان بنائه، ولكن لنضيف أمراً يتعلق بالمجتمع الذي كان يؤمه. ذلك أن الهيكل كان مكاناً للعبادة. وهو، بطبيعة الحال، مفتوح أمام جميع الناس. لكن الهيكل لم تكن جميع أجزائه في متناول الجميع. فقد كانت فيه قاعات (أو باحات) بحيث تمكن الفئات المختلفة من الدخول إلى القسم الخاص بها دون أن تُضطر إلى الاختلاط بغيرها. وهي على الترتيب: فئة الكهنة، والرجال اليهود، والنساء اليهوديات، وآخرون. ونود أن نزيد أن الهيكل بُني بهذه الضخامة والمتانة حتى يمكن اتخاذه قلعة للتحصن فيه عند الحاجة.

ومما يجب تذكره عند الحديث عن المعمار الديني هذه المقابر التي تعود إلى القرن الثاني للميلاد والتي تكاد تحيط بمدينة القدس (إلا في الجهة الشمالية الغربية). فهناك آثار محفورة في الصخر، وهناك قبور مبنية تحت الأرض، والنواويس المستعملة مزخرفة زخرفة غنية بالنباتات والأشكال الهندسية. والأصل في العمل الروماني الاتساق[١٩١].

عُرِف عن الرومان أنهم كانوا رجال قانون، وهذا يتضح في الذي قام به جستنيان في مدونته، كما كانوا رجال عمل مع كثير من الإقدام والتخيل. وهذا يتضح في الطرق التي بنوها وفي الجسور التي أقاموها إتماماً لعمل الطرق. يُضاف إلى هذا البوابات التي شادوها مداخل للمدن وأقواس النصر التي رفعوها احتفاء بانتصار، كبير أو صغير، أو حتى مُتخيَّل. ولعلَّ أكثر الموجود من

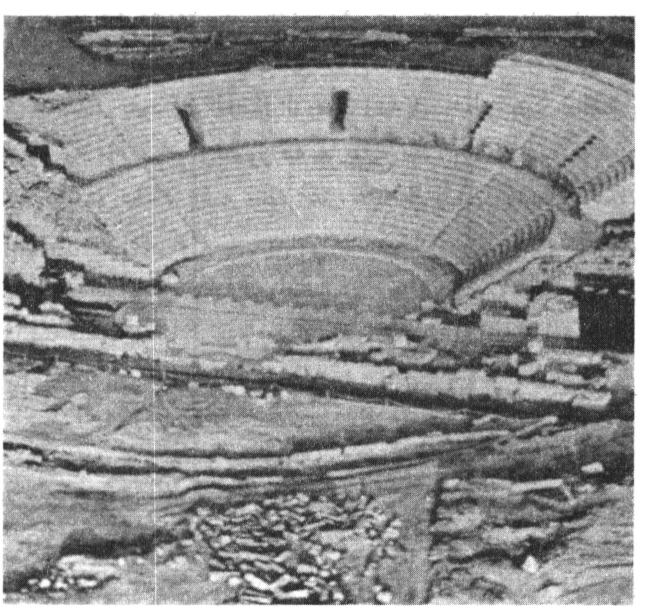
هذه في فلسطين يعود إلى عهد الأنطونين (١٣٨ ــ ١٨٠)، في بيت المقدس، (على أن أمثلة أخرى موجودة في جرش وتدمر وبُصرى، وتعود إلى الوقت ذاته). وقد أشرنا من قبل إلى الطرق الرومانية في فلسطين، فلنشر الآن إلى القِنَى (الحنايا) التي كانت تحمل المياه من الينابيع أو الآبار إلى المدن، إما إلى صهاريج تحفظ المياه فيها للتوزيع أو إلى سبل تقام في الشوارع والأسواق ليفيد منها الناس مباشرة أو إلى الحمامات العامة. وهذه وجدت في المدن الكبرى في فلسطين (وفي غيرها) كما وجدت حتى في أماكن صغيرة مثل بيت يارح (الكرك) على مقربة من بحيرة طبرية، (قرب سمخ). أما تخطيط الحمام العام فهو أمر معروف ــ يخلع المرء ثيابه في غرفة، وينتقل بعد ذلك في غرف تختلف حرارتها ارتفاعاً حتى الغرفة الساخنة، ويعود تدريجاً إلى الغرفة التي بدأ منها. ولعلّ من أغرب ما وصلنا من أخبار الحمامات تلك التي وضعها هيرودس في مسّادة. إذ روي أنه كان فيها ستة حمامات تزودها بالماء آبار تتسع لأربعين ألف متر مكعب من الماء، كانت تجمع من منطقة واسعة لا يتجاوز سقوط المطر فيها ٨٠ مـم في السنة.

ومما عرفته فلسطين (وجوارها) على أيدي اليونان ــ الرومان هو المسرح وما يشبه ذلك من الأبنية التي كانت تتم فيها الاحتفالات العامة. والذي بلغته معرفتنا أنه لم يكن ثمة مدينة لم يُبْنَ فيها مسرح. والمسرح كان يُستعمل لتمثيل مسرحية كلاسيكية أو لتمثيلية هزلية. وجميع المسارح التي عُثر عليها في فلسطين (وسوريا) هي رومانية النمط: في كل منها رقعة مرتفعة للأوركسترا، ومسرح للتمثيل، ومقاعد مصففة للجمهور. وقد يختلف مسرح عن آخر قليلاً لكن الشكل العام هو نفسه. والمسارح كانت دائمة الاستعمال على ما نعرفه عن مسرح قيصريّة (فلسطين) الذي بناه هيرودس مع المدينة، لكنه أُصلح مرتين على الأقل. ومع أن المألوف أن يكون للمدينة مسرح واحد، فلم يكن ما يمنع أية مدينة من أن يكون لها مسرحان، مثل بيت المقدس الرومانية (إيليا كابيتولينا) والبتراء وتدمر. أما جرش فقد كان فيها ثلاثة مسارح اثنان في المدينة والثالث خارج السور قرب البركة، وهذا كانت تُمثّل فيه مشاهد متعلقة بالألعاب المائية. والذي نعرفه عن المسارح أن الفنانين كانوا حريصين على زخرفتها. وواجهات المسارح في سوريا كانت لها زخرفة محلّية الطابع وكانت من أغنى ما عُرف في العالم الروماني ــ من حيث زخرف تيجان الأعمدة والجدران الجانبية والمداخل والأبراج الصغيرة التي كانت توضع على جانبي رقعة التمثيل.

ولم يهمل البناء المنازل الخاصة. لكنه، في تنفيذ مخططه لم يكن يفرّق بين الأسلوب اليوناني والأسلوب الروماني في البناء والزخرفة. ولعلّ ذلك يعود إلى أن منطقة البحر المتوسط، والشرقية خاصة، كان لها دوماً تخطيط معروف مقبول من أقدم الأزمنة. والذي اختلف، مع مجيء اليونان ثم الرومان، تفاصيل جزئية وأمور زخرفية لم تكن تؤثّر على تخطيط المنزل. وهذا التخطيط يقوم على أساسين اجتماعيين: الأول أن يحافظ على خصوصية سكان المنزل، والثاني أن يمكن الحصول على الحاجة الماسة من التهوية أيام الصيف. لذلك كان الداخل إلى المنزل لا يدخل من الباب رأساً إلى الساحة التي تحيط بها الغرف، بل كان ينتقل من مكان إلى آخر بحيث يجد نفسه في المكان المناسب له، دون أن يزعج أهل المنزل. وقد يُبنى المنزل بحيث يتكون من قسمين ــ الواحد يتصل بالخارج بسهولة، والآخر يكون لأهل البيت. وهذا طبعاً لا يتيسر إلا للأغنياء. أما الزخرفة الكبرى في الداخل فهي استعمال الأعمدة على غرار التخطيط اليوناني أو ترك «الليوان» (الساحة الداخلية) واسعاً على طريقة المشارقة.

أما منازل الحكام فيمثلها في فلسطين ما بناه هيرودس من قصور، وهي لم تكن منازل فحسب، بل كانت قلاعاً وحصوناً. ومن هنا فإن التحدث عنها هو تحدث عن البناء العسكري أو العام. وقد أشرنا إلى ذلك من قبل[١٩٢].

وقد أقبل الفنان الفلسطيني ــ السوري على النحت محاولاً الإفادة من مهارة اليونان، الذين لم يجارهم قوم في مقدرتهم على استعمال الإزميل لإخراج التمثال الجميل من الحجر. ومن



مسرح قيصرية الروماني

الطبيعي أن تكون النماذج الأولى التي عُثر عليها قطعاً مستوردة كتلك التي عُثر عليها في مخميش Makmish شمالي يافا وفي تل الصافي (جت الفلسطية القديمة قرب غزة). على أن النحات الفلسطيني ـ السوري تعلم استعمال الإزميل في وقت مبكر نسبياً على ما يبدو هذا في نواويس صيدا الحجرية (القرن الرابع قبل الميلاد)، ثم في تمثال الراقص الذي عُثر عليه في قيصرية. وعندنا تمثال تيكي Tyche إلهة الحظ، الذي نُحِتَ أول ما نُحِت في المنطقة في أنطاكية. ثم أقبل عليه النحاتون لأن كل مدينة أو حتى قرية أرادت أن يكون لها ‹إلهة حظ›. ومن أجمل الأمثلة لإلهة الحظ التمثال الذي عُثر عليه في عكا. والأصل في التمثال الأنطاكي أن إلهة الحظ كانت تجلس على صخرة مع غلام، يمثل نهر العاصي، يجري تحت قدميها. فلما كان النحات من عكا فقد استعاض عن العاصي بنهر النعامين الذي يجري على نحو كيلومترين جنوبي عكا. ومع أن تمثالين وجدا في أماكن كثيرة في سوريا وهما تمثالا زفس Zeus وأرتميس Artemis، وأن مدناً فلسطينية دون شك عُنيت بهما، فإن التنقيب الأثري لم يكشف لنا بعد عن أي منهما في فلسطين.

وكان للرسم دور في الأعمال الفنية في فلسطين. وأكثر ما عُثر عليه كان في المقابر البعيدة عن تأثير الجو الذي لا يساعد على بقاء الألوان على حالها. ومن أقدم النماذج التي وصلتنا رسم جنائزي من مَريسة (تل صندحنّة) مرسوم على طول القبر وفيه صورة لمنظر صيد وموكب لحيوانات فيها فيل ووحيد قرن وزرافة وسلسلة من الحيوانات والأسماك الأسطورية (مثل ثور له وجه إنسان بلحية وفيلة ـ أسماك). وفي قبر مجاور عثر المنقبون على موسيقيَين مرسومين بأسلوب فني جميل. وقد وقع المنقبون على قبر في عسقلان يعود إلى العصر الروماني وفيه رسم لحوريّتين جالستين قرب نبع ماء صافٍ والصُّوَرُ فيه لها طابع مصري، إذ السقف تبدو فيه نباتات نيلية. وثمة رسم عثر عليه في نهاريا (شمالي عكا) يُظهر رجلاً وامرأة وبينهما هايمن Hymen وهو إله الزواج عند اليونان. وحري بالذكر أن البتراء وتدمر ودورا أوروبوس (الصالحية) زودتنا برسوم ملونة كثيرة، لأن المناخ الجاف هناك ساعد على أن تحتفظ الرسوم بألوانها.

وسوريا غنية بالفسيفساء، وهي وشمال أفريقيا وخاصة تونس، تعدُّ الأغنى في الفسيفساء بين الولايات الرومانية وخاصة في القرن الثاني للميلاد. والفسيفساء صعب تركيبها، والتمزيك فن يحتاج إلى مواد جيدة وأيد ماهرة. ولأن فلسطين لم تكن مستقرة تماماً في القرن الثاني فإن ما عثرنا عليه من الفسيفساء فيها قليل، بالنسبة للفترة الممتدة من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث للميلاد. فعندنا الأرض التي كساها هيرودس بالفسيفساء في مسّادة، وفيها مزيج من الفن الهلينستي والجهد المحلي. والقطعة التي عُثر عليها بعد ذلك تعود إلى القرن الثالث للميلاد، وقد كانت في بيسان، وفيها مناظر من نباتات النيل.

وبعد ذلك تصبح الفسيفساء، في فلسطين والأردن وسوريا شيئاً يُستعمل في زخرفة الكنائس، وهو عندها كثير.

والمصنوعات الفنية المعدنية والخشبية كانت تنتج في سوريا على مستوى لم يُجارها فيه سوى رومة نفسها. لكن المعادن والخشب تتلف بسرعة، بحيث أننا لم نعثر إلا على القليل حتى في سوريا بالذات. أما القطع الزجاجية الفنية والفخاريات فقد عثر على قطع متفرقة منها هنا وهناك. ولكننا لا يمكن أن نترك هذا البحث دون أن نشير إلى ما كان يصنع في البتراء من الفخار، الذي كان رقيقاً إلى حد الشفافية(١٩٣).

٦ ـ الفنون والبناء (من القرن الرابع إلى القرن السابع):

أصبح واضحاً، حوالي سنة ٣٠٠ للميلاد، أو بعد ذلك بقليل، أن المسيحية، هذا الدين الجديد، نمت وترعرعت في إطار اجتماعي ثقافي روماني. لكن الذي كان لا يزال ينمو هو تنظيم الكنيسة لا على أنها مؤسسة تتكوَّن من أتباع للدين الجديد، ولكن على أنها مؤسسة بحاجة إلى إدارة ذات حدود واضحة. ومرسوم ميلان، الذي أصدره قسطنطين بالاتفاق مع شريكه في الحكم ليسنيوس، اعترف بالمسيحية ديناً من أديان الامبراطورية الرسمية. لكن من الناحية العملية، وخاصة منذ أن انفرد قسطنطين بالحكم سنة ٣٢٤، كان تصرف قسطنطين، في الواقع، احتضاناً رسمياً للمسيحية. وكان قد بدأ من حيث التنظيم الإداري في الكنيسة وسار بخطى حثيثة فيما تبقى من حكم قسطنطين (إلى سنة ٣٣٧م) واستمر بعد ذلك، بحيث اقتبست الكنيسة النظام الإداري الامبراطوري على وجه العموم. ولما اتخذ قسطنطين موقفه من أنه رأس الكنيسة المدني، وضع قاعدة يسير عليها الأباطرة من بعده. وكان من الطبيعي أن تتبع أمور أخرى هذا الترتيب أو فكرة الانتظام على الأقل. وفي مقدمة هذه الأمور الليتورجيا Liturgia ومكان العبادة. والليتورجيا هي جماع ما يقوم به الكاهن من جهة والجماعة المتعبدة وقت إقامة القداس من جهة أخرى. ويدخل في عدادها صلوات معينة تُتلى وقانون يُقرأ ونصوص تُشرح ومشاركة في أعمال أُخرى. هذه كانت، من قبل، تختلف بعض

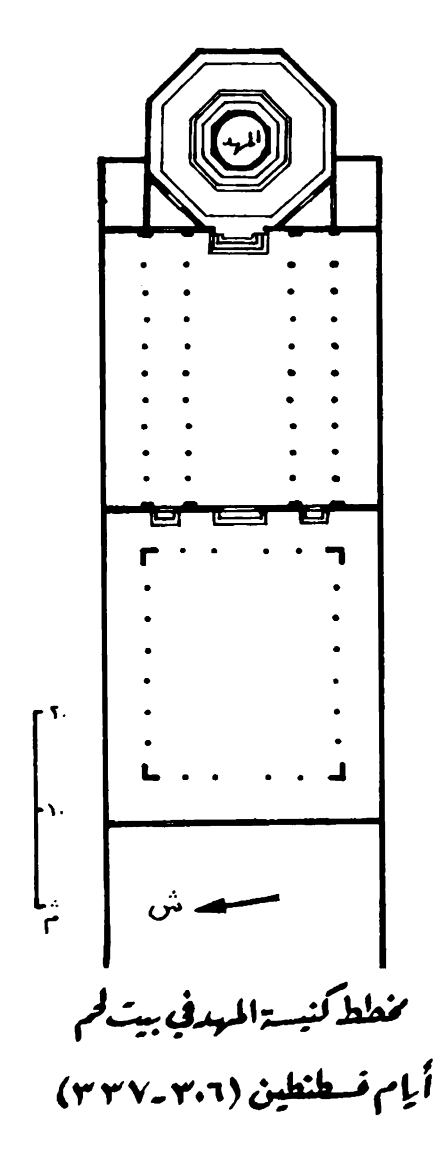
الشيء، فجاء مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، الذي دعا إليه الامبراطور، ليبحث هذه القضايا (إلى جانب البدعة الآريوسية). والقرارات التي اتُّخذت حول الليتورجيا مهدت الطريق نحو تثبيتها بحيث يمكن القول ان المسيحيين في الامبراطورية الرومانية (باستثناء من كان يتبع بدعة) كانوا يتبعون نظاماً واحداً (ليتورجيا).

وكان لا بد من البحث عن مكان العبادة. وكان أكثر الاجتماعات الدينية إلى أواخر القرن الثاني وحتى أوائل الثالث، يعقد في منازل ليست معدة للعبادة. وكان المؤمنون يبحثون، ولو بشكل غير رسمي، عن شكل المكان المناسب لمثل هذه الأمور.

كان هناك نوعان من الأبنية معروفان في العالم الروماني: الأول الهيكل الوثني بكل ما فيه من إتقان في البناء وزخرفٍ وسَعة. والثاني هو الباسيليكا، وهي مبنى واسع مستطيل الشكل، مكوَّن من جزء أساسي هو إيوان عريض في الوسط وعلى جانبيه ليوانان أضيق منه، ولكن يتفقان معه في الطول. الأول كان مبنى للعبادة الوثنية، أما الثاني فكان مبنى أقرب إلى مجال الاجتماعات الاقتصادية والمعاملات المالية والسوق. وما كان المسؤولون عن الكنيسة المسيحية يفتشون عنه كمكان للعبادة كان يجب أن يحقق أمرين: الأول أن يظهر فيه ما يدل على أنه مكان للعبادة الجديدة وليس مكاناً لعبادة شبيهة بالعبادات القديمة. فالهيكل الوثني كان يبدو لهؤلاء الناس كأنه يشير إلى وجود «الإله» من طرف خفي. لكن الذي كان يريده المسؤولون هو مكان أشبه، بقدر الإمكان، بالمعبد الشرقي الذي يشعر فيه المرء بوجود الإله (وهو الآن الله). والأمر الثاني هو أن يكون هذا المكان مما يمكن أن يقسم قسمين: الواحد يقوم به رجل الدين (مهما كانت رتبته) بفروض الصلاة، والآخر، وهو الأكبر طبعاً، يوجد فيه المصلون. فرجل الدين يُعدّ بضعة أمور طقسية في الداخل ثم يخرج ليقدمها إلى المصلين.

في هذا الإطار لم يكن الهيكل القديم يصلح. (ولعلّ المسيحيين كانوا يرون حرجاً في أن يلجأوا إلى هيكل وثني يعبدون فيه الله). أما البناء الآخر، الباسيليكا، فهو من حيث اتساعه، ومن حيث إمكانية توسيعه، ومن ثم تقسيمه يصلح لِيُطوَّرَ مكاناً للعبادة. وهو، أي الباسيليكا، بناء معروف في الامبراطورية، وغير مرتبط بأي من الشؤون الدينية. فالذي نظر اليه المسؤولون في الاختيار هو وظيفة البناء لا فنه المعماري أو زخرفه. وهذا الاختيار لم يتم في فترة وجيزة. إذ لم يصدر بذلك قرار معين، ولكن التجربة هي التي أدت إلى ذلك. والذي يجب أن يقال هنا هو أن الكنيسة قبلت فكرة الباسيليكا، لكنها لم تنقلها عن نموذج روماني عام أو محلّي معيّن، بل كانت في اختيارها قد استعملت هذا الإطار المعروف لوظيفة جديدة. فنحن قبل سنة ٣٥٠ لا نعرف باسيليكا مسيحية. ولكن بعد ذلك التاريخ أخذت الكنيسة نفسها ببناء ما يمكن تسميته باسيليكا مسيحية[١٩٤].

هذه الخطوة أو الخطوات، لأنها تمت في أماكن مختلفة وفي أوقات متباعدة نسبياً، كان المقصود منها بناء مكان للاجتماع ــ للعبادة ــ لإقامة القداس. لكن قسطنطين، الذي تأثر بالزيارة التي قامت بها أمه، الامبراطورة هيلانة، لفلسطين سنة ٣٢٥ ــ ٣٢٦، وبرغبتها في أن تبني كنائس في الأماكن التي عرفت المسيح، بذل قصارى جهده في القيام بذلك. وكان هو قد زار فلسطين وهو بعد ضابط في الجيش، فكانت تلبيته لطلب أمه



مخطط كنيسة المهد في بيت لحم
أيام قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧)

متفقةً مع موقفه الجديد من المسيحية. وكان المقصود أن تُبنى الكنائس على اعتبار أنها (مشاهد مقدسة)، والأماكن التي وقع عليها الاختيار، والتي أشرفت هيلانة فيها بعد على بناء الكنائس فيها بنفسها هي: المهد في بيت لحم والقيامة في بيت المقدس (داخل المدينة) وكنيسة الصعود في جبل الزيتون (خارج بيت المقدس) وكنيسة في مدينة الخليل.

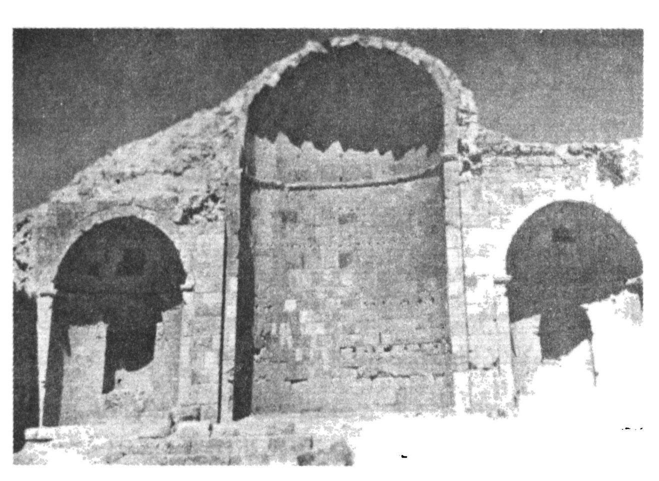
ولم يكن ثمة أساس أو قاعدة لتخطيط هذه الكنائس ولا لغيرها من الكنائس، فالتخطيط والقواعد من أعمال النصف الثاني من القرن الرابع والقرن الخامس. ولكن بالنسبة لكنيستي بيت لحم (المهد) وبيت المقدس (القيامة) فالذي اختير هو مزيج من مخططين ليخدما غرضين متلازمين: الأول أن يقوم مشهد على المكان المقصود، وهذا اختير له بناء مدوّر تعلوه قبّة، والثاني مكان للعبادة، وهذا اصطُلح على أن يكون باسيليكا. والذي نعرفه

مخطط كنيسة المهد في بيت لحم كما تطورت بين سنتي ٥٦٠-٦٠٤

هو أن كنيسة القيامة بالذات اختير لتنفيذ العمل فيها شخصان: مهندس سوري اسمه زينوبيوس Zenobius ورجل دين من شيوخ الكنيسة أُرسل من القسطنطينية اسمه يوستاثيوس Eustathios. وقد استغرقت كنيسة القيامة نحو إحدى عشرة سنة لإنهائها (٣٢٥ ــ ٣٣٦م). ولما حان الوقت لتكريسها أمر الأساقفة الذين كانوا يحضرون مجمعاً (محلياً) في صور أن يتجهوا إلى بيت المقدس كي يشاركوا في الاحتفال بهذه المناسبة. أما كنائس المهد وجبل الزيتون والخليل فقد بُنيت في السنوات نفسها تقريباً، إلا أن كنيسة المهد وحدها هي التي اتّبع فيها التخطيط الذي سارت عليه كنيسة القيامة. لكن ما لا يمكن التأكد منه هو هل وضعت الخطة كاملة من الأصل، أم أنها تطورت مع أعمال البناء؟

وفي النصف الثاني من القرن الرابع، أي بعد وفاة قسطنطين، بُنيت في فلسطين كنائس أخرى واتّبع في بنائها قواعد مختلفة. فهناك الكنيسة المصلَّبة أي التي لها أربعة أطراف، واحد منها أطول من الثلاثة الباقية، ومن هذه كنيسة يودوكية التي بُنيت في غزة سنة ٤٠٢ بعد هدم الهياكل الوثنية. وهناك كنائس بُنيت على شكل مستدير تعلوه قبة. وهناك كنيستان مثلاً بُنيتا على شكل مضلع تعلوه قبة: الواحدة قبر السيدة العذراء في شرقي بيت المقدس والثانية كنيسة السيدة العذراء التي بناها الامبراطور زينون (٤٦٧ ــ ٤٩١) على جبل جرزيم وذلك بعد انتصاره على ثورة السامريين، التي قاموا بها ضده (سنة ٤٧٤).

من هذا يتضح لنا أن الكنائس التي بُنيت لم تكن لها خطة واحدة، وكان ذلك طبيعياً. وحتى ما بني في أيام قسطنطين بالذات اختلف في تخطيطه. ويبدو أنه كان ثمة اعتراض، ولو من طرف خفي، على إرسال خارطة لبناء كنيسة القيامة من القسطنطينية،



جزء نصف دائري من كنيسة شيفتا Shivta

ورئي أن أهل البلاد قد يكون لهم رأي. لذلك لما آن الوقت لبناء الكنيسة في الخليل طلب قسطنطين من عدد من الأساقفة المحليين أن يجتمعوا ويقرروا تخطيطاً للبناء[١٩٥].

قبل نهاية القرن الرابع كانت التجارب التي مرت بها المباني الكنسية والاختراعات التي وصل إليها البناؤون ورجال الدين ومولو الأبنية قد انتهى أمرها. وكأن الامبراطورية على سعتها اهتدت إلى ثلاثة أطر لبناء الكنائس في مناطق ثلاث. أما المناطق فهي الغرب بأكمله، ويكاد يشمل القسم الغربي الذي فُصل عن الشرقي سنة ٣٩٥م ليكوّن الامبراطورية في الغرب. أما القسم الشرقي فقد شطر نفسه إلى شطرين الواحد تكوّن من الأجزاء الساحلية التي تبدأ بالبلقان وآسيا الصغرى وتمر بالساحل الشامي وتشمل مصر. والثاني شمل ما يمكن تسميته الأجزاء الداخلية مما تبقى من الامبراطورية. والذي يهمنا هو الساحلي بالنسبة لساحل فلسطين وجزء من القسم الداخلي لما تبقى من فلسطين وسوريا.

في حدود هذه الأقسام أخذت الكنيسة نفسها بأسس وقواعد للبناء اعتُمد فيها أمران: التراث الفني والفكري الذي كان سائداً من قبل؛ وفي منطقتنا كان التراث الهلينستي هو السائد بفنونه وبنائه وتنظيمه. والأمر الثاني المهارة الفنية الموجودة والمواد البنائية التي يُمكن الحصول عليها. لذلك فقد كان من الممكن أن تختلف كنيسة في غزة عن كنيسة تبنى في بيت لحم مثلاً. وقد توحدت، إلى درجة كبيرة، وفي إطار المناطق المذكورة الأسس المطلوب اتباعها، ونماذج الأبنية، ودخلت فكرة التجانس في العمل كله.

من هنا أصبحنا نجد أن كنائس القرى أو الكنائس الصغيرة في المدن يغلب عليها شكل الباسيليكا: تخطيطها أسهل وتنفيذ العمل فيها أيسر والنفقات أقل من أي بناء له شكل آخر. وفي الكنائس الكبرى ــ الكاتدرائيات ــ التي يكون فيها مكان خاص لإجراء المعمودية يكون بناؤه مثمّن الأضلاع. وهكذا اتُّخذ لكل نوع من الوظيفة الكنسية بناء يتناسب معها في إطار الكنيسة العام وتخطيطها الشامل. هذا مع العلم بأن كل مدينة أو حتى قرية يمكنها أن تضيف أو تعدّل في حدود معقولة. ومع أن قراراً لم يصدر حول هذا الموضوع فإن مؤرخي البناء الكنسي يكادون يجمعون على أن هذا الأمر بدأ حوالي سنة ٣٨٠ واستمر خلال القرن الخامس وفي بعض الحالات حتى القرن السادس.

ويدخل هنا، بالنسبة لفلسطين بناء الأديرة. فالنظام الذي غلب على الرهبنة في البلاد كان الأديرة التي يقيم الرهبان فيها مجتمعين (كل راهب في غرفته أو قلّايته كما تُسمى أحياناً) ويجتمعون في أوقات الصلاة والطعام. ويحتوي الدير جميع ما يلزم للرهبان. والبناء الذي أصبح هو المعوَّل عليه البناء المربع أو المستطيل ذو السور القوي المحيط بالدير (مثل دير مار سابا قرب بيت المقدس ودير جبل الطور قرب الناصرة). ومع أن كثيراً من الأديرة أقيم خارج المدن أصلاً، فهناك أديرة بُنيت داخل المدن حتى في القرن الرابع، على ما مرَّ بنا عن بيت لحم وجبل الزيتون.

ومن المناسب، أن نضع هنا شرحاً عاماً لما تم في سوريا في الفترة الممتدة من حوالي سنة ٤٠٠ إلى حوالي سنة ٦٠٠، لأن هذا يمكّننا من تفهم ما سنذكره عن فلسطين.

كانت سوريا غنية بزراعتها وتجارتها، لذلك تمكنت من مجاراة ركب الحضارة على نحو ما تم لها من قبل. والعمران تبدو آثاره واضحة في البناء والفن. ومن المهم أن نقرر هنا أن هذا الفن كانت له شخصيته المميزة، فقد تمكن من مزج العناصر اليونانية والرومانية والسامية القديمة وخرج منها وقد تمكن من خلق أمور جديدة. وقد أظهر سكان البلاد السورية مهارة فائقة في البناء وتنويع ضروبه والزخرف وتشكيل فنونه، والفسيفساء أو «التمزيك». ومن المقبول عند أكثر المؤرخين أن جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥) استخدم صناعاً سوريين في زخرفة كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية.

وبرز في الأبنية في سوريا التي كانت قائمة في ذلك العهد العمود اليوناني والطراز الباسيليكي في بناء الكنائس، مثل دير نُوى (شمالي دمشق) وقلعة سمعان العمودي (على مقربة من حلب). لكن هذه الأعمدة كانت ترتكز عليها في كثير من الأبنية قبّة هي التي أخذها البناؤون أصلاً من الشرق. وفضلاً عن ذلك فإن الزخرف شرقي؛ فأوراق الشجر والزهور وعناقيد العنب والأثمار والحيوانات البرية تكوّن العنصر الأساسي في الزينة.

ولا شك أن الفسيفساء التي ترجع إلى هذه الفترة (وما قبلها نسبياً) هي من أروع ما وجد. أما البناء فقد تنوع، ففضلاً عن القلاع والحصون كان هناك الفيلّات villas، وهي مساكن الأغنياء التي تقوم في أملاكهم في الريف، ومنازل القرى والمساكن في المدن. لكن الأبنية التي تستحق الذكر من الناحية الفنية هي الكنائس الباسيليكية وغيرها والمقابر الرسمية والعائلية وما فيها من زخرف ونقوش خارجية وداخلية. وهناك بقية من هياكل وثنية.

وفي شمال سوريا بقايا مدن وأبنية ترجع إلى الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى السادس، هي التي يسميها المؤرخون «المدن الميتة». في هذه المدن:

«آثار على جانب عظيم من الأهمية. ففي ناحية تكاد تكون قفراء كانت تقوم مدن بواجهات كنائسها وكاتدرائياتها وأبراجها وأروقتها وسقوفها وحوانيت أسواقها ومخازنها وحماماتها وأديرتها الكبيرة وفنادقها وقبورها الجميلة ذات الشكل الهرمي أو المقبب، وهي ما تبرح مزدانة بنواويسها.

«وهذه (المدن الميتة) تكسو البلاد الجبلية بأسرها في غربي حلب وجنوبها الغربي. ولكن أروع هذه الآثار كلها هو، ولا نزاع، المعبد الكبير المشيّد لمار سمعان العمودي وهو أعظم الأبنية المسيحية للفترة الأولى. فمساحته تبلغ ٣٨٤٠م مربعاً ويقوم في وسطه العمود الذي صرف عليه القديس حياته التكفيرية (٤٢٩ ــ ٤٥٩). وقد بُني المعبد حول العمود، وهذا يقع في مركز ساحة مثمنة الزوايا مكشوفة يبلغ قطر دائرتها ٢٨م. وفي كل من جوانب هذا المثمن المواجهة للجهات الأربع يقوم معبد، بحيث يبدو البناء في مجموعه بشكل صليب كبير يتألف كل من فروعه من كنيسة، وتلتقي الفروع في الساحة الوسطى المثمنة الزوايا.

«وأجمل الأبنية المسيحية في سوريا الشمالية بعد معبد مار سمعان العمودي، هو معبد (قلب لوزة) الذي شُيّد في القرن السادس للميلاد. ويتألف من ثلاثة صحون تحيط بالأوسط منها أعمدة ثقيلة مربعة الزوايا تدعم أروقة مقببة يقوم فوقها جدار فتحت فيه نوافذ قائمة الزوايا... ويلاحظ أن المهندسين السوريين أخذوا ببناء رواق مفتوح الجوانب يعلوه سطح ويحيط به برجان، يقيمونه أمام المدخل.

«أما النماذج الجميلة للقبور فمنها قبور الهرمل عند منابع العاصي. وآثار قبور نقلت من تدمر ويمكن رؤيتها اليوم في المتحف الوطني بدمشق، وهي كل ما بقي من ضريح يرهاي الشري التدمري الذي عاش في القرن الثاني للميلاد»[١٩٦].

هذه الأبنية الكنسية التي مر بنا ذكرها في سوريا كان لها تأثير في البناء الكنسي في فلسطين بحكم الجوار وبحكم مهارة الصانع السوري. لكن الأمر الذي كان له تأثير أكبر في الشكل الذي اتخذته الكنيسة المبنية في فلسطين كان تأثير القسطنطينية، الذي كان أكبر من تأثير جميع البلاد المجاورة. فالقسطنطينية دأبت على تزويد فلسطين بالأموال لبناء الكنائس. وهو التقليد الذي استنّه قسطنطين. وعندنا على ذلك أمثلة كثيرة منها: (١) الكنيسة التي بُنيت في غزة (٤٠٢م) على تخطيط مصلّب. فقد أرسلت الامبراطورة يودوكية خارطة للكنيسة ومعها ٣٢ عموداً من الرخام اليوناني الأخضر. ثم زارت غزة والكنيسة تبنى. (٢) كنيسة الأنبياء والرسل والشهداء في جرش (سنة ٤٦٥م) بنيت مصلبة على أساس طلب من العاصمة. (٣) بين سنتي ٤٤٠ و ٤٦٠م كانت الامبراطورة يودوكية منفية على ما يبدو في فلسطين وهناك بنت كنيسة في غزة لذكرى أسطفان، أول شهداء المسيحية، وهي باسيليكية لكن الإضافات عليها كثيرة.

وقد أسهمت فلسطين في تزيين أرضية الكنائس بالفسيفساء. فقد اكتُشفت أرض كنيسة قرب البصة بفلسطين كانت تُزيّن بالفسيفساء كلَّ مرةٍ كان يُعاد بناؤها بين سنتي ٤١٥ و ٤٩٢. وفي قبة راحيل، قرب بيت المقدس، توجد فسيفساء جميلة. وهناك كنيستان تعودان إلى القرن الرابع والقرن السادس اكتشفتا في كرنب في النقب، وكذلك كنيسة الطابغة (كفرناحوم) على بحيرة طبرية. وليس من شك في أن كنائس الأردن غنية جداً بالفسيفساء. وكنائس جرش ومادبا مثل على ذلك، وفي الثانية خارطة فلسطين والبلاد المجاورة.

وتمثل كنائس فلسطين والأردن التي تعود إلى الفترة التي نتحدث عنها هذا المزج المحكم بين رؤية البنّاء الإيجي والبنّاء الذي يأتي من داخل البلاد. فكنائس جرش التسع، وجميعها مؤرخة موثقة بالنقوش، ترينا أثر الكنيسة الإيجية واضحاً إلى حوالي سنة ٥٠٠، وتأتي بعد ذلك روح البناء القادمة من الداخل[١٩٧].

ومن هنا ننتقل إلى درس عصر جستنيان وأثره في المباني الفلسطينية الدينية.

كان جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥م) بنّاء على نطاق واسع. وأول ما عُني به هو هذه الحصون والقلاع التي أقامها ليجعل طرق القوافل آمنة وإلا خسر جزءاً كبيراً من أرباحه التجارية، خصوصاً وأنه كان من كبار المحتكرين. وبعض هذه الأماكن الدفاعية كانت كبيرة. فهناك مثلاً قصر ابن وردان في بادية الشام، فهو مجمّع محصّن مكوّن من ثلاثة مبان: ثكنة محصنة وفيها المخازن؛ والكنيسة، وقصر الحاكم أو الأمير. وقد كان في الرصافة، على مقربة من الفرات في سوريا، كنيستان تعودان إلى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلاديين، وواحدة فيهما مسماة على اسم القديس سرجيوس. وجاء جستنيان وأحاط الكنيستين والبلدة بسور ارتفاعه اثنا عشر متراً، مقوّى بأبراج. وكان داخل هذا السور دير كبير يقطنه الرهبان أو يأوي إليه الحجاج أو يخدم الغرضين معاً. وفي النقب وجدت كنائس ثلاث في سبّيطة وكنيستان في عبده وثلاث في كُرنب. ولعلّ بعضاً من الأبنية الملحقة بأي من هذه كانت مكاناً يأوي إليه التجار.

لكن جستنيان البنّاء اشتهر لأنه بنى آيا صوفيا في القسطنطينية. وبناء هذه الكنيسة العظيمة كان إيذاناً بإدخال هندسة كنسية جديدة في العالم الشرقي (الغرب ظل على باسيليكته) وهي التي تقوم على عقود وأقبية جانبية وتتوّج البناء قبة ضخمة مزخرفة بكل ما يخطر على بال فنان[١٩٨].

وقد رأى جستنيان أن ينشر هذا التخطيط الفني الجديد، فكان لكنيسة القيامة والمهد نصيب، كما بنيت كنائس جديدة في أماكن في فلسطين كان أهمها كنيسة القديس سرجيوس وكنيسة القديس أسطفان في غزة. ولم يبق لهما أثر لكن أحد أساتذة مدرسة غزة كوريكيوس، خلّف وصفاً لهما هو غاية في الدقة وآية في البلاغة.

كانت غزة، في أوائل القرن السادس للميلاد، شأن المدن الكبيرة الفنية في الامبراطورية البيزنطية، مدينة تزهو بما تعج به من تجار وزوار كانوا يتجولون في شوارعها المعمّدة، وينعمون بحماماتها العامة، ويمتّعون النظر بأبنيتها الإدارية الفخمة، ويقلبون الكتب في مكتبتها الغنية، ويستريحون في حدائقها الأنيقة، ويتسلّون في مسرحها الجميل ويختتمون يومهم بزيارة المسبق حيث يتسابق أبطال الركض ورفع الأثقال وما إلى ذلك.

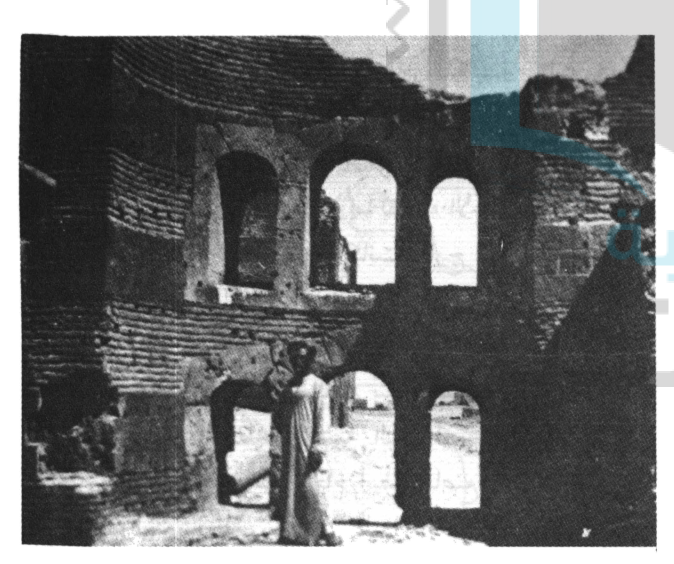
هذه الأبنية لم تكن جديدة على غزة، ولا على غيرها، حتى قبل عقود من السنين أو قرنين في بعض الحالات. ولكن الذي كان جديداً هو الكنيسة المسيحية. هذه كانت قد أخذت تزين المباني العامة منذ نحو القرنين في كثير من مدن المشرق، لما اعترف قسطنطين بالمسيحية وأصبح لأتباعها الحق في أن تقوم لهم بيَعٌ في المدن ــ كبيرها وصغيرها ــ وفي القرى.

وقد مرّت الكنيسة بتجارب كثيرة حتى استقرت، كما رأينا، على شكل هو الذي شاع في المشرق. وغزة، لما وصلت إليها الكنيسة الأولى (٤٠٢م)، وصلتها كنيسة مصلّبة. لكن لما آن لها أن تكون لها كاتدرائية، في أيام الامبراطور البنّاء الكبير جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥)، كانت هذه قد أصبح الجزء الهام منها قبتها التي تمثّل العمل الفني الكبير. وعلى كل فعندما كان يُعهد إلى «بنّاء» بإقامة كنيسة كان يشعر دوماً بأنه يقوم بمغامرة. ذلك لأن الفكرة بكاملها كان يجب أن تنشأ في ذهنه صورة ومخططاً، وأن تتطور في عقله شكلاً، وأن تعمل يداه وعقله في تنفيذها كنيسة على الأرض. «فالبنّاء» لم يكن لديه، كما أُتيح لخلفائه في مهنته، كتب وقواعد ودراسات واستشارات يعود إليها لتساعده في المخطط والصورة والتنفيذ. صحيح كان ثمة معرفة رياضية متقدمة، و«علم» ميكانيكي متعارف عليه، لكن بناء الكنيسة ــ آيا صوفيا في القسطنطينية أو كنيسة القيامة في القدس أو كاتدرائية القديس سرجيوس في غزة ــ كان عملاً جباراً عقلياً وإدارياً وعاطفياً وعملياً.

والبنّاءان، أو المهندسان، اللذان عُهد إليهما ببناء كاتدرائية غزة هما إيزيدوروس Isidorus وانثِمْيوس Anthemius. وكلاهما عملا في بناء آيا صوفيا. لكن أيَّ بَنّاء في ذلك الوقت إذا طُلِب منه أن يبني كنيسة، ولو أنه فعل ذلك قبلاً، كان يرى في قبوله الطلب مغامرة تستحق الإقدام عليها. إيزيدوروس كان أستاذاً للهندسة أو الميكانيك وكان ضليعاً من معرفته الرياضية، وله تعليقات وشروح على كتب أرخميدس Archimedes الصقلّي وهيرون Heron الاسكندري. وكان أنثِمْيوس رياضياً معروفاً، وقد وضع كتاباً في الحيل الميكانيكية، لكنه لم يصلنا.

وكما ذكرنا قبلاً لم يبق من آثار أي من الكنيستين الكبيرتين في غزة أي شيء. لكن كوريكيوس Choricius أحد أساتذة مدرسة غزة، حفظ لنا وصفاً لهما. وكان الوصف في الحالتين دقيقاً


كنيسة قصر ابن وردان


قسم من قصر ابن وردان

بحيث يكاد يحس القارىء بوجودهما إلى الآن. ذلك أن الذي بنى، (أي أَمَرَ بالبناء) كاتدرائية القديس سرجيوس هو حاكم فلسطين يومها، واسمه إسطفان Stephen، وأعانه على ذلك مطران غزة يومها مركيانوس Marcianus. ولما تمّ البناء ألقى كوريكيوس «أمدوحة» للمطران، تطرّق فيها إلى وصف الكنيسة، وهذا هو الذي حُفِظَ لنا. والخطبة طويلة، والوصف طويل. وبالرغم من أنه شائق والمجال لا يتسع لنقله كله، لذلك نكتفي بتلخيص بضع نقاط منه.

الكنيسة كانت مصلّبة في مخططها، لكن كانت لها قبة كبيرة تغطي نقطة التقاطع بين أجنحتها. مدخلها من الغرب، فإذا وصلت إلى هذا الصحن الداخلي تحت القبة تظهر لك أصناف الدقة والجمال في المعمار والفن. فالجناحان الممتدان شمالاً وجنوباً مغطاة جدرانها من الخارج بالرخام الذي قُطِع ورُتّب على طريقة تجعل من عروقه الطبيعية لوحات فنية. والقبة، وهي التي كانت من أعاجيب الصناعة، أساسها أعمدة متقابلة تحمل إطاراً مربعاً يرتكز عليه إطار مثمّن الأضلاع هو الذي يحمل القبة المستديرة بدوره. أما الزخرف في الكنيسة فهو مما يحيّر الناظر بين أن يُدهَش أو يُعجَب أو يُشدَه.

فالقبة زخرفتها ذهبية اللون، خلفية وتفصيلاً ــ الخلفية التي تظهر عليها نسور ذهبية أيضاً لكنها مطعّمة باللون الأزرق. لكن الزخرفة الأساسية في الكاتدرائية هي الفسيفساء. الصور المرسومة بها تمثل مشاهد من العهد القديم والعهد الجديد، والتي من العهد الجديد أكثر. وللقارىء أن يتصور هذه المشاهد وقد رتبتها أيدي صنّاع مهرة، كان أكثرهم من المنطقة أو من بقية أنحاء فلسطين وبلاد الشام، بحيث لم تترك هذه الأيدي زيادة لمستزيد.

وقد خلّف كوريكيوس وصفاً آخر للكنيسة الثانية، وهي كنيسة القديس اسطفان. إن كنيسة القديس سرجيوس كانت في وسط المدينة الصاخب ــ مكان السوق حيث يزدحم الناس في محاولة للوصول إلى المباني المختلفة إما لقضاء الأعمال أو للتسلية في المسرح. أما الكنيسة الثانية، فقد كانت خارج المدينة، على طريق بئر السبع من غزة. ومن ثم فإن زائر هذه الكنيسة يُمتّع نفسه بالاقتراب التدريجي منها فيتعرف عليها بتؤدة. ويدخلها، بعد أن يصعد درجاً يؤدي إلى المرتفع الذي بُنيت عليه، فيجد نفسه أمام كنيسة باسيليكية التخطيط، متينة البناء ليس في ظاهرها أي زخرف. وأعمدة المعبر من رخام أبيض ناصع تبهر الأبصار إذا نظر إليها والشمس تلقي أشعتها عليها. ولكن متى دخلها الزائر يدرك مدى التساوق فيها بين الفن والذوق، الأمر الذي تحكم في التخطيط والبناء. وهذه الكنيسة كانت ترتفع فوق صحنها الداخلي قبة ــ لكنها قبة من الخشب.

زخارف الجدران في هذه الكنيسة من الفسيفساء أيضاً. لكن المشاهد هي صور منتزعة من نهر النيل. وقد كانت هذه المشاهد مفضلة لزخرفة الكنائس والمنازل الخاصة. وهذا إرث من مدرسة الرسم الهلينستي الواقعية. ويبدو أن السبب في اللجوء إلى النيل هو تنوع ما يمكن أن يوجد فيه وفي حوضه من أحياء منوّعة. ويقول كوريكيوس بأن نهر النيل نفسه لا يظهر في الصور، ولكن الإشارة إلى وجوده جاءت بما يمكن أن يعطيه للناس وبرسم المروج التي تكسو ضفتيه، والتي تسكنها أنواع كثيرة من الطيور. وهنا كان فنان الفسيفساء (المُمزِّك) يستطيع أن يُطلق لفنه العنان أملاً في أن يجاري تنوع الحياة في نهر النيل.

ويبلغ كوريكيوس الغاية في دقة الوصف وروعة الأسلوب عندما يصف الرخام الذي يوجد في الهيكل الداخلي وعندما يرفع رأسه ليحدثنا عن القبة الخشبية، التي تغطي الصحن الداخلي.

وهكذا فإن ما قلناه من قبل عن سيطرة القبة على بناء الكنيسة من أيام جستنيان ــ بقطع النظر عن المخطط العام ــ آتى أُكله في فلسطين في غزة، ونَعِم الناس بالفن يومها. أما من الأعمال الباقية فكنيسة القيامة (القرن السادس) وكنيسة المهد (معدلة في تخطيطها). وهناك كنائس أخرى في الناصرة وطبرية والطابغة، لكن كلًّا من هذه الكنائس أدخلت عليها إضافات عبر العهود الطويلة(١٩٩).

٧ ــ من جستنيان إلى هرقل:

تولّى العرش البيزنطي بعد جستنيان يوستينوس الثاني Justin II (٥٦٥ ــ ٥٧٨)، وطيباريوس الثاني Tiberius II (٥٧٨ ــ ٥٨٢) وموريس Maurice (٥٨٢ ــ ٦٠٢)، وفوكاس Phocas (٦٠٢ ــ ٦١٠)، وهرقل Heraclius (٦١٠ ــ ٦٤١)(٢٠٠).

كانت الحروب بين البيزنطيين والساسانيين تعنف وتهدأ، وكانت تعقد بين الدولتين معاهدات واتفاقات صلح متعددة لا تلبث أن تُلغى وتقعَ الحروب بين البلدين. وعلى كل ففي القرن السادس وقعت حرب بين الدولتين امتدت من سنة ٥٢٤ إلى سنة ٥٣٣، حين صالح جستنيان الساسانيين كي ينصرف إلى معاركه في الغرب. ولكن نجاح جستنيان أزعج أنوشروان فبدأ هذا بحملة وصل فيها إلى أنطاكية ونهب شمال سوريا ثم عاد

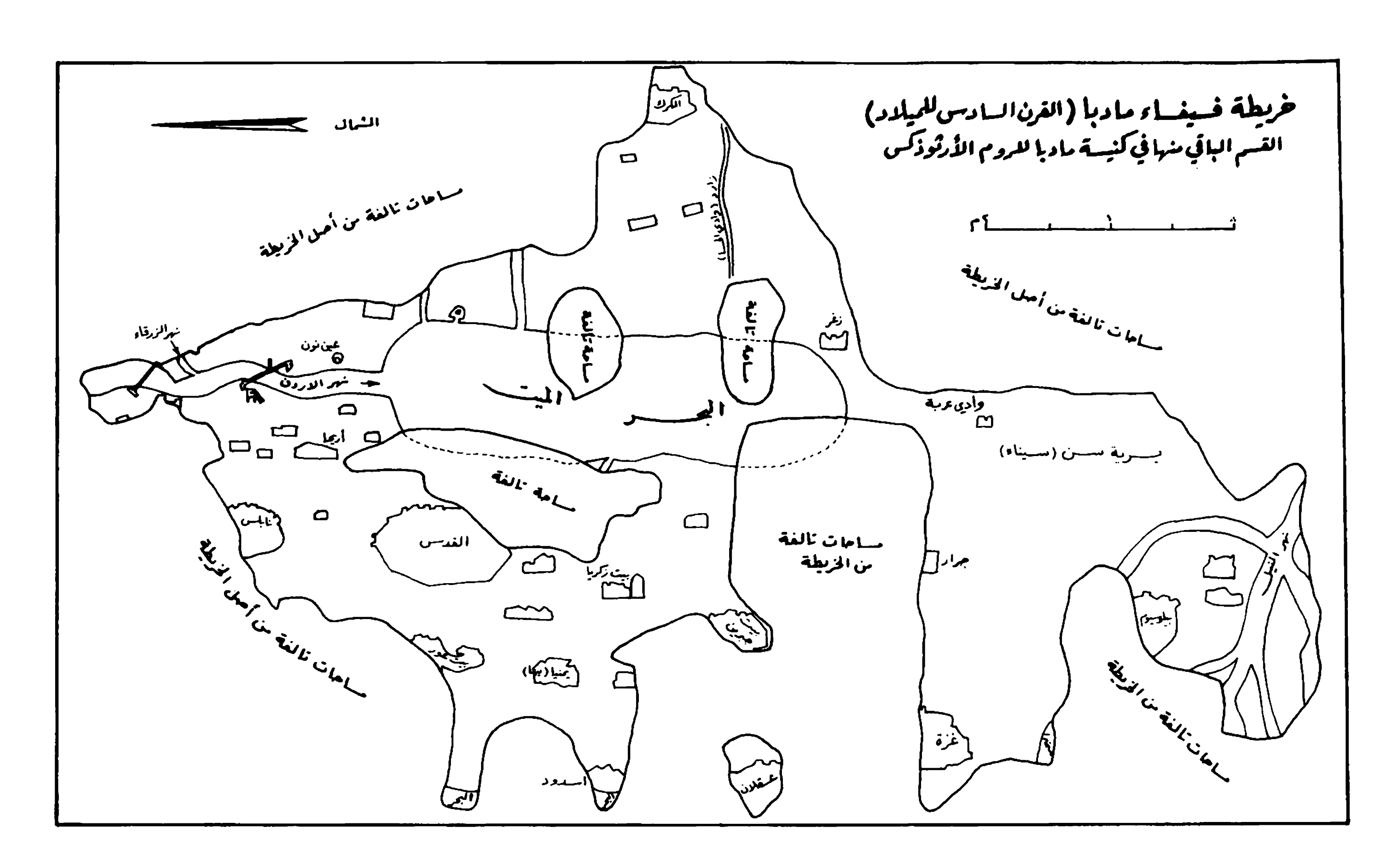
أدراجه. وعقد صلح بين الدولتين. لكن الحرب تجددت لما اعتلى فوكاس العرش سنة ٦٠٢، فقد أراد هذا أن ينتقم لحملات الفرس. وعندها هاجم ابرويز سوريا وآسيا الصغرى ووصل إلى قرب القسطنطينية. في هذه الظروف جاء هرقل من شمال أفريقيا، فاحتل مصر براً والقسطنطينية بحراً، وتولّى العرش (٦١٠ ـ ٦٤١). وفي السنوات من ٦١٠ إلى ٦٢٢ كان الفرس يقومون بهجماتهم على الروم وقد انتصروا في حملاتهم. فنهبوا أنطاكية ودمشق وبيت المقدس (٦١٤) واستولى أبرويز على الصليب المقدس، ثم احتل مصر (٦١٦). وفي سنة ٦١٧ تمكن جيشه من احتلال خلقدونية، الواقعة مقابل القسطنطينية.

وكان هرقل بحاجة إلى المال لتنظيم جيشه وأسطوله، ولما عظم الخطر تقدم البطريرك (في القسطنطينية) بجميع الأواني الذهبية الموجودة في الكنائس لتُذاب وتُسكّ نقوداً. وعندها حمل هرقل حملات شديدة على خصومه، ورافقه النصر حتى انه وصل إلى المدائن (عاصمة الساسانيين) وحاصرها. وقد خُلع أبرويز عن العرش، وعقد الصلح بين خليفته وهرقل (٦٢٨)، وكان أحد الشروط إعادة الصليب المقدس، وقد أعاده هرقل بنفسه إلى بيت المقدس في أيلول/سبتمبر ٦٢٩م.

ولكن الحروب المستمرة، فضلاً عن أشياء أخرى، كانت قد أنهكت الدولتين. فلم تستطيعا الوقوف أمام العرب الذين قضوا على الدولة الساسانية وانتزعوا بلاد الشام ومصر من البيزنطيين. وكانت المعركة الفاصلة التي فتحت أبواب بلاد الشام أمام العرب هي معركة اليرموك ١٥هـ / ٦٣٦م.

وبالنسبة لفلسطين فإن هذه الفترة الأخيرة من العهد البيزنطي يمكن أن نعنى بها من حيث النواحي التالية: (١) تطور الإدارة من حيث ارتباطها بقيام مدن جديدة أو على الأقل مراكز مدنية جديدة، أو رفع درجة بعض القرى إلى مستوى مدينة. (٢) تبدل في المراكز الدينية في القرنين السادس والسابع (ما يخص البيزنطيين منه). (٣) التبدل الذي أصاب الحدود الشرقية.

(١) إن تطور الحياة المدنية كان لا بد أن يتم على حساب ترتيب أو تنظيم آخر. فالذي نعرفه مما مر بنا أن القسم الأكبر من فلسطين قد أصبح، حتى قبل القرن الخامس، أراضي تابعة للمدن. ومن هنا فالذي حدث هو تقسيم في هذه الأراضي بحيث يُتاح للحياة المدنية الاستمرار والسير إلى الأمام. وهكذا فإننا نجد أن منطقة عسقلان تقوم فيها مدينة ميموس عسقلان Maiumus،



ولعل ديوقلتيانوبوليس Diocletianupolis قامت فيها أيضاً. وقامت في منطقة غزة مدينة سميت قسطنطيَة Constantia واستقلت عن المنطقة. هذه المدينة الجديدة كانت مسيحية، فيما منطقة غزة كان لا يَزال للوثنية فيها وجود قوي. وحتى ان مكسيميانوس شريك ديوقلتيان في الحكم أُنشئت مدينة على اسمه (ليغيو مكسيميانوبوليس) في سهل مرج ابن عامر وهي مجدّو أو اللجون القديمة (وتل المتسلم الحديثة). وقد سميت مدينة دبورية هيلينوبوليس Helenopolis باسم هيلانة أم قسطنطين، ولعل مكانها انتُزع من منطقة جبل طابور، ويبدو أن الناصرة انتزعت من صفورية وضُمت إليها. وجُعلت نايس Nais (ناين الحالية) منطقة مستقلة كنسياً وأصبحت إكسالوت Exaloth (اكسال الحالية) مركزها. وقد انتُزع من أراضي بيت جبرين (اليوثيروبوليس) ما أُقيم عليه جيرار (جيرارا) Gerara. وقد أُنشئت أسقفيات، أو ما يقارب ذلك، في ألوسا (الخلصة) وأيلة (العقبة) وغيرهما، وهذه جميعها كانت في فلسطين الثالثة.

(٢) أما المراكز الكنسية التي قامت في فلسطين، ولعلها تمت أيام جستنيان وخلفائه، نتيجة المجامع المسكونية والمحلية التي عُقدت، فقد أصبحت خمسة عشر مركزاً في فلسطين.

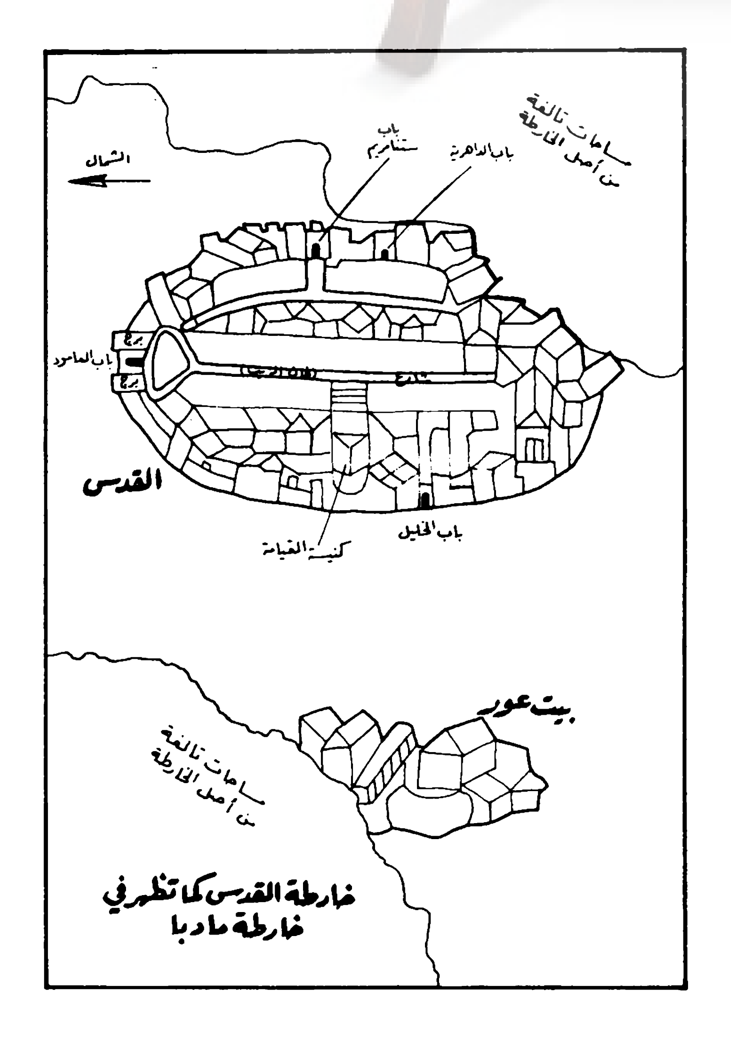
(٣) ولكن الحروب التي قامت بين البيزنطيين والفرس منذ القرن السادس وخاصة في القرن السابع كانت لها آثار كبيرة فيما يتعلق بالإدارة والتنظيم في البلاد.

ويمكن تلخيص ذلك في المسائل التالية:

إن التقسيم الإداري المتعلق بتقسيم سوريا وفلسطين قد تآكل بين أيام جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) وأيام هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١). فإن الحروب التي شنها جستنيان في الغرب استنزفت موارد الدولة المالية بحيث ان صيانة خط الحدود أُهملت. فتهدمت حصون وأبراج كثيرة. والدراسة التي قام بها س. توماس باركر S. Thomas Parker مؤخراً أثبتت لنا أن عدد المواقع المحصنة أخذ يتناقص حتى وصل الحد الأدنى سنة ٦٤٠. فقد كان عدد هذه المواقع يزيد عن الثلاثين موقعاً حوالي سنة ٣٢٤م فأصبح أقل من عشرة مواقع سنة ٦٤٠م. ولما استقر الغساسنة في الأردن (في القرنين الرابع والخامس) وعهد البيزنطيون إليهم بالحفاظ على المنطقة، أُهمل خط الدفاع العسكري. ويمكن القول بأنه في الثلاثينات من القرن السابع كانت الأقسام الشرقية من بلاد الشام خاضعة لنفوذ زعماء محليين كان نفوذهم، في الغالب، يمتد إلى مناطق صغيرة. وحتى المدن التي احتفظت ببقية من مجالس وموظفين كانت في الواقع تُدار على هذا الأساس. وكان الغساسنة في الأردن من مثل هذه المجموعات المتحالفة، لكنها كانت أوسع سلطاناً.

ولا يجوز لنا أن نُغَشَّ عندما نقرأ في بعض المصادر أن مدينة بعينها (وهي في حقيقة الأمر لا تعدو كونها بلدة مُنحت درجة المدينة لتخفيف عبء النفقات عن كاهل الإدارة) كان فيها موظف من درجة ستراتغوس Strategos أو فوليارك Phyliarch أو ما يشبه ذلك. فالسلطة هذه كانت قد أصبحت تابعة للزعامة المحلية. وهذه الزعامات المحلية كان عليها أن تتحمل أعباء مالية كبيرة من أهمها الإنفاق على الميليشيات المحلية، فضلاً عن صيانة الأبنية العامة الموجودة أو إصلاح ما يحتاج منها إلى إصلاح.

وهكذا فإن الفاتحين العرب وجدوا إدارة بيزنطية في فلسطين (وبلاد الشام عامة) قد تآكلت، وتضاربت المصالح العامة الامبراطورية والخاصة المحلية فيها بحيث ان البلاد لم تتمكن من الوقوف أمام الفاتحين. ومع ذلك فقد وجد الفاتحون أسساً للإدارة بنوا عليها[٢٠١].



الخـاتمـة

كانت تجربة فلسطين، خلال القرون العشرة التي مرت بين احتلال الإسكندر للبلاد والفتح العربي، تجربة فذة في أبعادها وعناصرها ونتائجها. جاء الإسكندر وخلفاؤه وكان برفقتهم جنود من بلاد اليونان، ولحق بالجنود المئات من التجار والمهنيين والفنيين الذين اقتضت الحياة الجديدة في البلاد وجودهم ــ لا في فلسطين وحدها ولكن في بلاد الشام بأكملها وجوارها. وقد حمل هؤلاء كباراً وصغاراً مجموعة من التجارب والآراء في شؤون الحكم والتنظيم والعمل. ولعلّ العنصر الأول الذي يجب أن يُذكر هو «المدينة» polis وما يرافقها من تنظيمات وإدارة؛ وهذه المدينة حافظت على الكثير من خصائصها، حتى العصر الروماني الأول، لكنها أُرغمت على أن تقبل بسلطة الملك الهلينستي ثم الوالي الروماني (ممثلاً امبراطوره). فالجو الجديد الذي أُنشئت فيه المدينة كان يقبل بالسلطة العليا، ما دام هناك ملكية. فاستقلال المدينة التام في بلاد اليونان، وحتى في حوض البحر المتوسط وحوض البحر الأسود في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، ما كان من المستطاع التمتع به في العصرين الهلينستي والروماني.

ولكن الـذي يعنينا أيضـاً العناصـر التي حملهـا خلفـاء الإسكندر ورجالهم والرومان فيما بعد إلى فلسطين. وهذه من الناحية العملية تشمل تكنولوجيا كانت أكثر تقدماً من بعض ما عرف في المشرق من قبل. ففي النواحي المدنية أُدخلت ــ على المدى الطويل ــ أساليب لبناء الطرق وإقامة الجسور وحفر الترع والقنى وري الأرض. وفي المجال العسكري بُنيت قلاع وحصون أمتن من ذي قبل ــ في فلسطين وجوارها ــ ورُفعت أسوار أعلى، وبُنيت سفن أكبر للأسطول الحربي ولنقل الركاب والسلع. وفي المجال الاقتصادي أُدخل نظام النقد إلى البلاد وأُنشئت المصارف وطُوِّرت ونُظِّمت رابطات للتجارة كانت تشرف على شؤون الطرق والتجار. وحُملت إلى إيطاليا وبلاد اليونان ومنها نباتات جديدة. وفي ما هو اقتصاد وإدارة معاً أُدخل نظام تلزيم الضرائب والمكوس وعُمِّم الاحتكار في التجارة والصناعة على مقياس كبير (من احتكار البطالمة إلى احتكار الأباطرة البيزنطيين).

ونُقِل مع هذا كله فلسفة وأدب وفكر، والتقى هذا الذي نقل بالذي كان معروفاً من فلسفة وأدب وفكر في المنطقة التي حكمها الملوك الهلينستيون والأباطرة الرومان، فكان من ذلك فكر جديد هـو نتيجة الاحتكـاك والتفاعـل، ولنمثـل علـى ذلـك بالأفلاطونية الحديثة والاهتمام بالرواقية والابيقورية والأدب الذي عُرف في تلك الأزمنة.

وكان للفن ــ بناء ونحتاً ورسماً وفسيفساء ــ دور كبير في هذه الفترة. ولعل هذه الناحية من الحضارة التي نمت وتطورت خلال هذه القرون العشرة كانت الناحية التي أسهم فيها عدد كبير من أبناء البلاد إذا قيس بالمشاركات الأخرى. وقد أتقن الصانع الماهر الشامي عمله كما يبدو من هذه الأبنية الضخمة والجميلة التي أُقيمت في البلاد ــ هياكل وثنية في مدن واسعة كبيرة ــ مثل سبسطية وطبرية وقيصرية وسواها عشرات في المدن الشامية الأخرى، ثم جاء دور الكنيسة ليتطور الفن فيها ــ بناء ونحتاً وتصويراً ــ من كنيستي القيامة والمهد (أيام قسطنطين) إلى كنيسة غزة الأولى (الامبراطـورة يودوكية) التي بُنيت سنة ٤٠٢م إلى الكنائس التي بُنيت في أيام جستنيان في أنحاء البلاد المختلفة. وفي هذه الأبنية جميعها كان «تنفيذ العمل» يقع على عاتق الفنان الفلسطيني. بل إن جستنيان أخذ صُناعاً وفنانين من بلاد الشام إلى القسطنطينية للعمل على تزيين كنيسة آيا صوفيا وزخرفتها.

إلا أن هذه النواحي الحضارية، والفكرية منها خاصة، كانت متعة لسكان المدن. صحيح أن عدداً لا يستهان به من القرى أو البلدان رُفع إلى درجة مدينة تكريماً للسكان أو إرضاء للزعماء، وهذا كان في الأجزاء الشرقية، وبذلك أُتيح لها أن يكون لها مسرح وجمنازيوم وما إلى ذلك، لكن هذا كان شيئاً ظاهرياً فقط. وظلت هذه قرى كبيرة، وقد أسرع الخراب إليها لأن نفقات الصيانة فيها كانت أكبر مما تستطيع «القرية» أن تتحملها. وظل الريف متأخراً بعض الشيء. إنما الذي شفع بفلسطين إلى



رغيف ترابي من القرن السابع أو الثامن الميلادي

درجة كبيرة هو أن البلد صغير والاتصال بين أجزائه يسير وكانت فيه، في أوقات كثيرة، ثروة من التجارة، فكانت فيه مدن لا يستهان بها حتى في النقب وفي أجزاء شبيهة بذلك.

لكن الريف ظل، مع ذلك، هو الذي يدفع الثمن الأكبر لما كان يقوم به الحكام من حروب أو بناء أو ما يتمتعون به من عيش خفيض. فالضرائب كثيرة وطرق جمعها قاسية بالنسبة للفلاح. فكان يشقى ويُظْلَم.

وقد وصلت الحياة الفكرية والروحية الذروة في فلسطين في هذه الفترة بنشوء المسيحية وانتشارها، وما أحدثته من هزة روحية أيقظت الضمير الإنساني. والمسيحية كانت قد انتشرت في البلاد في القرن السادس إنْ لم نقل حتى منذ أواخر القرن الخامس للميلاد. وانتشار المسيحية في فلسطين (وفي غيرها) كان يختلف عن انتشار الحركات الفلسفية في ناحيتين: الأولى أنها لم تكن فلسفة عادية مثل الفلسفات التي عُرفت من قبل والتي ظلت معروفة بعد انتشار المسيحية. والثانية أنها لم تقتصر على المدينة دون الريف. لقد انتشرت بين الناس كافة في القرية والبلدة والمدينة. لذلك كان أثرها كبيراً في الناس أجمعين. وكان من الطبيعي أن تكون لكل مجتمع بشري كنيسة أو أكثر. وأُنشئت في فلسطين مدارس كان لأساتذتها وخريجيها دور كبير في تطوير الفكر المسيحي. وقلما مُرّ على بلدة أو مدينة أو حتى بعض القرى دون أن يخرج منها عالم أو أُسقف أو شاعر أو أديب أو فيلسوف خلال هذه القرون الطويلة.

والسكان الذي نلقاهم في فلسطين في القرن الخامس أو السادس للميلاد مثلاً هم الذين يمثلون جماع العناصر التي كوّنت الشعب أصلاً، وهي عناصر كنعانية آرامية فلسطيّة عربية كانت تتكلم العربية والأرامية / السريانية وقد تستعمل اليونانية عند الحاجة، أو تلجأ إلى اللاتينية لقضاء شؤون في الدولة أيام الرومان. وقد انضاف إلى هذه عناصر مقدونية ويونانية ورومانية وغيرها. وكان في البلاد جماعتان صغيرتان نسبياً هما اليهود الذين كان لهم بعض الوجود في الجليل وفي بعض المدن والسامريون الذين كانوا يعيشون في السامرة وفي بعض مناطق من السهل الساحلي.

وغلب على فلسطين القول بالطبيعة الواحدة (المونوفيسية)، وهذا مخالف لما كانت تقول به الكنيسة الرسمية في القسطنطينية، التي كانت تقبل بالطبيعتين. وليس من اليسير الجزم بسبب هذا الخلاف بين الفريقين، كما لا يمكن تعليل الخلافات والفروق الأخرى التي ظهرت في المسيحية، والتي أسهمت المنطقة (الإسكندرية وأنطاكية وفلسطين) فيها. ولكن القول بالطبيعة الواحدة في فلسطين وشرقي الأردن (الغساسنة) وأجزاء من سوريا ومصر كان فيه نفحة من الوطنية والمقاومة ــ المقاومة للدولة البيزنطية التي اعتبرها أهل البلاد، كما اعتبروا الدولة الرومانية قبلها والملوك الهلينستيين قبل ذلك، دولة غريبة متسلطة. فكانت الروح الوطنية تبدو في هذا الخلاف الكبير مع السلطة حول قضايا دينية.

ونحن إذا حاولنا أن نتعرف إلى موقف السلطة العليا «الفوقية» من جهة، وموقف الشعب الفلسطيني من جهة أخرى، كل من الآخر، نصل إلى نتيجة هي أقرب إلى العداء منها إلى التعاون. كان العداء يتخذ، من جانب السلطة، منع سيامة رجال دين لليعاقبة، أي القائلين بالطبيعة الواحدة، أملاً في أن يحمل ذلك أتباع هذه الكنيسة على التخلي عنها والعودة إلى حظيرة الكنيسة الرسمية، فيقابل الشعب هذا الوضع بالإصرار على موقفه. ولولا السياسة الحكيمة التي اتّبعتها الامبراطورة تيودورا، زوج جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥م) بأن حمت من رجال الدين اليعاقبة بعض كبارهم لكان القضاء على هذه الجماعة أمراً حتمياً. لكن الأمر انتهى بها إلى أن نجحت في أن يسام أسقفان لهذه الكنيسة الواحد (ثيودوروس) رئيساً لأساقفة بُصرى والآخر (يعقوب البرادعي) أسقفاً على الرها ومتروبوليتاً مسكونياً متجولاً. وبسبب الجهد الذي بذله هذان في تجوالهما في هذه المنطقة الواسعة، وخاصة الثاني، أصبح أتباع الطبيعة الواحدة منذ ذلك الوقت يسمون «اليعاقبة» نسبة إليه. ويُروى أن يعقوب هذا، وكان الأنشط بين الاثنين، سام في رحلاته، وكان يطوف المناطق متنكراً مرشداً، سبعة وعشرين أُسقفاً وبضعة آلاف شماس وقس. وقد شملت رحلاته بلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى. وقد دامت أسقفيته خمساً وثلاثين سنة.

ومثل هذا العمل هو الذي أعاد إلى هذه الكنيسة نشاطها، ومع أن نفوذها خف قليلاً بعد ذلك، فإن «الموقف» ظل، بالنسبة للسلطة العليا، موقف مقاومة للأجنبي.

وكثيراً ما كانت تقوم ثورات هنا وهناك ضد ممثلي السلطة، كما كانت تقوم خلافات بين أتباع الكنيسة اليعقوبية وأتباع الكنيسة الملكية الرسمية. وقد يشترك حتى رجال الدين في هذه المناوشات.

وكان اتصال «القصر»، بوصفه مقر الإدارة الامبراطورية، بالشعب الفلسطيني يتم عبر أجهزة متنوعة. فكان هناك الوالي الذي كان يُعيِّن من القسطنطينية، أو من ينوب عنه في الوحدات

الأصغر. وفي بعض الجهات، وفلسطين الثالثة كانت منها، كان الممثل المحلي للامبراطور، أي الحاكم، هـو القائـد العسكري (سواء سمّي ستراتغوس أو دوكس) الذي كان يجمع بين الإدارة العسكرية والمدنية. هذان، أي الوالي ومندوب الامبراطور كانا حاكمين معيّنين. وكان هناك الملك أو الأمير المعاهَد أو المتعاهِد الذي كان يفرض سلطته على جماعته عبر الزعامة التقليدية، مؤيَّدة بالنفوذ الامبراطوري. وكانت هناك المجالس المدنيـة المحلية، خاصة في المدن الكبيرة مثل بيت المقدس وقيصرية وغزة وطبرية وسبسطية وعكا. وهذه المجالس تختلف عن الوالي والأمير المتعاهد في أنها كانت إلى الجماعة المحلية أقرب، ومن ثم فلم تكن لها سلطة لتوصيل الأوامر إلى الشعب المحلي، بل كانت تُعنى بتسيير الأمور محلياً. وكان هناك الزعماء المحليون الذين كانوا يعيشون في المناطق الشرقية من فلسطين وبلاد الشام وفي النقب. هؤلاء كانوا ‹يسيّرون› الأمور بقدر ما تسمح لهم به الأحوال. وتسيير الأمور لم يكن نتيجة ‹انتداب› من فوق، بل كان نتيجة استبداد من قِبلهم، لأن الوالي أو الدوكس أو الاستراتغوس لم تكن سلطته تشمل إلا الرقعة أو الجماعة المحيطة به مباشرة. وهذه الأحوال كانت الغالبة على المناطق الريفية في فلسطين وشرقي الأردن، وذلك بسبب ضعف السلطة المركزية التي أنهكتها الحروب التي قامت في القرن السادس للميلاد (مع الساسانيين في الشرق وضد المناطق الغربية من الامبراطورية أيام جستنيان). ثم زادت هذه الحروب البيزنطية ـ الساسانية شراسة في مطلع القرن السابع أيام هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١)، فأهلكت الحرث والضرع في أنحاء بلاد الشام جميعها.

ولسنا نشك في أن هـذه الحروب، التي لم يكن لأهـل فلسطين فيها مصلحة قط، زادت في نقمة السكان على الدولة البيزنطية، لما جرته معها من الخراب المباشر من تهديم للمدن على أيدي الجيوش (الساسانية) الغازيـة ومن نهب وسلب، ثم لما اقتضته من زيادة في الضرائب والمكوس والاتاوات على السكان للحصول على النفقات اللازمة لها، ولما حملته من الرجال من فلسطين للقتال في ساح المعارك.

من هنا يبدو أن الإدارة البيزنطية كانت قد اهترأت في فلسطين (وبلاد الشام عموماً) في القرن السابع، بحيث ان العرب لما جاؤوا البلاد، بدءاً من الجيوش التي أنفذها أبو بكر الخليفة الراشدي الأول (١١ ـ ١٣هـ / ٦٣٢ ـ ٦٣٤م)، ثم بعد وصول القـادة الـذين أتمّـوا الفتـوح في خـلافـة عمـر بن الخـطاب (١٣ ـ ٢٣هـ / ٦٣٤ ـ ٦٤٤م)، كانوا يقاتلون جيوشاً بيزنطية تتجمع هنا وهناك، وينتصرون عليها. لكن أهم من ذلك، في الواقع، كانت هذه المعاهدات التي كان هؤلاء القادة العرب، كبارهم وصغارهم، يعقدونها مع المدن الفلسطينيـة (والشاميـة عموماً) والداخلية بشكل خاص. فروايات البلاذري عن فتوح بلاد الشام تضع بين أيدينا عشرات من أمثال هذه الحوادث أي عقد المعاهدات. والمهم فيها أن القائد العربـي كان يعرف أن شخصاً أو أكثر من أهل المدينة أو البلدة كان لهم من النفوذ، وإنْ لم يكن شرعياً في نظر الدولة البيزنطية، ما يمكنهم من عقد مثل هذه المعاهدات. فأكثر قواد الجيوش العربية إلى بلاد الشام كانوا فئة لهم صلات من أنواع مختلفة بأهل تلك البلاد (راجع على سبيل المثال البلاذري، **فتوح البلدان**، القاهرة، ١٩٥٦، ج ١ ص ١٢٦ ـ ١٨٠).

يتضح من هذا أن البيزنطيين لم يلقوا، في تلك الفترة، تأييداً من سكان فلسطين، بل على العكس لقوا منهم فتوراً، كما لقي العرب القادمون نوعاً من الترحيب كان يختلف بين مكان وآخر.

وفلسطين التي احتلها العـرب، مثل مـا تبقى من بلاد الشام، حوت عناصر ـ نتيجة هذه التجربة الطويلة ـ كانت ذات فوائد للفاتحين. فالتنظيم الإداري الأول للبلاد كان فيه شيء من الشبه كبير بما كانت بيزنطية قد انتهت إليه. وسك النقود سار فيه الحكام الأوائل على ما كان معروفاً من قبل (إلى أن تبدل أيام عبد الملك بن مروان وبنيه)، وقد استخدم العرب الوسائل نفسها التي كانت مستعملة لحفظ القيود والسجلات وخاصة المالية منها.

وهكذا كانت العقود الأخيرة للدولة البيزنطية في فلسطين فترة انتقال هيأت البلاد، نفسياً على الأقل، لأن تقبل بالقادم من الجنوب. وهو قادم جديد بالمعنى العسكري، ولكنه قادم كان وثيق الصلة بأهل فلسطين عنصرياً ـ على مدى الأجيال ـ وتجـارياً ـ على مدى قرون ـ وتنقلاً في قبائل وعشائر لم ينقطع سيرها نحو الشمال، أي نحو فلسطين، قط. والذي يمكن أن يقال إن العرب القادمين لم يجدوا صعوبة في التحدث إلى أكثر السكان في فلسطين (في الشرق والجنوب وعلى الساحل إلى منطقة قيصرية على الأقل) بلغتهم العربية.

الحـــواشي

الرموز المستعملة:

ADAJ	Annual of the Department of Antiquities, Jordan.
(*)CAH	Cambridge Ancient History.
HLB	Harvard Library Bulletin.
LCL	Loeb Classical Library.
NP-NF	Nicaean and Post-Nicaean Fathers.
QDAP	Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine.
RB	Revue Biblique.

(١) Emmanuel Anati, *Palestine before the Hebrews,* pp. 375-400.
Michael Avi-Yonah, *The Holy Land,* pp. 13-31.
Helmut Koester, *Introduction to the New Testament,* Vol. I, pp. 205-207.
Martin Noth, *The History of Israel*[2], pp. 275 ff.
Emil Schürer, *The History of the Jewish People in the Age of Jesus Christ (175 B.C. - A.D. 135),* Vol. II, pp. 1-20.

(٢) F.-M. Abel, «Alexandre en Syrie et en Palestine», *RB,* Vol. XLIII, pp. 528-545.
———, *Histoire de la Palestine depuis la Conquête d'Alexandre jusqu'à l'Invasion arabe,* Vol. I, pp. 1-12.
Helmut Koester, *Introduction to the New Testament,* Vol. I, pp. 6-12.
Martin Noth, *The History of Israel*[2], pp. 346-347.
Peter Schäfer, «The Hellenistic and Maccabean Periods» in J.H. Hayes and J. Maxwell Miller (eds.) *Israelite and Judaean History,* pp. 539-604.
W.W. Tarn, «Alexander» in *C.A.H.*, Vol. VI, pp. 352-378.
W.W. Tarn and G.T. Griffith, *Hellenistic Civilization*[2], pp. 1-5.
Victor Tcherikover, *Hellenistic Civilization and the Jews,* pp. 1-2.

(٣) Abel, *Histoire...,* Vol. I, pp. 12-21.
Pierre Grimal, «The Diadochi» in Pierre Grimal (ed.) *Hellenism and the Rise of Rome,* pp. 21-62.
Noth, *The History of...,* pp. 347-348.
Schäfer, *The Hellenistic and...,* pp. 568-571.
Tarn and Griffith, *Hellenistic...,* pp. 6-15.
Tcherikover, *Hellenistic...,* pp. 2-18.

(*) إن المجلدات الاثني عشر من هذه السلسلة صدرت جميعها بين سنتي ١٩٢٥ و ١٩٣٥، لكن كلاً من هذه المجلدات أعيد طبعه أكثر من مرة واحدة دون تغيير يذكر باستثناء المجلد الأول الذي كتب من جديد ونشر في قسمين. والسنة المدونة أمام كل من المجلدات المستعملة في هذه الدراسة تشير إلى آخر مرة أعيد فيها طبع ذلك المجلد بالذات.

(٤) Abel, *Histoire...,* Vol. I, pp. 22-78.
Michael Avi-Yonah, *The Holy Land from the Persian to the Arab Conquests,* pp. 32-41.
Koester, *Introduction...,* Vol. I, pp. 16-30.
Noth, *The History of...,* pp. 348-350.
Tarn and Griffith, *Hellenistic...,* pp. 17-26.
Tcherikover, *Hellinistic...,* pp. 39-57.

(٥) Abel, *Histoire...,* Vol. I, pp. 79 ff.
Pierre Grimal, «The Hellenistic East in the Third Century B.C.» in Pierre Grimal (ed.) *Hellenism and the Rise of Rome,* pp. 132-168.
Martin Hengel, *Judaism and Hellenism,* Vol. I, pp. 1-17.
Koester, *Introduction...,* Vol. I, pp. 47-53.
Noth, *The History...,* pp. 351 ff.
Schäfer, *Hellenistic and...,* pp. 571-575.
Tarn and Griffith, *Hellenistic...,* pp. 24-37.
W.W. Tarn, «Struggle of Egypt against Syria and Macedonia» in *CAH.* Vol. VII, pp. 699-731.

(٦) Abel, *Histoire...,* Vol. I, pp. 8 ff.
Hengel, *Judaism...,* Vol. I, pp. 12-18.
Koester, *Introduction...,* Vol. I, pp. 47-53.
Noth, *The History of...,* pp. 354 ff.
Tarn and Griffith, *Hellenistic...,* pp. 38-40.
Tcherikover, *Hellenistic...,* pp. 73-88.

(٧) Schäfer, *Hellenistic and...,* pp. 580-604.
Schürer, *History...,* Vol. I, pp. 125-242.

حزقيال ٢٧: ١١ ــ ٢٥.

(٨) British School of Archaeology in Jerusalem, Bulletin 4, pp. 42 f.
Hengel, *Judaism...,* Vol. I, pp. 32-34; Vol. II, p. 26.
M. Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Hellenistic World,* Vol. I, pp. 85-88; Vol. III, p. 1325.
Schürer, *History...,* Vol. II, p. 97-183.

(٩) Abel, *Histoire...,* Vol. I, p. 12 ff, 15-18.
G.T. Griffith, *Mercenaries of the Hellenistic World,* p. 8-98, 109 ff, 142 ff.

(١٠) Abel, *Histoire...,* Vol. I, p. 100-103.
H. Idris Bell, *Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest,* p. 32 f, 35 ff.
Griffith, *Mercenaries...,* p. 109 ff, 142 ff.
Hengel, *Judaism...,* Vol. I, p. 23-26.
M. Rostovtzeff, «Ptolemaic Egypt», in *CAH.*, Vol. VII, p. 109-160, 162-172.
———, *Social...,* Vol. I, p. 429-440, 524-530.

(١١) W.S. Furgeson, «Leading Ideas of the New Period», in *CAH.*, Vol. VII, p. 1-40, especially p. 8-11.
Rostovtzeff, «Ptolemaic...», p. 109-113, 155-160, 162-163.
———, *Social...,* Vol. I, p. 695-737; Vol. II, p. 1053-1107.

(١٢) Furgeson, «Leading...», p. 1-40.
Rostovtzeff, «Ptolemaic...», p. 110-111, 129-130, 190-192.
———, *Social...*, Vol. I, p. 40-48, 267 ff, 429-440, 695-737; Vol. II, 1032-1050, 1053 ff.

(١٣) Rostovtzeff, «Ptolemaic...», p. 184-186, 190-195.
———, *Social...*, Vol. I, p. 351-381, 440-472; Vol. II, p. 1098-1106.

(١٤) Avi-Yonah, *The Holy Land...*, p. 11-23.
Hengel, *Judaism...*, Vol. I, p. 38.
Rostovtzeff, *Social...*, Vol. I, p. 407-414, 530-540; Vol. II, p. 1159 ff, 1238 ff.
W.W. Tarn, «The Great King and the Satraps», in CAH, Vol. VI, p. 19-24.

(١٥) F.M. Abel, *Géographie de la Palestine*, Vol. II, p. 103-106, 119-123. 119-123.
Avi-Yonah, *The Holy Land...*, p. 32-51.

(١٦) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ج ١، ص ١١٧ — ١١٨؛ ٤٠٤ — ٤٠٥. و ج ٢، ص ٥٨٠ — ٥٨٢.

Avi-Yonah, *The Holy Land...*, p. 32-41.
Rostovtzeff, *Social...*, Vol. I, p. 440 f, Vol. II, p. 1134 ff, 1159 ff, 1169-1180.

(١٧) Bell, *Egypt...*, p. 50 ff.
Hengel, *Judaism...*, Vol. I, p. 8, 18-23, 24 ff.
Rostovtzeff, «Ptolemaic...», p. 110-111, 130-134, 140 f, 155-160, 184-186, 190-195.

(١٨) Avi-Yonah, *The Holy Land...*, p. 42-51.
E.R. Bevan, «Syria and the Jews», in *CAH.*, Vol. VIII, p. 499-533.
Hengel, *Judaism...*, Vol. I, p. 24.
Noth, *The History ...*, p. 340-358.

(١٩) Abel, *Histoire...*, Vol. I, p. 88-107.
Bevan, «Syria and...», p. 499-533.
Hengel, *Judaism...*, Vol. I, p. 24 f.
Noth, *The History...*, p. 360 ff.
Schäfer, «Hellenistic and...», p. 576 f.
Tcherikover, *Hellenistic...*, p. 79.

(٢٠) Abel, *Histoire...*, Vol. I, p. 108-110.
S.A. Cook, «The Inauguration of the Jews», in *CAH.*, Vol. VI, p. 167-199.

(٢١) Edwyn Bevan, *Jerusalem under the High Priests*, p. 31-50.
Hengel, *Judaism...*, Vol. I, p. 26 f.
F.E. Peters, *The Harvest of Hellenism*, p. 222-250.
Tarn and Griffith, *Hellenistic...*, p. 126-163.

(٢٢) Abel, *Histoire...*, Vol. I, p. 88-108.
Bevan, «Syria and...», p. 495-533.
———, *Jerusalem...*, p. 31-69.
Hengel, *Judaism...*, Vol. I, p. 32-55, 107-109, 153 ff.
Peters, *The Harvest...*, p. 222 ff.
Schäfer, *Hellenistic and...*, p. 576-580.
Schürer, *History of the...*, Vol. II, p. 29-81.

(٢٣) Abel, *Histoire...*, Vol. I, p. 130-242.
Bevan, «Syria...», p. 505-533.
———, *Jerusalem...*, p. 100-132.
Schäfer, «Hellenistic and..., p. 585-604.
Schürer, *History of the...*, Vol. I, p. 125-240.

سفرا المكابيين، الأول والثاني، يمثلان وجهة النظر اليهودية الدينية على أشد وجه. والسفر الأول وضِع، على ما يبدو، أصلاً كما هو، مع بعض التعديلات التي أُدخلت عليه فيما بعد. أما السفر الثاني فهو خلاصة لعمل أضخم. وهذه الخلاصة هي من عمل ياسون (Jason) القيريني (من قيرينا Cyrene في ليبيا)، الذي قد لا يكون من اليهود الليبيّي الأصل، ولكنه أقام هناك بعض الوقت فنُسب إلى المدينة. وبين الباحثين خلاف حول الزمن الذي وجد فيه ياسون. فهناك من يعتقد بأنه كان معاصراً للأحداث، فيما يَرى آخرون أنه استخدم مواد أقدم عهداً ومذكرات فخرج بهذه الخلاصة الوافية لمدة تمتد من ١٧٦ — ١٦٠ ق.م. (راجع .Martin Hengel, *Judaism,* Vol. I, p. 95-98) ومع أن السفرين بمجملهما يتحدثان عن الحركة المكابية، فإننا نضع بين يدي القارىء أهم الأعداد الواردة فيهما:

المكابيون الأول: ١:١١ — ١٥، ٢٩ — ٣٥، ٤٤ — ٥٠؛ ٢:١٩ — ٢٢، ٢٧ — ٤٨، ٦٦ — ٧٠؛ ٣:١٠ — ٢٦، ٣٨ — ٤٧؛ ٤:٢٥؛ ٤:٣٤؛ ٥:٨؛ ٥:٥٤ وما بعدها، ٦٥ — ٦٨؛ ٦:١٨ — ٥٩؛ ٧:٥ — ٢٠؛ ١٢:٢٤ — ٣٢.

المكابيون الثاني: ٣:٢٢ — ٤٠؛ ٥:٢٢ — ٢٧؛ ٨:٩ — ٣٢؛ ٩:١ — ٢٢، ٥٧، ٦٩ — ٧٤؛ ١١:١٠ — ١٢، ٢٢ — ٢٦؛ ١٣:٣ — ٨؛ ١٤:٣ — ١٤.

وهناك إشارات تختلف نوعاً وكمية في كتاب يوسيفوس المسمى تاريخ اليهود *(Antiquities of the Jews)* يمكن الرجوع إليها فيما يلي:

Bk. XII, 251, 287, 289, 305-312, 316-327, 385; Bk. XIII, 352-354, 383; Bk. XX, 237.

(٢٤) Abel, *Géographie...*, Vol. II, p. 125-139.
Avi-Yonah, *The Holy Land...*, p. 46-50, 52 ff, 77-86.

(٢٥) A.H.M. Jones, *The Greek City from Alexander to Justinian*, p. 95-112, 157-169.

(٢٦) راجع عن هذه المدن:
الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ١ أرسوف (ص ١٦٨ — ١٧٠) وأريحا (ص ١٩٣ — ١٩٧) وأسدود (ص ٢٣٦ — ٢٣٧) وبيسان (ص ٤٨٥ — ٤٨٩)؛ جزء ٢ جبع (ص ١٠ — ١١) وحيفا (ص ٢٩٨ — ٣٠٦) ودورا (ص ٤١٨ — ٤١٩) ورفح (ص ٤٦٩ — ٤٧٢) وسبسطية (ص ٥٣٥ — ٥٣٨)؛ جزء ٣ صفورية (ص ٣٩ — ٤٠) وطبرية (ص ٩٤ — ١٠٢) وعكا (ص ٢٩٠ — ٢٩٦) وغزة (ص ٣٨٩ — ٣٩٣) وفحل (ص ٤٣٢ — ٤٣٣) وقيسارية أو «قيصرية» (ص ٦١٨ — ٦٢٠)؛ جزء ٤ يافا (ص ٦٠٧ — ٦١٦).

Abel, *Géographie...*, Vol. II, p. 234-530.
Avi-Yonah, *The Holy Land...*, passim.
Schürer, *History of the...*, Vol. II, p. 85-183.
Tcherikover, *Hellenistic...*, p. 90-117.

(٢٧) Abel, *Géographie...*, Vol. I, p. 74-104, 281-285; Vol. II, p. 1-34.
Yohanan Aharoni, *The Land of the Bible*, p. 3-19.
Anati, *Palestine...*, p. 11-21.
Jones, *The Greek City...*, p. 211-236, 277 ff.

(٢٨) Grimal, *Hellenism...*, p. 170-175.
Rostovtzeff, *Social...*, Vol. I, p. 514-524; Vol. II, p. 1054-1098.
Tarn and Griffith, *Hellenistic...*, p. 126-130, 145-151, 157-159, 162-163.
Tcherikover, *Hellenistic...*, p. 108 f, 111-116.

(٢٩) Abel, *Histoire...*, Vol. I, p. 265-277.
Rostovtzeff, *Social...*, Vol. II, p. 697-705, 1098-1107, 1135-1145.

(٣٠) Tarn and Griffith, *Hellenistic...*, p. 134-138.

(٣١) Getzel M. Cohen, *The Seleucid Colonies*, p. 29-44, 72-86.
Jones, *The Greek City*..., p. 157-169, 270 ff.
Koester, *Introduction*..., Vol. I, p. 57 ff.
Tcherikover, *Hellenistic*..., p. 105-116.

(٣٢) إن المدارس المختلفة التي وجدت في البلاد الشامية وهي مدارس بلاغية في الدرجة الأولى كانت تُعد الشُباب لوظائف الدولة. أما التدريب المهني بالمعنى الصناعي فكان يتم من خلال «العمل» نفسه. فالفنيون لم تكن لهم معاهد بالمعنى الذي تم فيما بعد، ولكن المهنة كان من الممكن تعلّمها في المصنع وهكذا. راجع:

Rostovtzeff, *Social*..., Vol. II, p. 1075-7, 1082 f, 1085, 1088 f, 1098;
Tarn and Griffith, *Hellenistic*..., p. 93-94.

(هذا الوصف لأثينا، ولكن اليونان نقلوا الكثير من مؤسساتهم معهم).

(٣٣) حول قضية المرتزقة في العالم الهلينستي ـ لا يزال كتاب غرفث الأوفى وهو:

G.T. Griffith, *Mercenaries of the Hellenistic World*, p. 142-169, 294 ff, 298 f.

بشكل خاص. فضلاً عن العناصر التي تكونت منها المرتزقة، يعالج المؤلف بعض النواحي الاجتماعية ـ الاقتصادية في حياة المرتزقة. فقد أخرج أن الفرد من المرتزقة المشاة كان يتقاضى ٤ ـ ٦ أوبول (Obols) يومياً، فيما كان الفارس من المرتزقة يتقاضى ضعف ذلك (هذا حتى أواسط القرن الرابع قبل الميلاد). وفي أيام الاسكندر كان الجندي من المرتزقة المواطن يتقاضى دراخما، أما غير المواطن فكان أجره اليومي ٣ ـ ٤ أوبول. وفي أواخر القرن الثالث قبل الميلاد تساوى المواطن بغيره، فالمشاة كان يتقاضى واحدهم ٨ أوبول. وأنواع النقد المذكورة هي أثينية أو معدلة على أساسه. (راجع عن النقد تحت: المصارف والنقد).

راجع أيضاً: Hengel, *Judaism*..., p. 12 f, 15-18.

(٣٤) Hengel, *Judaism*..., Vol. I, p. 14-16, 41 f, 185 f.
Koester, *Introduction*..., Vol. I, p. 59-62.
Rostovtzeff, *Social*..., Vol. I, p. 97, 147 f, 163, 178, 203, 322, 602, Vol. II, p. 670, 781-784, 806, 1258-1262.

(٣٥) برديات زينون: مكتوبة باليونانية على ورق البردي لكنها كانت مجلدات ولم تكن لفّات. وقد نُشرت مراسلات زينون في القاهرة (١٩٢٥ ـ ١٩٤٢) في أربعة مجلدات، وقام بتحريرها وترجمتها سي. سي. إدغار (C.C. Edgar). ونُشر مجلدان آخران في نيويورك (مطبعة جامعة كولمبيا) بإشراف و.ل. وسترمان و ا.س. هازناورل (W.L. Westermann and E.S. Hasenoehrl) (١٩٣٤ ـ ١٩٤٠) وفي ١٩٤٠ نشر ا. غُورو و ب. جوغه (P. Jouguet, O. Gueraud) مجلداً آخر. وهنا نورد الأسماء الكاملة لهذه المنشورات:

C.C. Edgar, *Catalogue Général des Antiquités Egyptiennes du Musée du Caire* (Vols. 79, 82, 85, 89) Cairo 1925-1940.
O. Guéraud and P. Jouguet, *Zenon Papyri* (Vol. V), Publications de la Société Fouad I de Papyrologie, Textes et Documents, Cairo, 1940.
W.L. Westermann and E.S. Hasenoehrl (eds.), *Zenon Papyri, Business Papers of the Third Century dealing with Palestine and Egypt*, Vols. I and II, New York, (1934, 1940).

(٣٦) Abel, *Histoire*..., Vol. I, p. 65 f, 167.
Bell, *Egypt*..., p. 50.
Hengel, *Judaism*..., Vol. I, p. 39-46.
Rostovtzeff, *Social*..., Vol. I, p. 64, 351 ff, 464, 502; Vol. II, p. 695-705, 1160-1169, 1180-1191.

(٣٧) Bell, *Egypt*..., p. 47-48.
Rostovtzeff, *Social*..., Vol. I, p. 381 ff, 455 ff, Vol. II, p. 695-705.
Tcherikover, *Hellenistic*..., p. 432 n. 80.

(٣٨) Abel, *Histoire*..., Vol. I, p. 65-70.
Avi-Yonah, *The Holy Land*..., p. 189.
Schäfer, «The Hellenistic...», p. 596-605.

نحميا ١١:٥ و ١٥ و ١٨؛ ١٣:١٥ ـ ١٦.
حجاي ١:١١؛ ٢:١٩.

(٣٩) Aharoni, *The Land*..., p. 24-27.
Flavius Josephus, *The Antiquities of the Jews*, (LCL)
XII:10, 2; XV:9, 2-4; XX:2, 5; 9, 6.
———, *Wars of the Jews* (LCL)
V:8, 1; 9, 4. VII: 2,2.

المكابيون الأول ٧:١٩.
متى ٢١:١ و ١٢.
مرقس ١١:١٥؛ ١٥:٢١؛ ١٦:١.
لوقا ٢٤:١.
يوحنا ٩:٣٩ ـ ٤١؛ ٢٤:١٥.

(٤٠) Aharoni, *The Land*..., p. 29-33.
Avi-Yonah, *The Holy Land*..., p. 192-193, 195.
Josephus, *Antiquities*..., XV:4, 2; (Bk) XVI: 5,2; XVII: 13, 1.
Pliny, *Natural History* (LCL) (Bk) XII, 44.
Strabo, *Geography* (LCL) (Bk) XV: 2, 28, 29; XVI: 2, 41.

(٤١) Josephus, *Antiquities*..., XV: 9, 6.
———, *Wars*..., I:13, 2; I: 18, 5; III: 9, 1; IV: 8, 3.
Pliny, *Natural*..., XII, 44; XIX, 32.

Strabo, *Geography*, XVI: 2, 42-45.

(٤٢) Aharoni, *The Land*..., p. 25-26.
Avi-Yonah, *The Holy Land*..., p. 201, 203, 205, 206 notes 191-195.
Flavius Josephus, *Life* (in LCL), C. 24.

———, *Wars*..., II:10, 1; 27, 2; III: 3, 3; 7, 28-29; III: 10, 1, 7, 8.
Pliny, *Natural*..., (Bk) V, 75, XXXVI, 191.

Strabo, *Geography*, XVI, 2, 25, 45.

(٤٣) Aharoni, *The Land*..., p. 23, 28.
Avi-Yonah, *The Holy Land*..., p. 206-207.

(٤٤) Hengel, *Judaism*..., Vol. I, p. 39, 42-43.
Tcherikover, *Hellenistic*..., p. 67.

المكابيون الثاني ٨:١٠ ـ ١٢.
يوئيل ٣:٤ ـ ٨.

(٤٥) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، جزء ١، ص ٥٠٥ (التجارة).

Avi-Yonah, *The Holy Land*..., p. 200.
Bell, *Egypt*..., p. 50-51, 74-75.
Grimal, *Hellenism*..., p. 246 ff.
Hengel, *Judaism*..., Vol. I, p. 42-47; Vol. II, p. 34 ff, n. 339; 36 n. 355, 37-38.

Fritz M. Heichelheim, *An Ancient Economic History*, Vol. III, p. 112.
Rostovtzeff, *Social*..., Vol. I, p. 225; Vol. II, p. 676; Vol. III, p. 1485-1488.

Schürer, *History*..., Vol. I, p. 380-382.
Tcherikover, *Hellenistic*..., p. 100 f.

نشيد الانشاد ٦:٢؛ ٨:١٤ ـ ١٦.

(٤٦) Bell, *Egypt*..., p. 48 ff.
Koester, *Introduction*..., Vol. I, p. 82-92.
Claire Preaux, *Le Monde Hellenistique*, Vol. I, p. 366-388.
Rostovtzeff, *Social*..., Vol. II, p. 1278.

(٤٧) Martin Price, *Coins and the Bible*, p. 3-9.

(٤٨) Koester, *Introduction*..., Vol. I, p. 88.

(٤٩) Koester, *Introduction*..., Vol. I, p. 89-90.
Price, *Coins*..., p. 2, 10-36.

(٥٠) Heichelheim, *An Ancient*..., p. 20-24.

(٥١) Grimal, *Hellenism*..., p. 178, 245 f.
Hengel, *Judaism*..., Vol. I, p. 49-50, 107-115.
Koester, *Introduction*..., Vol. I, p. 39-41, 153-163.
Schürer, *History of*..., Vol. II, p. 29-80.
Tcherikover, *Hellenistic*..., p. 152-160.

(٥٢) Grimal, *Hellenism*..., p. 246, 248, 251.

(٥٣) Hengel, *Judaism*..., Vol. I, p. 58-64, 83-84, 86-87, 116.

(٥٤) Hengel, *Judaism*..., Vol. I, p. 78ff, 90-95, 140-143, 248 f.

(٥٥) Grimal, *Hellenism*..., p. 169-172, 251-254.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 125-164, 229-242.
المكابيون الأول ١: ٤٩.

(٥٦) Grimal, *Hellenism*..., p. 169-172.
Hengel, *Judaism*..., Vol. I, p. 49-50, 218-254.
Schürer, *History of*..., Vol. II, p. 550-595.
Geza Vermes, *The Dead Sea Scrolls*, passim.

إن مكتبة مخطوطات البحر الميت، ومنها ما نشر من الوثائق والنصوص وما لم ينشر (وقد ترجم أكثر ما نشر إلى لغات حية كثيرة) هي من أغنى ما عثر عليه في فلسطين بالنسبة للعصر الهلينستي. وكتاب ڤرمس (Vermes) هذا يحتوي على المصادر والمراجع الرئيسة الملحقة بكل فصل من فصوله.

راجع: الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، جزء ١، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٨.

(٥٧) Vermes, *The Dead Sea*..., p. 46-86.

(٥٨) Schürer, *History of*..., Vol. II, p. 558 ff.
Vermes, *The Dead Sea*..., p. 89-92.
Josephus, *Antiquities*..., XIII, 14-6.

لوقا ٦: ١٥.
أعمال الرسل ١: ١٣؛ ٥: ١٧.

(٥٩) Grimal, *Hellenism*..., p. 263-264.
Hengel, *Judaism*..., Vol. I, p. 78-95, Vol. II, p. 115.
Koester, *Introduction*..., Vol. I, p. 229 f, 404 f.
Schürer, *History of*..., Vol. II, p. 558 ff.
Tcherikover, *Hellenistic*..., p. 253-265.
Vermes, *The Dead Sea*..., p. 118-119.

(٦٠) Schürer, *History of*..., Vol. II, 559-562.
Vermes, *The Dead Sea*..., p. 119-124.
Josephus, *Life*..., I, 12.

(٦١) Schürer, *History of*..., Vol. II, p. 569, 575-581.
Vermes, *The Dead Sea*..., p. 125-130.

(٦٢) Schürer, *History of*..., Vol. II, p. 137-181, 555-581.
Vermes, *The Dead Sea*..., p. 163-197.

(٦٣) P.V.M. Benecke, «Rome and the Hellenistic States», in *CAH*. Vol. VIII, p. 279-305.
Maurice Holleaux, «Rome and Antiochus», in *C A H.*, Vol. VIII, p. 199-240 especially p. 222, 231-234.
Noth, *The History of*..., p. 393-401.
Schäfer, *Hellenistic and*..., p. 600-604.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 219-242.
Josephus, *Antiquities*..., XIV:2, 3; 3,1-3.
———, *Wars*..., I, 128-131.

(٦٤) M. Cary, «Pompey in Syria» in *CAH*. Vol. IX, p. 376-396 especially p. 381-383.
A.R.C. Leany, «The Roman Era», in *Israelite and Judaean History*, p. 606-663 especially p. 606-612.
A.H.M. Jones, *The Herods of Judaea*, p. 8-16.
Noth, *The History of*..., p. 404-406.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 243 f.

(٦٥) Josephus, *Antiquities*..., XIV, 4, 1-4.
———, *Wars*..., I, 150.

(٦٦) Cary, «Pompey...», p. 392-396.
Leany, «The Roman...», p. 611 ff.
Noth, *The History of*..., p. 404-406.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 244-247.
Josephus, *Antiquities*..., XIV, 64-68, 71-73.
———, *Wars*..., I, 150 f, 155-157.

(٦٧) M. Cary and H.H. Scullard, *A History of Rome*, p. 244-246, 255 f, 270-282.
Jones, *Herods*..., p. 19-34.
Noth, *The History of*..., p. 404-412.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 244-247.
W.W. Tarn, «Parthia», in *C A H* , Vol. IX, p. 574-613.

(٦٨) Jones, *Herods*..., p. 35-42.
Leany, «*The Roman*..., p. 612-617.
Noth, *The History of*..., p. 407-408.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 267-280.
W.W. Tarn and M.P. Charlesworth, «The Triumvirs in Rome», in *CAH*. Vol. IX, p. 31-65.

(٦٩) Leany, «The Roman...», p. 616-619.
Noth, *The History of*..., p. 411-412.
Josephus, *Antiquities*..., XIV, 172-3, XV, 3.

(٧٠) Jones, *Herods*..., p. 39-61.
Stuart Perowne, *The Life and Times of Herod the Great*, p. 88-94.
A. Momigliano, «Herod of Judaea», in *CAH*. Vol. X, p. 316-339.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 281-286.

(٧١) Jones, *Herods*..., p. 62-72.
Leany, «The Roman...», p. 619-625.
Noth, *The History of*..., p. 412-414.
Perowne, *Life*..., p. 95-114.

(٧٢) أورد يوسيفوس تفاصيل وافية عن حياة هيرودس استقاها مما كتبه نقولا الدمشقي كاتب سر هيرودس. أما آثار الدمشقي نفسها فقد فقدت.

راجع: Josephus, *Antiquities*..., XV:1 — XVII: 8.
———, *Wars*..., I, 18-33.
Abel, *Histoire*..., Vol. I, p. 347-406.
Jones, *Herods*..., p. 62-155.
Momigliano, «Herod..., p. 316-339.
Perowne, *Life*..., p. 115-142, 176-180.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 294-329.

(٧٣) راجع بشكل خاص: Noth, *The History of*..., p. 419-423.
Schürer, *History of*..., Vol. I, 295-296.

(٧٤) Noth, *The History of*..., p. 420 f.

(٧٥) Noth, *The History of*..., p. 422 f.

(٧٦) Abel, *Histoire*..., Vol. I, p. 347-380, 392-407.
Jones, *The Herods*..., p. 156-216.
Leany, «The Roman...», p. 633-636, 644-647.
Noth, *The History of*..., p. 420-428.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 330-357, 442-454.
M. Stern, «The Reign of Herod and the Herodian Dynasty», in *The Jewish People in the First Century*, p. 216-307.
Josephus, *Antiquities*..., XVII:13 — XIX:9.
———, *Wars*..., II, 7-11.

أعمال الرسل ١٢ : ٢١ ــ ٢٤.

(٧٧) Avi-Yonah, *The Holy Land*..., p. 101.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 359 f.
M. Stern, «The Province of Judaea», in *The Jewish People in the First Century*, p. 308-377; especially, p. 309, 313, 346-361.

متى ٢٧ : ٢.
لوقا ٣ : ١.
أعمال الرسل ٢٣ : ٣٥.

(٧٨) Abel, *Géographie*..., Vol. II, p. 141-160.
Koester, *Introduction*..., Vol. I, p. 390 ff.
Leany, «The Roman...», p. 647-653.
Noth, *The History of*..., p. 421-428.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 362-378, Vol. II, p. 85-185.

(٧٩) Abel, *Géographie*..., Vol. I, p. 164-168.
———, *Histoire*..., Vol. I, p. 483-505.
Leany, «The Roman...», p. 653-663.
Noth, *The History of*..., p. 342-446.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 484-513.

(٨٠) Avi-Yonah, *The Holy Land*..., p. 108 ff.
Cary and Scullard, *A History of*..., p. 409-433.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 514-520.

(٨١) Hengel, *Judaism*..., Vol. I, p. 303-310.
Koester, *Introduction*, Vol. I, p. 390-412.
S. Safrai, «Education and Study of the Torah», in The *Jewish People in the First Century»*, Vol. II, p. 945-970.
Schürer, *History of*..., Vol. II, p. 314-333.

(٨٢) Abel, *Histoire*..., Vol. II, p. 50-64.
J.G.C. Anderson, «The Eastern Frontiers under Augustus», in *CAH*. Vol. X, p. 239-283, see especially p. 247-253.
Bell, *Egypt*..., p. 284-315.
G.W. Bowerstock, *Roman Arabia*, p. 87-92.
Cary and Scullard, *A History*..., p. 409-433.
R.P. Longden, «The Wars of Trajan», in *CAH*. Vol. XI, p. 223-252, see especially p. 237 ff.
Irfan Shahid, *Rome and the Arabs*, p. 19-25.

(٨٣) Abel, *Histoire*..., Vol. II, p. 66-132.
Cary and Scullard, *A History*..., p. 434-450.
Koester, *Introduction*..., Vol. I, p. 390-412.
Jacob Neusner, «Judaism after the Destruction of the Temple», in *Israelite and Judaean History*, p. 663-677.
Noth, *The History of*..., p. 432-454.
Schürer, *History of*..., Vol. I, p. 514-557.

(٨٤) **الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، (المسيحية)، ج ٤، ص ٢١٣ ــ ٢١٧.**

Paul Johnson, *A History of Christianity*, p. 3-28.
Koester, *Introduction*..., Vol. II, p. 147-177.
Kenneth Scott Latourette, *A History of Christianity*, p. 3-28.
F.E. Peters, *The Harvest of Hellenism*, p. 480-487.
Nicolas Zernov, *Eastern Christendom*, p. 19-22.

(٨٥) **أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج ١، ص ٣ ــ ٢٥.**

Johnson, *A History of*..., p. 30-66.
Koester, *Introduction*.... Vol. II, p. 198-206.
Latourette, *A History of*..., p. 33-66.
Zernov, *Eastern*..., p. 22-32.

(٨٦) راجع مثلاً:

متى ٥ : ٨ و ١٨ و ١٩ و ٢٧ ــ ٣٢؛ ٩ : ٢ و ١٦ ــ ١٧؛ ١٣ : ٥٢؛ ١٥ : ٢١ ــ ٢٨؛ ٢٢ : ٣٧.

مرقس ٢ : ١٩؛ ٨ : ٢٧ ــ ٣٠؛ ١٢ : ٢٨ ــ ٣٤.

لوقا ٤ : ٢٥ ــ ٢٧؛ ٧ : ٢ ــ ١١ و ٢٦ ــ ٥٠؛ ١٠ : ٢٥ ــ ٣٧؛ ١١ : ٣٧ ــ ٤٢؛ ١٥ : ١١ ــ ٣٢؛ ٢٢ : ٢٨.

أعمال الرسل ١٥ : ٥.

كورنثوس الثانية ١٣ : ١٤.

(٨٧) Latourette, *A History*..., p. 33-64.
A.D. Nock, *Conversion: The Old and the New in Religion from Alexander the Great to Augustine of Hippo*, p. 193-211.

(٨٨) Latourette, *A History of*..., p.65-111.
G.H.C. MacGregor and A.C. Purdy, *Jew and Greek: Tutors to Christ*, passim.
Nock, *Conversion*..., p. 164-192.

(٨٩) **رستم، كنيسة... ، ج ١، ص ١٠٠ ــ ١١٠، ١٦٧ ــ ١٧٩.**

N.H. Baynes, «The Great Persecution» in *CAH*. Vol. XII, p. 646-677.
F.C. Burkitt, «Christian Church in the East», in *CAH*. Vol. XII, p. 476-514.
Latourette, *A History*..., p. 68-91.
Nock, *Conversion*..., p. 196 f, 208 f.

(٩٠) S. Applebaum, «Economic Life in Palestine», in *The Jewish People in the First Century*, Vol. II, p. 631-700.
Rostovtzeff, *Social*..., Vol. I, p. 342, Vol. III, notes 139, 149.
Josephus, *Antiquities*..., XIV, 74-8, 200, 207.
———, *Apion*, I, 60.
———, *Wars*, I, 155-6.

(٩١) المكابيون الأول ١٠ : ٣٠؛ ١١ : ٣٤.

Applebaum, «Economic Life...», p. 663.

(٩٢) Applebaum, «Economic Life...», p. 643 ff.

صموئيل الثاني ١٧ : ٢٧ ــ ٢٩.

(٩٣) Applebaum, «Economic Life...», p. 646-648.
A. Reifenberg, *Soils of Palestine*, p. 113 ff.
Josephus, *Wars*..., I, 138-40, III, 42-8, 51-8.

(٩٤) Applebaum, «Economic Life...», p. 645-648.
F.M. Heichelheim, «Roman Syria», in *An Economic Survey of Ancient Rome*, Vol. II, p. 121-257, see especially p. 127-140.

يورد الكاتب هنا مراجعه من التلمود.

(٩٥) Applebaum, «Economic Life...», p. 649-650.

يورد الكاتب هنا مراجعه من المشنا.

(٩٦) Applebaum, «Economic Life...», p. 653-654.

(٩٧) Applebaum, «Economic Life...», p. 655.
Heichelheim, «Roman Syria», p. 139-140.

(٩٨) Applebaum, «Economic Life...», p. 655.
Heichelheim, «Roman Syria», p. 152-156.

(٩٩) متى ٢٠: ١ ــ ١٥.
مرقس ١٢: ١ ــ ١١.
لوقا ١٦: ١ ــ ٨؛ ١٧: ٨؛ ١٩: ١٩.
هذه أمثلة عن إشارات في العهد الجديد للأوضاع الاقتصادية في فلسطين في أيام المسيح.

Josephus, *Antiquities*..., XIV, 2; XV, 96; XVIII, 32, 37.
———, *Wars*..., II, 57.
Applebaum, «Economic Life...», p. 658 f.

يرى ابلباوم أن أسرة هيرودس، من المؤسس حتى آخر حاكم منها، كان أفرادها يعتبرون البلاد بأجمعها ملكاً لهم، بما في ذلك الأراضي التابعة للمدن. ولأن هؤلاء كانوا يتصرفون على هذا الأساس فإنهم لم يروا أنهم كانوا يغتصبون أرضاً إذا استولوا عليها، بل كانوا يعتبرون الاستيلاء على أرض ما هو حق مشروع للحكام منهم.

Heichelheim, «Roman Syria», p. 144-152.

(١٠٠) Heichelheim, «Roman Syria», p. 159.

(١٠١) Heichelheim, «Roman Syria», p. 158-159.

(١٠٢) Heichelheim, «Roman Syria», p. 164-166.

(١٠٣) Applebaum, «Economic Life...», p. 667-668.
Heichelheim, «Roman Syria», p. 198-201.

(١٠٤) Applebaum, «Economic Life...», p. 669-670.
Heichelheim, «Roman Syria», p. 201-203.

(١٠٥) Applebaum, «Economic Life...», p. 670-673.
Heichelheim, «Roman Syria», p. 191, 201-203.

(١٠٦) Applebaum, «Economic Life...», p. 674-676.
Heichelheim, «Roman Syria», p. 191-192, 203 ff.

(١٠٧) Heichelheim, «Roman Syria», p. 208-210.

(١٠٨) Applebaum, «Economic Life...», p. 683 ff.

(١٠٩) Heichelheim, «Roman Syria», p. 228.
Pliny, *Natural History*, XII, 111-123.

(١١٠) متى ١٢: ١٥ ــ ٢٢.
مرقس ١٢: ١٣ ــ ١٧.
لوقا ٢٠: ٢٠ ــ ٢٦.

Heichelheim, «Roman Syria», p. 231-239, 241-244.
Pliny, *Natural History*, XII, 32, 63-65.

(١١١) Applebaum, «Economic Life...», p. 691-699.
F. Oertel, «Economic Unification», in *CAH*, Vol. X, p. 382-424, see especially p. 400-402.

M. Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, Vol. I, p. 262-272.

(١١٢) Iain Browning, *Palmyra*, p. 19-52.
Cary and Scullard, *A History*..., p. 491-509.
A. Momigliano, «Rebellion within the Empire», in *CAH*, Vol. X, p. 849-866, see especially p. 849-855.
Shahid, *Rome*..., p. 22 ff.

(١١٣) Andrew Burnett, *The Coins of Late Antiquity A.D. 400-700*, p. 1-5.
Heichelheim, «Roman Syria», p. 212.

(١١٤) Heichelheim, «Roman Syria», p. 180, 183, 184, 186.

(١١٥) H.M.D. Parker, *A History of the Roman World, from A.D. 138 to 337*, p. 129-138, 152-157.
Shahid, *Rome*..., p. 36-37, 66 ff.

(١١٦) Cary and Scullard, *A History*..., p. 492-493.
Shahid, *Rome*..., p. 44-48, 150 ff.

(١١٧) Cary and Scullard, *A History*..., p. 496-497.
Shahid, *Rome*..., p. 34 ff.

(١١٨) Cary and Scullard, *A History*..., p. 513-515.
Parker, *A History*..., p. 198-205.
Shahid, *Rome*..., p. 22-27.

(١١٩) A. Alföldi, «Crisis of the Empire» in *CAH*, Vol. XII, p. 165-231, see especially p. 169-180.
Baynes, «The Great...», p. 646-677.
Cary and Scullard, *A History*..., p. 517-535.
W. Ensslin, «Reforms of Diocletians», in *CAH*, Vol. XII, p. 383-408, see especially p. 390 ff, 395 ff.
A.H.M. Jones, *The Decline of the Ancient World*, p. 28-51.
S.N. Miller, «The Army and the Imperial House» in *CAH*, Vol. XII, p. 1-56.
Parker, *A History*..., p. 223-309.
Shahid, *Rome and*..., p. ix-xi, 24-26, 159-161.

(١٢٠) Jones, *Decline*..., p. 32 ff.
H.M.D. Parker, *The Roman Legions*, p. 92.
———, *A History of*..., p. 253-261.

(١٢١) Cary and Scullard, *A History*..., p. 526 ff.
Ensslin, «Reforms...», p. 390-399.

(١٢٢) Jones, *Decline*..., p. 33-35.
Parker, *A History*..., p. 269-275.

(١٢٣) N. Lewis and M. Reinhold, *Roman Civilization Sourcebook II: The Empire*, p. 464-473.

في هذه الصفحات يجد القارىء مرسوم ديوقلتيان الذي أصدره سنة ٣٠١م بقصد مكافحة الغلاء وحدد فيه أسعار جميع السلع والأجرة التي يجب أن يتقاضاها كل عامل في مهنته. وقد اخترنا نماذج لذلك فقط.

(١٢٤) Bowerstock, *Roman Arabia*, p. 143 ff.
A.H.M. Jones, *The Later Roman Empire 284-602*, Vol. II, p. 607-686.

ورد في «شهداء فلسطين» (في كتاب تاريخ الكنيسة، تأليف يوسابيوس القيصري (Eusebius) (الترجمة العربية) فصل ٧ فقرة ٢ أن حاكم فلسطين حكم على بعض المسيحيين بالعمل في مناجم النحاس في فينو بفلسطين. وهذا المكان كان من قبل تابعاً للولاية العربية.

(١٢٥) Abel, *Géographie*..., Vol. II, 294-296.
Bowerstock, *Roman*..., p. 143.
Jones, *Later Roman*...., Vol. I, p. 380, 388-390.
Nicola A. Ziadeh, «The Administration of Bilad ash-Sham from the Byzantines to the Early Arabs», in *Mélanges de l'Université Saint Joseph*, Tome L (Vol. I & II), p. 787-812.

(١٢٦) Bowerstock, *Roman*..., p. 143 ff.
Shahid, *Rome*..., p. 108.

(١٢٧) Cary and Scullard, *A History*..., p. 507-517.

(١٢٨) Avi-Yonah, *The Jews of Palestine*, p. 91-93, 102 f.

(١٢٩) Avi-Yonah, *Jews*..., p. 94.

(١٣٠) Avi-Yonah, *Jews*..., p. 94-95.

(١٣١) Avi-Yonah, *Jews*..., p. 95-96.

(١٣٢) Avi-Yonah, *Jews*..., p. 96-97.

(١٣٣) Avi-Yonah, *Jews*..., p. 98-102.

(١٣٤) Jones, *Later Roman*..., Vol. II, p. 864 ff.
Oertel, «Economic...», p. 400-402, 414-424.
M. Rostovtzeff, «Rhodes, Delos and Hellenistic Commerce», in *CAH*. Vol. VIII, p. 619-667.

(١٣٥) رستم، **كنيسة**. . .، ج ١، ص ١٤ ــ ٢٧، ٣٦ ــ ٤٨، ٨٦ ــ ٩٩.

Burkitt, «Christian...», p. 476-515.
Johnson, *A History of*..., p. 3-66.

(١٣٦) J. Bidez, «Literature and Philosophy in the Eastern Half of the Empire», in *CAH*. Vol. XII, p. 611-645.
Franz Cumont, «Frontier Provinces of the East», in *CAH*. Vol. XII, p. 606-648, see especially p. 634-648.
Parker, *A History*..., p. 129-140.
I. Spencer Trimingham, *Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times*, p. 41-52.

(١٣٧) رستم، **كنيسة**. . .، ج ١، ص ١٠٠ ــ ١١٠، ١٦٧ ــ ١٨٠.
يوسابيوس القيصري، **تاريخ الكنيسة** (مترجم)، ص ٣٨٩ ــ ٤٦٨.

Lewis and Reinhold, *Roman Civilization*..., Vol. II, p. 591-601.

(١٣٨) Edgar J. Goodspeed, *A History of Early Christian Literature*, p. 1-6, 93-118.
Latourette, *A History*..., p. 99.
Zernov, *Eastern*..., p. 70.

(١٣٩) L.W. Barnard, *Justin Martyr, His Life and Thought*, p. 1-14, 27-74, 169-171.
Bidez, «Literature and...», p. 621-628.
Latourette, *A History*..., p. 80-85.
Peters, *The Harvest*..., p. 585-590, 672-680.

(١٤٠) رستم، **كنيسة**. . .، ج ١، ص ٥٩ ــ ٨٠.

Goodspeed, *A History*..., p. 106-109, 123-125, 151-153.

(١٤١) نجيب بلدي، **تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها**، ص ٨٧ ــ ٩١، ٩٩ ــ ١٠٢.

Peters, *The Harvest*..., p. 583-594.

(١٤٢) Goodspeed, *Early*..., p. 126-142.
Latourette, *A History*..., p. 146-151.
Zenov, *Eastern*..., p. 32-38.

(١٤٣) رستم، **كنيسة**. . .، ج ١، ص ١٥١ ــ ١٥٨.

Peters, *The Harvest*..., p. 674-679.

(١٤٤) رستم، **كنيسة**. . .، ج ١، ص ١٨٣ ــ ١٨٩.

A.H.M. Jones, *Constantine and the Conversion of Europe*, p. 152-171, 204 ff.
Parker, *A History*..., p. 291-309.

يجدر بالقارىء الاطلاع على الكتابين التاليين:

A. Alföldi, *The Conversion of Constantine and Pagan Rome*.
N.H. Baynes, *Constantine the Great and the Christian Church*.

(١٤٥) Abel, *Géographie*..., Vol. II, p. 168-191.
———, *Histoire*..., Vol. II, p. 228 f, 243-245, 319 ff, 347 f.
Avi-Yonah, *The Holy Land*..., p. 108-125.
Bowerstock, *Roman*..., p. 76-89, 138-147, 179 ff.
Shahid, *Rome*..., p. 23, 51-63, 138 ff.

(١٤٦) نقولا زياده، **العالم القديم**، ج ٢، ص ٣٥٢ ــ ٣٥٨ وهذه الخلاصة مأخوذة أصلاً عن:

Avi-Yonah, «Map of Roman Palestine», in *QDAP*, Vol. V, No. 4, pp. 139-193.

(١٤٧) Abel, *Géographie*..., Vol. II, p.187 ff.
———, *Histoire*..., Vol. II, p. 53 f, 176 ff, 228, 245-249.
Bowerstock, *Roman*..., p. 93 ff.
Shahid, *Rome*..., p. 65 ff.

(١٤٨) Abel, *Géographie*..., Vol. II, p. 233-479.
Avi-Yonah, *The Holy Land*..., p. 127-181.
Jones, *Later*..., Vol. II, p. 712-715, 748 f, 757 ff.
Schürer, *History of*..., Vol. II, p. 85-184.
Tcherikover, *Hellenistic*..., p. 90-113.

(١٤٩) Longden, «The Wars...», p. 223-252, see especially p. 237 ff.
Parker, *Roman*..., p. 117-151.

(١٥٠) Jones, *Later*..., Vol. I, p. 42-43, 373; Vol. II, p. 607-686, passim.
S. Thomas Parker, «Archaeological Survey of the Limes Arabicus», *ADAJ*, Vol. XXI, p. 19-31.

(١٥١) رستم، **كنيسة**. . .، ج ١، ص ١٥٨ ــ ١٦٦.

Latourette, *A History*..., p. 130-135.
Zernov, *Eastern*..., p. 72-76.

(١٥٢) رستم، **كنيسة**. . .، ج ١، ص ٢٠٠ ــ ٢٠١.

(١٥٣) المصدر نفسه، ص ١٩٩ ــ ٢٠٥.

Latourette, *A History*..., p. 133-157, 164, 167, 171-172, 281, 285.
Zernov, *Eastern*..., p. 41-50.

(١٥٤) رستم، **كنيسة**. . .، ج ١، ص ٢٨٨ وما بعدها.

Jones, *Later*..., Vol. II, p. 929-932.
Latourette, *A History*..., p. 221 ff.

(١٥٥) رستم، **كنيسة**. . .، ج ١، ص ٢٩٢ ــ ٢٩٦.
الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ج ٢، ص ١١٢.
نقولا زياده، **رواد الشرق العربي في العصور الوسطى**، ص ٤٧ ــ ٥٠.

Abel, *Histoire*..., Vol. II, p. 302-305.
Henry Bettenson, *The Late Christian Fathers*, p. 22-24.
Latourette, *A History*..., p. 226-234.
Trimingham, *Christianity*..., p. 138 f.
Zernov, *Eastern*..., p. 77 ff.

(١٥٦) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، ج ١، ص ٢٣ ــ ٢٤.

Abel, *Géographie*..., Vol. II, p. 193-202.
Latourette, *A History*..., p. 155-157, 167, 171-172, 180.
Zernov, *Eastern*..., p. 39-64.

(١٥٧) رستم، **كنيسة**. . .، ج ١، ص ١٩٢ ــ ٢٣٤.
الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ج ٤، ص ٦٣٥ ــ ٦٣٦.

(١٥٨) رستم، **كنيسة**. . .، ج ١، ص ٣٢٨ ــ ٣٥٠.

Latourette, *A History*..., p. 276-288, 321-322.
Zernov, *Eastern*..., p. 70-75.

(١٥٩) Avi-Yonah, *The Holy Land*..., p. 217.

(١٦٠) Jones, *Later*..., Vol. II, p. 767 f.
F.M. Heichelheim, *An Ancient Economic History*, Vol. III, p. 301 f.

(١٦١) زياده، **رواد الشرق**. . .، ص ٥٣. يبدو أن زراعة البلسم (أو البلسان) أصبحت في القرن الثالث عشر مقصورة على مصر على ما رواه عبد اللطيف البغدادي. راجع رواد . . .، ص ١٦٦.

Heichelheim, *Ancient*..., Vol. III, p. 301-305.

(١٦٢) Glanville Downey, *Gaza in the Early Sixth Century*, p. 34-41.
Nigel Groom, *Frankincense and Myrrh*, p. 160-161, 204-207.
Martin A. Meyer, *History of the City of Gaza*, p. 55-72, 162-164.

(١٦٣) Heichelheim, *Ancient*..., Vol. III, p. 302 f.

(١٦٤) Cumont, «Frontier..», p. 627-633.
Heichelheim, *Ancient*..., Vol. III, p. 307, 316-317, 332 ff.
يشير هيخلهايم إلى أن التلمود يتحدث عن الاقتصاد العيني والصناعة البيتية.

(١٦٥) Abel, *Histoire*..., Vol. II, p. 199-238, passim.
Avi-Yonah, *Jews*..., p. 96.
———, «Map of Roman Palestine», passim.
Heichelheim, *Ancient*..., Vol. III, p. 325-332.

(١٦٦) Abel, *Géographie*..., Vol. II, p. 175-181.
A. Alt, «Römische Meilsteine in Palästina», *ZDPV*, Vol. LI, p. 253 ff.
P. Thomsen, «Die römischen Meilensteine der Provinzen Syria, Arabia und Palästina», *ZDPV*, Vol. XL, p. 157 ff.

(١٦٧) Bouchier, *Syria*..., p. 222-224.
Raymond Chevalier, *Roman Roads*, p. 104, 142-145.
Downey, *Gaza*..., p. 9 ff.
Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, Vol. I, p. 517 ff.

(١٦٨) رستم، كنيسة. . .، ج ١، ص ١٦٧ ــ ١٨٢، ١٩٦، ٢٢٥.
N. H. Baynes and H. St. L. B. Moss, *Byzantium*, p. 200 f.
Downey, «Christian Schools of Palestine», *MLB*, Vol. XII, p. 297-319.
———, *Gaza*..., p. 108-112.
Goodspeed, *History of*..., p. 126-142.
Heichelheim, «Roman...», p. 169 ff.
Jones, *Later*..., Vol. II, p. 980-1002.
George A. Kennedy, *Greek Rhetoric under Christian Emperors*, p. 169-180.
Latourette, *A History* ..., p. 81-91.
Meyer, *A History*..., p. 46-58.

(١٦٩) Bouchier, *Syria*..., p. 214.
Downey, *«Christian Schools...»*, p. 300 ff.
Kennedy, *Greek Rhetoric*..., p. 169-180.
Aimé Puech, *Histoire de la Littérature Grecque Chrétienne*, Vol. III, p. 219-224, 536-549.

(١٧٠) Bouchier, *Syria*..., p. 269 ff.
Downey, *Gaza*..., p. 18-28.

(١٧١) Downey, «Christian...», p. 297-299.
———, *Gaza*..., p. 108 ff.
Kennedy, *Greek Rhetoric*..., p. 170-176.

(١٧٢) Bouchier, *Syria*..., p. 214-227.

(١٧٣) يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة (مترجم)، ص ٢٠ و ٢٢ و ٣٩٠.

(١٧٤) المصدر نفسه، ص ٤٦٧ ــ ٤٦٨.

(١٧٥) Kennedy, *Greek Rhetoric*..., p. 186-197.
Puech, *Histoire de la Littérature*..., Vol. III, p. 167-219.

(١٧٦) Downey, «Christian...», p. 307.
Goodspeed, *Early*..., p. 189-195.
Puech, *Histoire*..., Vol. III, p. 220 f.

(١٧٧) Puech, *Histoire*..., Vol. III, p. 548-549.

(١٧٨) Downey, «Christian...», p. 307.
Puech, *Histoire*..., Vol. III, p. 567-569.

(١٧٩) Downey, *Gaza*..., p. 108-109.
Kennedy, *Greek Rhetoric*, p. 170-173.

(١٨٠) Kennedy, *Greek Rhetoric*, p. 173-174.

(١٨١) Downey, «Christian...», p. 311 ff.
———, *«Gaza...»*, p. 118-139.
Kennedy, *Greek Rhetoric*..., p. 174-177.

(١٨٢) Downey, «Christian...,» p. 312-315.

(١٨٣) Downey, «Christian...», p. 315-319.
———, *Gaza*..., p. 33-59, 112-116, 160-163.

(١٨٤) G. Foerster, «Art and Architecture in Palestine», *in The Jewish People in the First Century*, Vol. 11, p. 971-1028, see especially p. 972-4. Sharon Kempenski and Michael Avi-Yonah, *Syria and Palestine*, Vol. II, p. 145-147.

(١٨٥) Foerster, «Art and Architecture...», p. 972-975.

(١٨٦) Kempenski and Avi-Yonah, *Syria*..., Vol. II, p. 145-150.

(١٨٧) Abel, *Géographie*..., Vol. II, p. 296 ff, 348, 357-363, 379 f.
Foerster, «Art and Architecture...», p. 977-996.
Kempenski and Avi-Yonah, *Syria*..., Vol. II, 149-150.
Schürer, *History*..., Vol. II, p. 160-164.

(١٨٨) زياده، العالم. . .، ج ٢، ص ٣١٠ ــ ٣١٣. هذا مبني على تقرير وضعه ج. و. كرُوْفوت (J.W. Crowfoot) عن أعمال الحفر التي قام بها هناك في الثلاثينات. وقد نشر التقرير سنة ١٩٤٢.

(١٨٩) المصدر نفسه، ص ٣١٣ ــ ٣١٧.
راجع أيضاً: Iain Browning, *Jerash*, pp. 103-217.

(١٩٠) Foerster, «Art and Architecture...», p. 977-984, 1000-1002.
Kempenski and Avi-Yonah, *Syria*..., Vol. II, p. 151-158, 162-166.

(١٩١) Kempenski and Avi-Yonah, *Syria*..., Vol. II, p. 158-162.

(١٩٢) Kempenski and Avi-Yonah, *Syria*..., Vol. II, p. 158-166.

(١٩٣) Kempenski and Avi-Yonah, *Syria*..., Vol. II, p. 167-181.

(١٩٤) Richard Krautheimer, *Early Christian and Byzantine Architecture*, p. 40-51.

(١٩٥) Krautheimer, *Early*..., p. 60-67, 77-78.

(١٩٦) جان رونسان، تلك آثارنا (مترجم)، ص ٥٤ ــ ٥٦.

(١٩٧) Krautheimer, *Early*..., p. 166-170.

(١٩٨) Krautheimer, *Early*..., p. 211-214, 271-278.
راجع عن كنيسة ايا صوفيا p. 215-270.

(١٩٩) Downey, *Gaza*..., p. 117-139.

(٢٠٠) عن الكنائس التي بنيت في فلسطين إلى زمن الفتح العربي، راجع:
Cyril Mango, *The Art of the Byzantine Empire*, p. 11 f, 30 f, 60 f, 68 f.
Elinor A. Moore, *The Ancient Churches of Old Jerusalem*, p. 1-19.

(٢٠١) Abel, *Géographie*..., Vol. II, p. 193-203.
———, *Histoire*..., Vol. II, p. 344-392.
Avi-Yonah, *The Holy Land*..., p. 122-124.
Downey, *History of Antioch in Syria*, p. 67-86.
A.H.M. Jones, *Cities of the Provinces of the Eastern Roman Empire*, p. 226-263.
———, *The Greek City*..., p. 1-9.
———, *Later*..., Vol. I, p. 42-43, 373, 380-390.
Parker, *A History*..., p. 274.
(S. Thomas) Parker, *Archaeological Survey*..., p. 19-31.
Ziadeh, «The Administration of Bilad...», p. 803-808.

المـــراجع

أولاً ـ المراجع العربية:

أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، الجزء الأول، بيروت، النور، ١٩٥٥.

ـــــ، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، الجزء الأول، بيروت، النور، ١٩٥٨.

جان رونسان، تلك آثارنا، ترجمة إلياس أبي شبكة، بيروت، دار المكشوف، ١٩٤٣.

نجيب بلدي، تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢.

نقولا زياده، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ط ١، القاهرة، مطبعة المقتطف، ١٩٤٣.

ـــــ، العالم القديم، الجزء الثاني، يافا، المكتبة العصرية، ١٩٤٧.

هيئة الموسوعة الفلسطينية، الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ٤ أجزاء، دمشق، ١٩٨٤.

يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ترجمة (القس) مرقس داود، القاهرة، مطبعة النيل، ١٩٦٠.

ثانياً ـ المراجع الأجنبية:

Abel, F.-M., «Alexandre en Syrie et en Palestine», *R.B.*, Vol. XLIII (1935), pp. 528-545.

———, *Géographie de la Palestine*, 2 Vols. (Paris, Gabala and Cie, 1968).

———, *Histoire de la Palestine,* 2 Vols. (Paris, Gabala and Cie, 1952).

Adelson, Howard, *Light Weight Solidi and Byzantine Trade during the Sixth and Seventh Centuries* (New York, American Numismatic Society, 1957).

Aharoni, Yohanan, *The Land of the Bible,* translated by A.F. Rainey (Philadelphia, Westminster Press, 1962).

Alföldi, A., «Crisis of the Empire», *C.A.H.*, Vol. XII (Cambridge, University Press, reprint, 1956), p. 165-231.

Alt, A., «Römische Meilsteine in Palästina», *ZDPV*, Vol. LI (1928), p. 253-264.

Anati, Emmanuel, *Palestine before the Hebrews* (London, Jonathan Cape, 1963).

Anderson, J.G.C., «The Eastern Frontiers», *C A H* , Vol. X (Cambridge, University Press, 1952 reprint).

Applebaum, S., «Economic Life in Palestine», in S. Safrai and M. Stern, (eds.), *The Jewish People in the First Century,* Vol. II, (Philadelphia, Fortress Press, 1976), p. 631-700.

Avi-Yonah, Michael, *Gazetteer of Roman Palestine,* (Jerusalem, Alva, 1976).

———, *The Holy Land,* (Grand Rapids, Michigan. Baker Bookhouse, 1966).

———, *The Jews in Palestine* (Oxford, Basil Blackwell, 1976).

———, The Madaba Mosaic Map (Jerusalem, Israel Exploration Society, 1954).

———, «Map of Roman Palestine», *QDAP,* Vol. V, No. 4 (1936), 139-193.

———, *Oriental Art in Roman Palestine,* (Roma, Centro di Studi Semitici, 1961).

Barnard, L.W., *Justin Martyr* (Cambridge, University Press, 1967).

Baynes, N.H., «The Great Persecution», *C A H.*, Vol. XII (Cambridge, University Press, reprint 1956), p. 646-677.

———, and Moss, H. St. L.B., *Byzantium* (Oxford, Clarendon Press, 1948).

Bell, H. Idris, *Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest,* (Oxford, Clarendon Press, 1948).

Bettenson, Henry, (ed. and trans.), . *The Later Christian Fathers,* (London, Oxford University Press, 1970).

Bevan, Edwyn, *Jerusalem, under the High Priest,* (London, Arnold, 1924).

Bevan, E(dwyn) R., «Syria and the Jews» in *CAH,* Vol. VIII (Cambridge, 1954), p. 495-533.

Bidez, J., «Literature and Philosophy in the Eastern Half of the Empire», in *CAH,* Vol. VII (Cambridge, 1956), p. 611-645.

Bouchier, E.S., *Syria as a Roman Province,* (Oxford, Blackwell, 1916).

Bowerstock, G.W., *Roman Arabia* (Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1983).

British School of Archaeology in Jerusalem, *Bulletin*[4], 1924.

Browning, Iain, *Jerash,* (London, Chatto and Windus, 1975).

———, *Palmyra,* (London, Chatto and Windus, 1979).

———, *Petra,* (London, Chatto and Windus, 1973).

Burnett, Andrew, *The Coins of Late Antiquity, Ad 400-700,* (London, British Museum, 1977).

Burkitt, F.C., «The Christian Church in the East», in *CAH,* Vol. XII, (Cambridge, University Press, 1956), p. 476-514.

Cary, M., «Pompey in Syria», in *CAH,* Vol. IV (Cambridge, University Press, 1951), p. 381-396.

Cary, M. and Scullard, H.M., *A History of Rome*[2], (London, Macmillan, 1974).

Charlesworth, M.P., *Trade-Routes and Commerce of the Roman Empire,* (Cambridge, Heffer and Heffer, 1924; reprint 1961).

Chevallier, Raymond, *Roman Roads,* tr.: H.H., Field (London, Batesford, 1976).

Cohen, Getzel M., *The Seleucid Colonies,* (Wiesbaden, Franz Steiner Verlag, 1978).

Cook, S.A., «Inauguration of the Jews», *CAH*, Vol. VI (Cambridge, University Press, rep. 1953), p. 167-199.

Cumont, Franz, «Frontier Provinces of the East», *CAH*, Vol. XI (Cambridge, University Press, 1954), p. 606-648.

Cyril of Jerusalem, *NPNF*, second series, Vol. VII, (New York, Christian Literature Co., 1890).

Downey, Glanville, «Christian Schools of Palestine: A Chapter in Literary History», *Harvard Library Bulletin*, Vol. XII (1958), p. 297-319.

———, *Gaza in the Early Sixth Century*, (Norman, Oklahoma, Oklahoma University Press, 1963).

———, *History of Antioch in Syria*, (Princeton, New Jersey, Princeton University Press, 1962).

Ensslin. W., «Reforms of Diocletian», *CAH*, Vol. XII (Cambridge, University Press, rep. 1956), p. 383-408.

Eusebius, «Church History and Life of Constantine», *NPNF*, 2nd series, Vol. I (New York, Christian Literature Co., 1890).

Foerster, G., «Art and Architecture in Palestine», in S. Safrai and M. Stern (eds.),*The Jewish People in the First Century*, Vol. II, (Philadelphia, Fortress Press, 1976), p. 971-1006.

Furgeson, W.S., «Leading Ideas of the New Period», *CAH*., Vol. VII (Cambridge University Press, rep. 1954), p. 1-40.

Goodspeed, Edgar J., *A History of Early Christian Literature*, revised and enlarged by Grant, Robert M., (Chicago, University Press, 1966).

Griffith, G.T., *Mercenaries of the Hellenistic World*, (Cambridge, University Press, 1935).

Grimal, Pierre, *Hellenism and the Rise of Rome*, (London, Weidenfield and Nicholson, 1968).

Groom, Nigel, *Frankincense and Myrrh: A Study of the Arabian Incense Trade*, (London, Longman, 1981).

Heichelheim, Fritz M., *An Ancient Economic History*, Vol. III, (Leyden, A.W. Sijthoff, 1970).

———, «Roman Syria» in *An Economic Survey of Ancient Rome*, Vol. IV (Paterson, N.J., Pageant Books, 1959), p. 121-257.

Hengel, Martin, *Jews, Greeks and Barbarians*, tr. J. Bowden. (London,SCM Press, 1980).

———, *Judaism and Hellenism*, 2 Vols. (English edition, J. Bowden, London, SCM Press, 1974).

Holleaux, Maurice, «Rome and Antiochus» *CAH*, Vol. VIII (Cambridge, University Press, rep. 1954), p. 199-240.

Johnson, Paul, *A History of Christianity*, (London, Weidenfield and Nicholson, 1976).

Jones, A.H.M., *Cities of the Provinces of the Eastern Roman Empire, 2nd* edition (Oxford, Clarendon Press, 1971).

———, *Constantine and the Conversion of Europe*[2], (Oxford, Clarendon Press, 1962).

———, *The Decline of the Ancient World*, (London, Longman, 1966).

———, *The Greek City from Alexander to Justinian*, (Oxford, Clarendon Press, 1940).

———, *The Herods of Judaea*, (Oxford, Clarendon Press, 1938).

———, *The Later Roman Empire 284-602*, 4 Vols., Vol. II (Oxford, Basil Blackwell, 1964).

Josephus, Flavius, *Works*, translated by William Whistin (Grand Rapids, Mich. Associated Publisher and Authors, (n.d.).

———, «*The Antiquities of the Jews*», p. 25-426.

———, «*Wars of the Jews*», p. 429-606.

Kempenski, Sharon and Avi-Yonah, Michael, *Syria and Palestine*, Vol. II (Geneva, Nagel Publishers, 1979).

Kennedy, George A., *Greek Rhetoric under Christian Emperors* (Princeton, N.J., Princeton University Press, 1983).

Koester, Helmut, *Introduction to the New Testament*,2 Vols. (Berlin and New York, Walter du Gruyter, 1982).

Kraeling, Emil G., *Bible Atlas*[2], (New York, Rowly Rand, Press, 1962).

Krautheimer, Richard, *Early Christian and Byzantine Architecture*, (3rd edition, Middle sex, England, Penguin Books Ltd., 1979).

Latourette, Kenneth Scott, *A History ofChristianity*,(New York, Harper and Row, 1953).

Leaney, A.R.C., «The Roman Era», in Hayes, John M. and Miller, J. Maxwell, (eds.), *Israelite and Judaean History* (London, SCM Press, 1977), p. 606-662.

Lewis, N. and Reinhold, M., *Roman Civilization: Source, Book II — The Empire*, (New York, Harper, 1966).

Longden, R.P., «The Wars of Trajan», *CAH*, Vol. XI (Cambridge, University Press, rep. 1956), p. 223-252.

MacGregor, C.H. and Purdy, A.C., *Jew and Greek, Tutors to Christ*, (Edinburgh, St. Andrews Press, 1959).

Mango, Cyril, *The Art of the Byzantine Empire*, (Englewood Cliffs, New Jersey, Prentice Hall, 1959).

Meyer, Martin A., *History of the City of Gaza* (New York, AMS, 1907, rep. 1966).

Miller, S.N., «The Army and the Imperial House», *CAH*, Vol. XII (Cambridge, University Press, rep. 1956), p. 1-56.

Momigliano, A., «Herod of Judaea», *CAH*, Vol. X (Cambridge, University Press, rep. 1952), p. 316-339.

———, «Rebellion within the Empire», *C A H*, Voll X (Cambridge, University Press, rep. 1952), p. 849-866.

Neusner, Jacob, «Judaism after the Destruction of the Temple», in Hayes, John H. and Miller, J. Maxwell (eds.), *Israelite and Judaean History* (London, SCM Press, 1977), p. 663-677.

Nock, A.D., *Conversion: The Old and the New in Religion from Alexander the Great to Augustine of Hippo* (London, 1933).

Noth, Martin, *The History of Israel*[2] (London, Adam & Charles Black, 1959).

Oertel, F., «Economic Unification», *C A H*, Vol. X (Cambridge, University Press, rep. 1952), p. 382-424.

Parker, H.M.D., *A History of the Roman World from A.D. 138-337* (revised ed.), (London, Methuen, 1958).

———, *Roman Legions*[2], (Cambridge, Heller and Son, 1958).

Parker, S. Thomas, «Archaeological Survey of the Limes Arabicus», in *ADAJ*, Vol. XXI (1976), p. 19-31.

Perowne, Stuart, *The Life and Times of Herod the Great*, (London, Hodder and Stoughton, 1956).

Peters, F.E., *The Harvest of Hellenism*, (New York, Simon and Schuster, 1970).

Pliny, C.S., *Natural History*, in *LCL*, Vol. 6, (Cambridge, Massachusetts, Bohn 1857).

Preaux, Claire, *Le Monde Hellenistique: La Grèce et l'Orient (323-146 avant J.C.)*, 2 volumes (Paris, Press Universitaires, 1978).

Price, Martin, *Coins and the Bible*, (London, V.C. Vechicitson, 1975).

Puech, Aimé, *Histoire de la Littérature Grecque Chrétienne*, Vol. III (Paris, Société d'Edition, 1930).

Reinfenberg, A., *Soils of Palestine*, (London, Oxford University Press, 1947).

Rostovtzeff, M., «Ptolemaic Egypt», *C A H*, Vol. VII (Cambridge, University Press, rep. 1954), p. 109-154.

———, «Rhodes, Delos and Hellenistic Commerce», *C A H*, Vol. VIII (Cambridge, University Press, rep. 1954), p. 619-667.

———, *Social and Economic History of the Hellenistic World*, 3 vols. (Oxford, Clarendon Press, 1940).

———, *Social and Economic History of the Roman Empire*, 2 Vols. (Oxford, Clarendon Press, 1940).

———, «Syria and the East», *C A H*, Vol. VII (Cambridge, University Press, rep. 1954), p. 155-196.

Safrai, S., «Education and the Study of the Torah», in Safrai, S. and Stern, M. (eds.), *The Jewish People in the First Century*, Vol. II, (Philadelphia, Fortress Press, 1976), p. 945-970.

Schäfer, Peter, «The Hellenistic and Maccabean Period» in Hayes, John M. and Miller, J. Maxwell (eds.), *Israelite and Judaean History*, (London, SCM Press, 1977), p. 593-5604.

Schürer, Emil, *The History of the Jewish People in the Age of Jesus Christ (175 B.C. — A.D. 135)*, A New English version revised and edited by Vermes, Geza, Millar Fergus, 2 Vols. (Edinburg, Clark, 1973).

Shahid, Irfan, *Byzantium and the Arabs in the Fourth Century*, (Washington, D.C. Dumbarton Oaks, 1984).

———, *Rome and the Arabs*, (Washington, D.C., Dumbarton Oaks, 1984).

Socrates, «Church History», *NPNF*, 2nd Series, Vol. II, (New York, Christian Literature Co., 1890).

Stern, M., «The Province of Judaea», in Safrai, S. and Stern M. (eds.), *The Jewish People in the First Century*, Vol. I (Assen, Vangrocum and Comp. 1974), p. 308-376.

———, «The Reign of Herod and the Herodian Dynasty», in Safrai, S. and Stern, M. (eds.), *The Jewish People in the First Century*, Vol. I, (Assen, Vangrocum Comp., 1974), p. 216-307.

Tarn, W.W., «Alexander: Conquest of Persia», *C A H*, Vol. VI (Cambridge, University Press, rep. 1953), p. 352-386.

———, «The Great King and the Satraps», *C A H*, Vol. VI (Cambridge University Press, 1953), p. 19-45.

———, «Parthia», *C A H*, Vol. IX (Cambridge, University Press, rep. 1951), p. 574-615.

Tarn, W.W. and Charlesworth, M.P., «The Triumvirs», *C A H*, Vol. X (Cambridge, University Press, rep. 1952), p. 31-65.

Tarn, W.W. and Griffith, G.T., *Hellenistic Civilization*, 2nd Edition, (London, Arnold, 1959).

Tcherikover, Victor, *Hellenistic Civilization and the Jews*, (Philadelphia, The Jewish Publication Society of America, 1961).

Thomsen, P., «Die romischen Meilensteine — der Provinzen Syria, Arábia und Palästina», *ZDPV*, XL (1917), p. 1-103.

Triminghan, J. Spencer, *Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times*, (London, Longman, 1979).

Vermes, Geza, *Dead Sea Scrolls*, 2nd ed. (London, SCM Press, 1982).

Waterman, Leroy, *Preliminary Report on the University of Michigan Excavations at Sepphoris*, (Ann Arbor, Mich, University Press, 1937).

Yadin, Yigael, *Masada*, (London, Weidenfield and Nicholson, 1966).

Zeno (Papyrii) — editions and translations:

Edgar, C.C., 4 Vols., in *Catalogue Général des Antiquités Egyptiennes du Musée du Caire* (Vols. 79, 82, 85 and 89).

Guéraud, O. and Jouguet, P., *Zenon Papyrii*, (Vol. V), Publications de la Société Fouad I de Papyrologie, Textes et Documents (Le Caire, Service des Antiquités, 1940).

Westermann, W.L. and Hasenoehrl (eds.), *Zenon Papyrii, Business Papers of the Third Century dealing with Palestine and Egypt*, Vols. I & II (New York, Columbia University Press, 1934, 1940).

Zernov, Nicolas, *Eastern Christendom*, (London, Weidenfield and Nicholson, 1961).

Ziadeh, Nicola A., «The Administration of Bilad ash-Sham from the Byzantines to the Early Arabs», in *Mélanges de l'Université St. Joseph*, Tome L (Vol. I & II, 1984), p. 787-812.